مراد هوفمان

الطريق إلى مكة

دار الشروق

مقـــــدمــــــة

عندما نشرت دار ديتريش الألمانية ، فى عام ١٩٩٢ ، كتابى « الإسلام كبديل » ، ثارت زوبعة هائلة فى وسائل الإعلام ، وفى دوائر الأحزاب ، وفى البرلمان . وكان القبول بما ثار آنذاك يعد تفريطا ، لأنه كان يتجاوز شخصى بكثير ؛ فقد كان حملة قذف وتشويه منظمة تستهدف ما هو أبعد من شخصى .

لقد حاولت فى كتابى المذكور ، وبمنهج عقلانى ، دحض جميع التحيزات والأفكار الخاطئة واللا معقولة ، المسبقة والضاربة بجذورها فى أعماق الوجدان الألمانى حيال الإسلام ، خاصة وأننى كنت أشعر بضراوتها وتبادرها للذهن الألمانى قبل أى دراسة أو معرفة بالأمر .

وإذا كان الكتاب المشار إليه قد تناول الإسلام من خلال رؤيته هو لذاته ، وللصورة التى يريد أن يكون عليها ، ولتلك التى ينبغى أن يكون عليها ، فإن الكتاب الحالى يعنى بشىء آخر ، هو حقيقة الإيمان كما أعيشها أنا وأعايشها .

أما حقيقة أن الأديان الكبرى كافة لا تمارس بحذافيرها وفق نموذجها من جانب أتباعها ، فأمر طبيعى ، بل وإنسانى ، بالنظر إلى متطلباتها الأخلاقية والفكرية العالية ، كتلك التى يطمح إليها الإسلام . ومن هذا المنطلق :

إننى أتمنى أن يساعد كتابى هذا على إدراك القوة الدافعة التى يستمدها المسلم المؤمن من دينه ، وكيف تستطيع أن تسمو به ، وأن يساعد كذلك على تبين الأفق الذى يمكن أن يصل إليه العالم الإسلامى عند تمسكه بهذا الدين فى حياته اليومية .

إسطنبول - يناير ١٩٩٦   مراد فلفريد هوفمان

الفصـــل الأول

الرحـــلة إلى مـكـة

بعد أن سلمنا أمتعتنا المتواضعة لكى تشحن إلى جدة ، بعد انتظار طال فى طابور بمطار الدار البيضاء ، فوجئنا بموظف الخطوط الملكية المغربية يخبرنا ، بدون مقدمات، أن علينا أن نختار بين العودة إلى الرباط ، بما يعنيه ذلك من أنه يتعين علينا أن نقطع مسافة ١٢٥ كيلو متر ، أو أن نمضى وقتنا فى الدار البيضاء .

كانت هذه هى الطريقة التى رأى أن يخبرنا بها أن طائرة الجامبوالتابعة للخطوط الجوية السعودية لم تصل إلى داكار بعد فى طريقها إلى الدار البيضاء .

كان هذا الأمر كفيلا ، فى ظروف عادية ، باستفزاز الركاب وإثارة غضبهم . أما فى هذه الظروف ، وكل الركاب من الحجاج ، وغالبيتهم من النساء ، القاصدين مكة لأداء فريضة الحج ، فإن الأمر يختلف ، لأن القرآن الكريم [1] يعلمهم قائلا : ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمْه الله وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾ (سورة البقرة ـ الآية ١٩٧) . ومعنى ذلك أن على الحاج أن يتحلى بالصبر ، وأن يتفادى الدخول فى خلاف أوحتى الشروع فيه . ناهيك عن أنه محرم عليه أن يجرح شخصا أو شيئا ، أو أن يقتلع نباتا ، أو يقتل حتى بعوضة .

لهذا السبب ، بقيت الأمور هادئة ، فى إطار من السلوك المتحضر . وانتهى الأمر بتأجيل سفرنا من مساء يوم ٢٨ من مايو عام ١٩٩٢ ، إلى صباح اليوم التالى . وعلى الرغم من ذلك ، فإن أيا من الحجاج لم يرغب فى مغادرة مطار محمد الخامس ؛ فمن ذا الذى يجازف بتعريض نفسه لاحتمال التخلف عن أهم رحلة فى حياته ، خاصة وأنه كان قد ودَّع بالفعل من قِبل أقاربه وأصدقائه ؟ ! واستعادوا إلى الذاكرة أن رحلة المغربى

إلى الأماكن المقدسة بالحجاز كانت تستغرق فى الأزمنة السالفة حولا كاملا ، ناهيك عن أنها كانت تعنى للكثيَرين رحلة بلا عودة !!

لم يكن أحد ليرغب فى العودة إلى الرباط ، قبل أن يؤدى فريضة الحج إلى بيت الله بمكة[٢] ، ويعود مسلما حاجا .

وعند صلاة العشاء ، يتحول مطار الدار البيضاء بصالة السفر وصالة كبار الزوار إلى مسجد كبير ممتد الأركان . ويتكرر هذا الأمر مرة أخرى عند صلاة الفجر .

وتقوم فلاحة من الريف برعاية زوجها الكفيف بشكل مؤثر . أما هو فمستغرق فى الصلاة على نحو يحتذى به البصير !

ونحاول فى تلك الأثناء ، والشحوب يكسو وجوهنا والكلام يندر بيننا ، أن نحصل على شىء من الطعام من مطعم المطار .

على المنضدة التى كنت أجلس عليها ، كان شاب سعودى يجلس . تحدث بدون مقدمات ، فقال : أتعرض فى سفرياتى لإغراء احتساء الخمر ، ولكن يمنعنى عنه ما تحدثنى به نفسى : إنك من أهل مكة !

وأتذكر بعضا من الدبلوماسيين ورجال الأعمال السعوديين المخمورين ، وأتمنى أن يسلكوا مسلك هذا الشاب ، وأن يفرض عليهم انتماؤهم إلى مكة نوعا من الالتزام .

أخيرا ، وفى الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالى ، تقلع طائرة الخطوط الجوية السعودية من طراز بوينج ٧٤٧ متجهة إلى جدة ، مرورا بداكار ، عبر كل من صحارى ليبيا الشاسعة والسودان .

وبدلا من الموسيقى « المخدرة » ، التى اعتدنا أن نسمعها عند إقلاع الطائرات ، تنبعث من أجهزة الاستماع بالطائرة آيات من القرآن الكريم .

فى داكار ، ينضم إلى رحلتنا عدد من الحجاج ، بينهم مختار ديورى نجل الرئيس السنغالى ضيوف . وننظر إليهم ، فنجدهم أمثلة مضيئة للحجاج ، تشع وجوههم سعادة واطمئنانا .

تقترب رحلة الطائرة من نهايتها ، ويعلن قائدها قبل هبوطها بنصف ساعة أننا سنطير فوق منطقة الحرم حول مكة ، وهى منطقة لا يدخلها الحاج ، حتى وإن كان محلقا فى الفضاء ، إلا بملابس الإحرام .

كان هذا الإعلان بمثابة تنبيه لكل من عقد العزم والنية على أداء فريضة الحج وبدء مناسكه ، لكي يرتدي ملابس الإحرام . ولم تلبث مقاعد الركاب أن أشرقت في الحال ، وتلألأت ببياض مبهر !

فالنساء جميعا يرتدين ملابس بيضاء ، تغطى معاصمهن وأقدامهن ، ويضعن على رءوسهن أغطية رأس بيضاء ، بينما يلف الرجال حول الكتف والخصر مناشف بيضاء ، طولها ١٨٠ سنتيمترا ، وعرضها ١٠٠ سنتيمتر .

لم أبدل ثيابي ، لأنني كنت قد عقدت العزم على التوجه أولا إلى قبر محمد ﷺ بالمدينة ، ثم أقوم بعد زيارته بمناسك الشروع في الحج قبل التوجه إلى مكة .

كان كل ما يحتاج إليه الحاج في حقيبتي ، وقد حصلت عليه من سوق سالي ، مدينة القراصنة القديمة ، ذلك السوق الذي يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى . وكل متاع الحاج قطعتا قماش ، وحافظة غير مخيطة لحمل القرآن الكريم وبعض من الماء ، ومظلة بيضاء للوقاية من أشعة الشمس (شمسية) ، وحزام عريض من الجلد ، غير مخيط وإنما مبرشم ، لتثبيت المنشفة وبه الجيوب الثلاثة المعتادة التي يستخدم أحدها لحفظ جواز السفر ، والثاني لحفظ تذكرة الطائرة ، والثالث لحفظ بعض الأدوية . وكنت قد أحضرت معي ، عملا بنصيحة الطبيبة الخبيرة بالحج ، أدوية لعلاج آلام الرأس (الصداع) ، وآلام الأسنان ، واضطرابات المعدة ، والإسهال والقيء ، وارتفاع درجة الحرارة ، إلى جانب ضمادات للأقدام الملتهبة ، ومصل للوقاية من الالتهاب السحائي . وكان معي أيضا ، بالإضافة إلى ما تقدم ، زوجان من « الصنادل »غير مخيطين ، صنعهما بناء على طلبي ولصقهما وضفرهما إسكافي شبه كفيف في سوق سالي . ويبدو على الأرجح أن هذا الشيخ عمل طوال حياته في صناعة أحذية الحجاج وتزويدهم بها ، غير أنه ـ على ما يبدو لي ـ لم يعد متمكنا من حرفته . فعند انصرافي من أمامه ، أومأ لي أحد جيرانه ، وأخذ مني زوجي الصنادل ، وقام ، في صمت تام ودون أن يلحظ الشيخ المسكين شيئا ، بإصلاحهما بدون مقابل .

تمكن قائد الطائرة من الهبوط في المطار الصحيح بين مطارات جدة الخمسة . فهذا المطار يبدو ـ على الرغم من كونه بناء أسمنتيا ـ وكأنه مدينة خيام تنساب سابحة فوق الرمال .

تعهدني منذ وصولي ـ كما تعهد غيري ـ مطوف يضطلع بمسئولية إقامتنا وانتقالاتنا ، وطبعا إرشادنا لمناسك الحج . وكان علمنا بهذا الأمر مبعث اطمئنان لنا ، مع أن المرء منا

كان قد حاول - فيما يشبه دراسة دينية - أن يحفظ كل ما عليه أن يفعله طبقا لما ورد فى القرآن والسنّة ، حتى يتقبل الله منه[٣] إن شاء الله .

فى الفندق الذى نزلت به ، حيث كنت أقيم تحت رعاية إدارة المراسم الملكية ، التقيت بمسلمين من أنحاء العالم كافة ، من جزر القمر إلى واشنطن العاصمة . وكانت أحاديثنا تدور حول شىء واحد ، هو الإسلام . وبفضل المناقشات الفكرية التى جرت بيننا ، بدت لى رحلة الحج وكأنها جامعة متنقلة . وكان أحد من تحاورت معهم هو الشيخ محفوظ نعناع ، من الجزائر . وقد قدر لى أن ألقاه أكثر من مرة أثناء رحلة الحج .

فى طريقنا إلى المطار الحربى يوم ٣١ من مايو ، اندفعت قافلتنا بسرعة جنونية ، مخترقة شوارع جدة ، حتى إننا فقدنا إحدى سياراتنا الليموزين . وحينما وصلنا إلى المطار قبل الموعد المحدد ، كان علينا أن ننتظر ركاب السيارة الليموزين المفقودة ، فى جو قائظ تصل حرارته ٤٠ درجة مئوية !! ألم أقل من قبل إن الصبر هو أولى فضائل الحج ؟!

أقلتنا طائرة من طراز هرقل ١٣٠ ، تابعة للقوات الجوية السعودية ، فى رحلة استغرقت ٥٠ دقيقة ، إلى المدينة المنورة ، التى كانت ملجأ وملاذ محمد ﷺ ممن اضطهدوه من المكيين ، وفيها أصبح الإسلام دينا ودولة ، ووضع رسول الإسلام ﷺ أول دستور مكتوب لكيان فيدرالى - يحقق اتحادا بين المسلمين واليهود - وفيها أكمل رسالته الخاتمة ، وفيها توفى .

توجهت على الفور ، بصحبة الشيخ نعناع ، إلى مسجد الرسول ﷺ حيث قبره . ولقد أنشىء هذا المسجد بجوار مقر إقامة محمد ﷺ . . ومع الحفاظ على منازله ﷺ جرى توسيع المسجد أكثر من مرة . وتبدو كل المحاولات السابقة لتوسيعه شديدة التواضع بالمقارنة بالتوسعات الأخيرة كما يرى الجميع . ففى زيارتى الأخيرة ، فى عام ١٩٨٢ ، كان هناك ٦ مآذن فقط ، صارت الآن ١١ مئذنة ، ومن المخطط له بناء ٣ مآذن أخرى . وفيما مضى ، كان المسجد يسع بضع مئات من المصلين ، أما الآن فتبلغ مساحته حوالى ٧٠٠ ألف متر مربع ، تسع حوالى ٦٠٠ ألف مصلّ . أما أعمدته الكثيرة ، فصورة مصغرة للمسجد الأموى بقرطبة . ولقد قامت إحدى الشركات الهندسية ، التى يديرها مسلمون ألمان ، بتزويد المساحات غير المسقوفة من المسجد بمظلا ت واقية من أشعة الشمس ، يبلغ قطر كل منها حوالى ١٨ مترا ، تفتح وتغلق حسب سقوط أشعة الشمس ، وتستدير فى اتجاهها .

حينما حان موعد صلاة العشاء ، ودرجة الحرارة ٤٤ درجة مئوية ، اجتمع فى المسجد مئات الألوف من المصلين ، جاءوا من شتى الاتجاهات .

وعندما تحاول سيارات الليموزين الأمريكية الفارهة ، التى تقل بعض الحجاج ، اختراق حشود المسلمين ، لا تسمع كلمة غاضبة ، ولا تصدر إشارة قبيحة ، ولا يضرب أحد بيده على السيارة حقدا على أصحابها .

ويبقى الانضباط والالتزام بهذا السلوك من جانب هذا الحشد من المسلمين مثيرين للدهشة ، حتى بالنظر إلى التزام الحجاج بمسالمة الإنسان والحيوان والنبات . ولم أكن أعتقد قبل هذه التجربة أن التعاليم الدينية تستطيع أن تلغى بعض القوانين والقواعد الاجتماعية لفترة من الزمن .

كان يجاورنى فى الصلاة مواطن باكستانى يعمل فى بنك بالبحرين ، ومواطن تركى يعمل فى بوخوم . وهذا الالتقاء العالمى هو أحد أهداف الحج . وعلى الرغم من أن جوانب المسجد مفتوحة ، فإننا لم نكن نتوقع أن تكون درجة الحرارة بداخل المسجد ٢٨ درجة مئوية فقط . وهو ما أثار دهشتنا التى لم تلبث أن تبددت حينما علمنا أن المسئولين السعوديين يمررون ماء مثلجا تحت المسجد . ولا بد أن هذا الماء يأتى من مسافة بعيدة ، لأن الحرارة الناتجة عن عملية التبريد كانت كفيلة بأن تصل بهذه المدينة إلى درجة الغليان .

تمكنا عند منتصف الليل من زيارة قبر محمد ﷺ وقبرى أبى بكر وعمر - أول وثانى الخلفاء الراشدين - فى أقدم أجزاء المسجد ، حيث كان منزل الرسول ﷺ ومقر إقامته . هاهنا مثواه ، حيث دفن فى منزل زوجته الشابة عائشة ، التى تحظى باحترام كبير ، والمعروف عنها ذكاؤها الشديد ، وإليها يرجع الفضل فى وصول عدد كبير من الأحاديث الصحيحة إلينا ، فى صورتها الدقيقة .

إن الوجود حيث عاش الرسول ﷺ - الذى حظى باحترام شديد دون أن يؤله على الإطلاق - وحيث خطط ، وعمل ، ووعظ ، وأحب ، وعانى سكرات الموت ، لأمر يستحوذ على الأنفس كلها . وفى هذا المكان ، الذى يفوح منه عبق التاريخ ، هزت التجربة ، من الأعماق ، بعض الحجاج المصاحبين لى ، فأجهشوا ببكاء حار .

وحين انصرافنا من المسجد عند منتصف الليل ، رأيت مجموعة من نساء ماليزيا ما تزال تحتل محرابه الوقور مع بساطته . إنهن لم يشبعن من أداء الصلاة فى هذه البقعة الشريفة . ولم يخطر ببال أحد - حتى من مسئولى النظافة - أن يبعدهن ، ولو بمجرد النظر إلى الساعة !

عقب انصرافنا من المسجد ، شاركنا حتى صلاة الفجر فى نقاش مع مجموعة من طلاب الشريعة الجزائريين فى مكان إقامتهم المتواضع النظيف الذى يطلقون عليه - بحق - اسم « النهضة » . وكنت قد أدركت ، ونحن فى الطريق إليهم ، الشعبية المنقطعة النظير التى يحظى بها رفيق رحلتى . فلم يكن الشيخ نعناع يسير ٥٠ مترا دون أن يلقاه أحد الجزائريين مرحبا ، ومعانقا ، وسائلا المشورة .

فى اليوم التالى ، قمت بزيارة إلى البقيع ، المقابر الشهيرة ، حيث يرقد جثمان كثير من الصحابة وأهل بيت الرسول ﷺ ، الذين وافتهم المنية بالمدينة . ومن بين من دفن هنا : السيدة عائشة ، والسيدة فاطمة ابنة الرسول ﷺ زوجة على وأم حفيدى الرسول ﷺ : الحسن والحسين . وتطبيقا للفكر الوهابى ، لا توجد هنا مشاهد مميزة للمقابر ، خلافا لما عليه الحال فى طراز المرابطين فى المغرب . بل إن الأمر يختلف أيضا اليوم عما كان عليه فى عام ١٩٨٢ ، حيث أمكننا آنذاك التعرف على قبر الخليفة عثمان . فالمقابر قد سويت بالأرض ، ولم يعد هناك اليوم من سبيل إلى قصدها للزيارة ، وإحياء ذكرى من يرقدون بها من الموتى . ويمثل هذا المنع الجذرى لمظاهر التأليه استفزازا لمجموعة من الحجاج الشيعة من إيران ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بفاطمة الزهراء .

وكان من وافاه أجله من الحجاج ، يُحمل إلى المسجد لتقام عليه صلاة الجنازة . ولم يكن يحزننا سوى أنهم لم يكملوا أداء مناسك الحج . ولكن أهناك موت أفضل من الموت بمكة أوفى المدينة ؟ ! أولا يأتى كثيرون إلى هنا بأمل قضاء أيامهم الأخيرة ؟! لقد كنت أدرك احتمال أن أكون بين من يُحملون إلى المسجد فى مرة قادمة ، لكن ، لم يفزعنى هذا الخاطر على الإطلاق .

بعد زيارة البقيع ، توجهنا إلى المسجدين التاريخيين : قباء والقبلتين ، وإلى موقع معركة أحد حيث مثوى سبعين من الصحابة ، بينهم الفارس حمزة عم محمد ﷺ ، وحيث منى المسلمون الأوائل بهزيمتهم القاسية والوحيدة ، بسبب ضعف الانضباط وعدم الالتزام التكتيكى ، وحيث أصيب محمد ﷺ بإصابات بالغة ، وتعرض للموت .

إن منطقة أحد لاتعدو اليوم أن تكون مكانا مقفرا قاحلا ، لازرع فيه ولا ضرع ، ولا يتيح لسائح راغب فى العلم أوالمعرفة أن يحقق رغبته . أما المسجدان الموصوفان بأنهما تاريخيان ، فبلا تاريخ ، للأسف الشديد . فبسبب النظرة الوهابية والخوف الوهابى من أن يؤدى التقدير العظيم لما هو قديم إلى الشّرك ، أعيد بناء المسجدين - دون مراعاة

لمكانتيهما ـ على نحو طمس معالمهما التاريخية . لقد كان باستطاعتى فى عام ١٩٨٢ أن أرى القبلتين فى مسجد القبلتين . القبلة الأولى للمسلمين الأوائل باتجاه القدس ، والقبلة الثانية للمسلسين الأوائل أيضا باتجاه مكة .

فى اليوم الثالث من شهر يونيو ، عدنا إلى جدة على متن إحدى طائرات القوات الجوية السعودية .

وكنا قبل العودة قد زرنا أحدث مطابع العالم عند طرف المدينة المنورة ، حيث يطبع سنويا ٣٨مليون نسخة من القرآن الكريم توزع مجانا ، من بينها ملايين من النسخ من الترجمات الإنجليزية والفرنسية ، وحتى الكورية ، للقرآن الكريم . ويحصل كل حاج على نسخة خاصة له .

عقدت النية على أداء فريضة الحج ، وعلى نحو أقرب ما يكون للذى فعله الرسول ﷺ، أى أداء مناسك العمرة أولا ثم أداء مناسك الحج . فاغتسلت وتلوت الأدعية الواجبة ، وارتديت ملابس الإحرام ، وبذلك أتممت استعدادى لأداء فريضة الحج قبل أن نتوجه إلى المطار بفترة قصيرة . . . . بفترة قصيرة ؟! لقد انتظرنا لمدة ساعتين وصول السيارة التى كانت ستقلنا إلى المطار ، حيث انتظرنا لمدة ساعتين أخريين قبل أن تقلع بنا الطائرة . ومع ذلك لم ينبس أحد بكلمة .

انتهزت فرصة وقت الانتظار للتحدث مع مجموعة من المتخصصين فى الكومبيوتر من أمريكا الشمالية ، سرعان ما تبين أنهم من الشيعة . هل يمكن للمرء أن يتخيل عملا يلقى نفورا واستهجانا أكثر من هذا لدى الرأى العام الأمريكى خاصة فى ظل حرب الخليج الثانية ؟!

على الرغم من أننى ارتديت ملابس الإحرام لمدة نصف يوم عندما أديت عمرتى الأولى ـ الحج الأصغر ـ فى عام ١٩٨٢ ، فإننى لا أشعر بعد بالراحة فى ملابس الإحرام هذه المرة . ومع ذلك ، يستطيع المرء أن يحمى نفسه من ضربة الشمس بواسطة الجزء العلوى الذى يتحرك دوما من مكانه ، كما أن نسيجها يمتص العرق ، وإن كانت الأبدان تقشعر من البرد فى الغرف المكيفة . ولكن أهم ما فى الأمر هو أن الحجاج كافة يرتدون الثياب نفسها ، يستوى فى ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم ، أقوياؤهم وضعفاؤهم ، أذكياؤهم وبسطاؤهم ، كبيرهم وصغيرهم . ولما كانت ملابس الإحرام خالية من النقوش أو الخياطات ، فلا يمكن لأحد أن يتميز عن آخر ، ولو بمجرد الخياطة الأنظف

ولاترمز ملابس الإحرام فقط إلى تساوى البشر أمام الله ، وإنما ترمز أيضا إلى يوم القيامة . فلقد كنا نبدو - ونحن نقطع صالة المطار جيئة وذهابا - كمن قام من الموت وما يزال يرتدى كفنه . بل إن كثيرا من الحجاج يحتفظون بالفعل بملابس إحرامهم كأكفان لهم .

عند إقلاع الطائرة ، كان بعض مسئولى البروتوكول فى المدينة المنورة يقفون هناك .

كل حركاتهم وخطواتهم وقورة ومحسوبة . وهم جميعا يتمتعون بقامات فارعة ، وبروفيل نبيل معبر ذى أنف معقوفة قليلا ، ولحى قصيرة معتنى بها بشدة . وتوحى عباءاتهم الخفيفة السوداء ذات الحواشى الذهبية بجلال ملكى . . . أى تناقض بين ما هم فيه ، وما نحن فيه من أكفاننا ؟!

كان رفاق رحلة حجى من السنغاليين فى الطائرة شديدى الحساسية تجاه العرب ، الذين يعتبرون أنفسهم - تشبها باليهود - أفراد شعب الله المختار ، كما هو الأمر فى حالة قريش مكة وقبائل المدينة ، وهم ليسوا كذلك وحدهم بطبيعة الحال . ومن جانبى ، أقررت أنه لا بد للمرء من أن تدور رأسه غرورا إذا ماصادفه الحظ الأوفر مرتين فى تاريخ العالم : أولاهما ، عندما بعث خاتم الرسل فى الأرض العربية برسالة بالعربية . والثانية ، عند ظهور بركة النفط والغاز الطبيعى . . .

رفض جميع من بالطائرة القبول بأن العرب ينفردون بوضع يتيح لهم وحدهم فهم الرسالة الإلهية للقرآن . فالإسلام لا يعرف التفرقة العنصرية .

كان ضجيج الطائرة يجعل من مواصلة هذه الأحاديث أمرا شاقا . ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للتلبية ، التى أخذنا نرددها كما فعل كل الحجاج قبلنا منذ ١٤٠٠ سنة : « لبيك اللهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك . . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . ولسوف يظل هذا الدعاء يتردد على مسامعى حتى يوم عيد الأضحى ، إن لم يكن منى أنا فمن شخص على مقربة منى . وكنا قد علمنا فى هذا اليوم بموعد العيد ، فلقد ظهر هلال شهر ذى الحجة بالليل . ومعنى ذلك أن وقفة عرفات ستكون يوم العاشر من شهر يونيو ، وسيكون عيد الأضحى يوم الحادى عشر منه ، حيث نصل إلى نهاية المطاف .

فى الرابع من شهر يونيو ، قمت برفقة وزير الشئون الإسلامية السريلانكى وأسرته بأداء العمرة . ولقد كان انتظارنا فى جدة طوال فترتى ما بعد الظهر والمساء ، قبل أن

نغادرها إلى مكة ، أمرا مفيدا ، لأننا حينما وصلنا إلى مكة عند منتصف الليل كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ٣٨ درجة مئوية . وقبيل أن نصل إلى غايتنا ، عبرنا أحد الأنفاق التى شُقّت فى صخور مكة المكرمة . ولكم كانت المفاجأة مذهلة ، عندما خرجنا من النفق لنجد أمامنا المسجد الكبير الرائع !

هانحن أولاء نقف فى تقليد إبراهيمى أمام أقدم معابد التوحيد فى العالم . . أمام الكعبة . والكعبة مكعب مجوف خال تماما ، مبنى بأحجار ضخمة . إنها صورة معمارية لكمال الله فى أبسط تصوير ، بعيدا عن التعقيد الذى يبدو فى الفن القوطى وفن الروكوكو . وهى تُكْسى بمخمل أسود مطرز بآيات من القرآن الكريم بخيوط من الذهب . ويجرى تغيير الكسوة سنويا . وتتوفر مجموعة من المطرزين طوال العام على إعداد الكسوة فى ثوب فنى جميل . وفيما سلف من الزمان ، كانت كسوة الكعبة تأتى من القاهرة هدية من الخديوى ، وترفع الكسوة عن الكعبة أثناء فترة الحج ، حتى لا يتصور أحد أن بيت الله تحفة فنية ، أو يراد له أن يكون تحفة فنية .

عند دخولنا إلى الحرم المكى ، خضعنا لعملية تفتيش سريعة ، للتأكد من أننا لا نحمل أسلحة ، دلفنا بعدها إلى داخله برغبة تكاد تكون مقدسة للطواف سبعا وتواعدنا على اللقاء بعد ساعتين .

بدأنا بعد ذلك نطوف حول الكعبة . . التى يتجه إليها مليار من البشر فى صلواتهم اليومية . ولم يغب عن خاطرى طوال الطواف أننا نتوجه فى طوافنا إلى الله . وأضفت إلى الأدعية المعتادة دعاء شخصيا مفاده : « اللهم اجعل الحق يقر فى نفسى ، واجعل الحق حقيقتى الشخصية » .

تذكرت أن هذا البيت كان فى سنوات شباب محمد مليئا بالأصنام ، ومن بينها تمثالان : أحدهما للمسيح ، والآخر لمريم . أى أنه كان يعكس تعددا دينيا اقتصاديا ناجحا ومذهلا ، إذ كان يتطابق مع معنى أيديولوجى حديث ألا وهو « كل شىء يصلح » . ولقد كانت مكة آنذاك مركزا تجاريا عالميا . أما اليوم ، فهى مركز حج عالمى . وكانت وقتها تستقبل فى الأشهر الأربعة الحرم أى إنسان ، بينما لا تستقبل اليوم سوى المسلمين من أرجاء العالم كافة .

لم يكن من اليسير ، والحجاج يتدافعون ويتزاحمون ، أن تعى رمزا لمكان ، وأن تحتفظ فى هذا الخضم الهائل بروحانية الفعل الذى لولاه لتحول الحج إلى مجهود بدنى

بحث . وكنت غالبا ما أدفع من نساء أناضوليات عريضات البنية ، يتعلقن بأزواجهن الأقوياء الذين يتقدمونهن . وهذا أمر لا يفتقر إلى الغرابة ، خاصة أن قائد هذا التشكيل يرفع كتاب أدعية باللغة التركية ، يتلو منه بإخلاص واجتهاد ولكنه أبعد ما يكون عن الطرافة ، بل هو أمر يهدد الحياة نفسها إذا ما تحول المرء إلى كرة تتقاذفها هذه المجاميع التى تتصبب عرقا . وهذه ظاهرة يعرفها المرء فى ملاعب كرة القدم . ويبلغ هذا الخطر ذروته عند الحجر الأسود . فهنا يتزاحم ويتدافع الوافدون الجدد لبدء الطواف من أجل الوصول إلى الداخل ، بينما يتزاحم ويتدافع من أتموا طوافهم للخروج . وهنا تتعطل الحركة وتشل ، لأن العادة جرت على أن يتوجه الحاج إلى الحجر الأسود رافعا يده مرددا : « الحمد لله » . وكانت الفرصة قد أتيحت لى من قبل لتقبيل الحجر الأسود ذى الإطار الفضى القابع فى أحد أركان الكعبة . ولذلك ، لم يكن ملائما أو لائقا أن أتهكم على انبهار الحجاج بهذا الحجر النيزكى ، مع أنه لا يحظى بأى أهمية أو دور فى مناسك الحج . ولما كان قدماء العرب قد عبدوا آلهة من حجر ، فإن الإسلام يتعامل مع توقير وتقديس الأحجار باستياء شديد ، سواء أكانت بيضاء أو سوداء أو رمادية .

ويعزى الاهتمام الذى يحظى به الحجر الأسود إلى أسباب تاريخية . فلقد تعرضت الكعبة مرارا لأعاصير . ومن رأى تحول الوديان الجافة فى شمال إفريقيا والشرق الأدنى إلى أنهار تجرف فى طريقها كل شىء ، لا يندهش من ذلك . وفى أثناء ذلك ، كان الحجر الأسود الذى لا ينفع ولا يضر هو الأثر الوحيد الباقى من فترة ما قبل الإسلام. وهو بإيجاز أقدم أجزاء الكعبة ، ناهيك عن أن محمدا ﷺ شخصيا هو الذى وضعه حيث هو اليوم . فعند إعادة بناء الكعبة ، تنازع أشراف مكة شرف وضع الحجر الأسود فى موضعه القديم . وقام محمد ﷺ بحل نزاعهم ، عندما اقترح وضع الحجر الأسود فى ثوب يمسك بأطرافه جميع أشراف مكة لرفعه ، ليقوم هو - الحكم المحايد - بوضعه حيث هو الآن . ولذلك فإن من يلمس هذا الحجر يتصل اتصالا ماديا بالرسول ﷺ ، وينضم مثل ملايين سبقوه فى سلسلة متواصلة . ولم يكن هذا الأمر يمثل لرفاقى فى الحج إلا مصدرا لإلهام رمزى .

أفقت من تداعى أفكارى وخواطرى مذعورا على مشهد امرأة محمولة ، فاقدة الوعى . وكانت ، ككل الماليزيات المنظمات بطريقة مثلى ، تثبت ألوان علم بلادها وبياناتها الشخصية على قطعة من قماش تضعها خلف غطاء رأسها ، مما يسهل معه التعرف عليها . ولم تكن هذه أول امرأة تلقى حتفها بسبب الزحام أثناء الطواف .

وعلى الرغم من هذا الزحام الشديد ، كانت هناك عجائب وآيات من التسامح والرحمة . فلقد مررت لتوى بحاج سعيد يطوف حول الكعبة على عكازين ، يمنعه كبرياؤه ـ وربما يمنعه فقره ـ من أن يحمله أحد الزنوج الأقوياء ، أو يدفعه أحد على كرسى متحرك ، ويحيطه الحجاج بالعناية والحذر حتى لايقع . واسترعى انتباهى أيضا مشهد مجموعة من الحجاج يخرون على الأرض سجدا وسط فيض من الحجاج . ولقد كدت أقول لهم : أيها الحجاج ، هل يتحتم فعل هذا الذى تفعلون ؟! ولكنى لم أقلها .

فى وجود هذا العدد الغفير من الحجاج ، يحتاج الطواف حول الكعبة سبعا إلى نحو الساعة أو ما يزيد . ولحسن الحظ ، كانت الليلة باردة بعض الشىء ، لأنه إذا ما تعرض إنسان وسط أوربا لأشعة الشمس المباشرة ـ وهى فى أوجها ـ لمدة ساعة واحدة ، فلا بد من أن يفيق ليجد نفسه فى إحدى وحدات العلاج المتخصصة فى علاج المصابين بضربة الشمس .

بعد أن أتممت الطواف ، شربت ماء زمزم ، فأحسست بالانتعاش بكل ما تحمله الكلمة من معان ، وعقدت العزم على حمل ٢٠ لترا منه إلى الرباط ، ليرتشف الأصدقاء والخدم رشفات منه ، وكأن هذا الماء يماثل الذهب فى قيمته . وهكذا ، يتحقق التواصل مع مكة ماديا .

حان الوقت لأداء ركعتين فى مقام إبراهيم . وهذا الموقع القريب من باب الكعبة ، والمذكور فى القرآن الكريم ، يذكرنا بأن الكعبة بناها أبو الساميين جميعا ، ومعه ابنه ـ من زوجته الثانية هاجر ـ إسماعيل أبو العرب . وكان إبراهيم يتردد على أسرته العربية ، التى كان قد أسكنها فى مكة قبل ذلك بسنوات عديدة ، بعد أن صارت زوجته سارة ـ التى رزقت فى سن متقدمة بأبى اليهود إسحاق ـ لا تقبل بوجود غريمتها (ضرتها) معها .

كان البعض ، حتى من المسلمين ، يميل إلى رؤية هذه الرواية ، التى وردت فى القرآن والتوراة ، باعتبارها أسطورة حسنة . وكان لا بد من أن ينشر كمال صليبى ، وهو أستاذ بروتستانتى ، كتابه « لقد أتت التوراة من عسير » ، ليقتنع حتى أولئك المسلون أن القبائل اليهودية استوطنت غربى أرض العرب ، وبالتحديد إقليم عسير الواقع بين الطائف واليمن ، حتى عام ٥٠٠ قبل الميلاد . ومن ثم ، فإن هذه «الأساطير» التى تستند إليها طقوس (مناسك) الحج قد وقعت بالفعل على نحو ما وصلت إلينا .

في أثناء بحثي عن مكان لأداء الصلاة ، التقيت بكل من زميليّ سفير غينيا في الرباط ، ومفتي لبنان . وكانت لهما نفس الرغبة ، وذات المشكلة . وعثرت أخيرا على مكان بجوار مجموعة من الحجاج التركمان أو المغول الذين يأخذون قسطا من الراحة في الجزء المسقوف من المسجد ، حيث يقرأ بعضهم القرآن ، ويتناول البعض شيئا من الطعام ، بينما البعض نائم في انتظار أذان الفجر . ومع ذلك ، تابعت السير مسرعا لأسعى سبعا بين الصفا والمروة ، كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم : ﴿ **إن الصَّفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطَّوَّف بهما ومن تطوَّع خيرا فإن الله شاكر عليم** ﴾ (سورة البقرة : آية ١٥٨) .

وللتذكرة ، جرى هذا السعي في واقع الأمر من أجل العثور على بئر زمزم . فالرواية تَروي أن السيدة هاجر وجدت نفسها في عناء وبأس شديدين ، بعد أن تركها إبراهيم مع طفلها الصغير إسماعيل في الوادي المقفر ﴿ **بواد غير ذي زرع** ﴾ (سورة إبراهيم : آية ٣٧) بمكة . وراحت هاجر تسعى بين الجبلين بحثا عن الماء . وعندما عادت منهكة بائسة لتضم طفلها إليها ، كانت المشكلة قد حلت ، فلقد كان إسماعيل يلهو وسط نبع ماء ، هو اليوم بئر زمزم . وإحياء لذكرى هذا الحدث ، بما يدل عليه من رعاية الله ورحمته ، كان السعي الذي يصبح في ظروف الحج مشقة بدنية ، خاصة وأن على المرء أن يقطع بعض أجزاء الطريق مهرولا . وعندما وصلت ، منهكا غير بائس ، إلى بئر زمزم لأنهل منه مرة أخرى ، لم أغفل عن الرمز الذي تنطوي عليه هذه الشعيرة .

أستطيع الآن أن أقص إحدى خصلات شعري ، منهيا الجزء الأول من حجي ، بينما اختار آخرون ، كما هو حال رفاقي من الحجاج السنغاليين ، البديل الأكثر صعوبة وهو حج القِران ، أي الإقران بين الحج والعمرة (وَصْلهما) ، ومن ثم فإنهم سيرتدون ملابسَ الإحرام إلى أن تنتهي جميع المناسك .

ركنت إلى الراحة في اليوم التالي ، حتى أشفى من الإسهال الذي أصابني ، ومن نزلة البرد التي ألمت بي كأمر لا بد منه ، بسبب الإجهاد . وقمت أثناء ذلك بتحليل برامج التلفزيون السعودي ، التي لا تختلف في واقع الأمر عن « موعظة الأحد » . ولقد أكد أحد الأئمة اليوم على شاشة التلفزيون على أن من ينكر أن عيسى رسول من عند الله ليس بمُسْلم . وقال : إن الإسلام لا يقبل التقليد الأعمى ، وإنه ليس هناك إنسان مُعْفَى من التفكير . وساق ، للتأكيد على ذلك ، تفسيرا مبتكرا غير تقليدي

للقول الكريم: ﴿ نور على نور ﴾ فى آية سورة النور بالقرآن الكريم : ﴿ الله نُورُ السموات والأرض مَثَل نُوره كمشكاة فيها مصباح المصباحُ فى زجاجة الزجاجةُ كأنها كوكب دُرّىّ يُوقَدُ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يُضىء ولو لم تمسسه نار نُورٌ على نور يَهدى الله لنوره مَن يشاء ويضرب الله الأمثال للناس واللهُ بكل شىء عليم ﴾ (النور : ٣٥). فالمعنى المراد - حسب هذا التفسير - هو أن النور الجديد الذى أتت به الرسالة يكمل نور العقل الذى كان موجودا قبل مجيئها ويزيده إشعاعا .

بعد عشر سنوات من التطور المعمارى الرائع ، وتطور البنية الأساسية والتخطيط العمرانى ، لم يعد بمقدور المرء أن يتعرف على جدة . فلقد أصبحت مدينة على الطراز الأمريكى . . مدينة كبرى بمقاييس برلين . . إذ يرى المرء لافتات الشوارع ، وأنواع السيارات، والإعلانات المضاءة ، ومحطات الوقود ، على نحو يوحى بمدينة كولورادو أو مينا بوليس . والغريب فى الأمر ، أن السواد الأعظم ممن يتجولون فى هذه المدينة هم من العرب والهنود والفليبينيين . ولولا ذلك ، لنسى المرء أنه فى أرض العرب القديمة ، وليس فى العالم الجديد .

قضيت الأيام المتبقية لى حتى بداية الجزء الثانى من الحج مع أصدقاء أمريكيين ومغاربة وسعوديين وألمان . وكنت أرتدى دائما الزى العربى : الجلباب المريح فى الملبس ، والجلباب المريح جدا فى النوم . ففى مثل هذا المناخ ، يكون مجرد التفكير فى إرتداء حُلَلٍ وأربطة عنق خانقة نوعا من العذاب .

وأصدقائى من غير السعوديين ، هم من العاملين الأجانب فى السعودية ، الذين يشكلون حوالى ٤٠٪ من مجموع عدد سكانها الحاليين (تصل هذه النسبة فى دُبىّ إلى ٩٠٪) ولو حدث أن أمسك الأجانب بزمام الأمور فى هذه المنطقة ، فلن يكون ذلك للمرة الأولى .

ففى العصر العباسى ، تمكن المرتزقة الأتراك من امتلاك زمام الأمور . وربما يكون هذا ما حدا بالسلطات لأن تمنع الكثير من العاملين الوافدين من اصطحاب عائلاتهم ، مع سهولة ترحيل أى منهم خارج البلاد . وربما يفسر ذلك ما يشعر به العامل الأجنبى ، حتى المسلم ، من فقدان للأمان . ولقد لمس Carten Niebutr ، عندما وصل إلى جدة فى ١٢ من نوفمبر عام ١٧٦٢ ، وجود كثير من الوثنيين الهنود فى أرض العرب ، أو بالأحرى فى اليمن ، وقال فى لهجة تذكرنا بحديث ممثلى منظمة العفو الدولية : «لا يسمح لهم باصطحاب نسائهم ، ولذلك يفضلون العودة إلى أوطانهم بعد تكوين ثروة » (٤) .

ومع ذلك ، فإن هذا أمر يسير فى بلد يقل فيه ثمن لتر البنزين عن ثمن زجاجة مياه معدنية ، وحيث المياه والكهرباء والاتصالات التليفونية الداخلية خدمات مجانية .

أوصلنى صديق بدوى فى سيارته الكاديلاك إلى المسجد لصلاة العشاء . وما إن انتهينا من الصلاة ، حتى بدأ حاج يمنى يشكو من أن زوجته هربت منه ومعها النقود وجواز سفره . وسرعان ما امتدت يد كل فرد إلى حافظة نقوده . وهكذا استفاد الزوج المخدوع بالحق الأصيل فى الإفصاح عن المشكلات الشخصية فى المسجد .

وكان لقصة التضحية - أى استعداد إبراهيم للتضحية بابنه الوحيد ، امتثالا لأمر الله ، واستعداد الابن المطيع لهذه التضحية - أثر كبير . فالامتثال التام والتوكل على الله ركن رئيس فى الإسلام ، ولذلك يبلغ الحج ذروته فى الاهتداء بهذا الحدث ، إذ يقوم كل حاج فى نهاية الحج بنحر فدية أوأضحية ، اقتداء بأن الله فدى ابن إبراهيم بكبش : ﴿وفديناه بِذِبْحٍ عظيم﴾ (الصافات : ١٠٧) . وليس من المحتم أن يقوم الحاج نفسه بذبح الأضحيَةَ . لذلك ، قمت أثناء تجوالى فى المدينة بإيداع ٢٨٠ ماركا ألمانيا بأحد البنوك ، ثمنا لخروفين حددت المستفيدين بهما ، وهم مسلمو البوسنة . وفى يوم عيد الأضحى ، سيقوم حوالى عشرة آلاف جزار ، جىء بهم من أقطار العالم الإسلامى كافة ، بذبح حوالى مليون من الأضاحى ، من بينها خروفاى .

ولقد كنت واثقا من أن لحمهما سيرسل مجمدا إلى سبليت فى الأيام التالية .

كنت فى المساء أنظر دوما إلى ألوان نافورة المياه المتغيرة عند بحيرة جدة ، والتى يبلغ ارتفاع مائها ٢٦٥ مترا . وهى من معالم جدة الحديثة .

كنت متشوقا إلى ذروة الحج . وإياك والمرض قبل يوم عرفة . والحج - كما يعلم الجميع - فرض على من استطاع إليه سبيلا : ﴿ولله على الناس حَجّ البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ (آل عمران : ٩٧) . فهو فريضة على من تسمح له حالته الصحية ، ويفيض ماله عن حاجة أهله وجيرانه . إذ لا يجوز لمسلم أن يحج إذا كان جاره فى حاجة إلى مال . وبالرغم من ذلك ، يبيع بعض الفلاحين - عندما تتقدم بهم السن - ما يمتلكونه من أرض زراعية هى عماد معيشتهم ، ليحجوا .

فالحج ليس فريضة فحسب ، بل هو حلم لكل مسلم ، والعودة منه هى مفخرته . فهو يستطيع عند العودة أن يجد منزله وقد طُلِىَ بلون أخضر . ناهيك عن أنه سيحظى بمكانة رفيعة جدا . فلا لقب دكتور ، ولا لقب الحاصل على الماجستير ، ولا لقب «سعادة» ولا حتى لقب «أستاذ» تضاهى لقب حاج الذى يُخاطَبُ به .

تحتاج رحلة الحج المكلفة ، والخطرة فى بعض الأحيان - فى عصر الطائرات - إلى ترتيبات روحية وأخرى مادية ، وبصفة خاصة بالنظر إلى أن تأشيرات الدخول للحج تخضع لنظام حصص محددة . (ونظرا لأنه من بين كل ١٠٠٠ مسلم يحصل مسلم واحد على تأشيرة حج ، فإنه يترتب على هذا النظام - وليس من قبيل الصدفة بطبيعة الحال - أنه لا يمكن توقع أن يكون هناك أكثر من ٤٠٠٠٠ حاج شيعى من إيران على أقصى تقدير) . ويجرى تجاوز نظام الحصص المشار إليه بواسطة العمال الأجانب الذين يعملون فى السعودية ، ولا يمكن تحديد عددهم بدقة . فليس هناك حائل يحول دون توجههم إلى مكة حاملين زجاجة ماء وقطعة من الورق المقوى (الكرتون) لاستخدامها بديلا للسرير ، ومن ثم فإنهم يرفعون عدد الحجاج إلى ما يزيد على المليونين .

يدعو القرآن الكريم المقبل على الحج إلى أن يراعى آداب الحج ، فعلى المحرم أن يتنزه عن مباشرة النساء ، وعن المعاصى من السباب وغيره ، وعن الجدل والمراء مع رفقته فى الحج ، وعليه أن يجتهد فى فعل الخير : ﴿ الحَجُّ أشهرٌ معلومات فمن فرض فيهن الحَجَّ فلا رَفَثَ ولا فسوق ولا جدال فى الحَج وما تفعلوا من خير يعلمْه الله وتزوَّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقونِ يا أولى الألباب ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٩٧) .

لقد قرأت وصفا تاريخيا للحج من القرن التاسع عشر . قرأت لريتشارد بيرتون Richard Burtons فى كتابه الصادر فى جزأين عام ١٨٥٣ وصفا لرحلة حج إلى المدينة ومكة . وقرأت « رحلة حج إلى مكة » لـ Von Maltzan Hanrich (١٨٦٠) ، وفى وصف رحلة السويسرى المسلم من مدينة بازل العريقة Johann Ludwig Burkler (١٨١٤) ، والذى عرف بالشيخ إبراهيم بن عبد الله بعد أن أعلن إسلامه . و درست إلى جانب ذلك إرشادات حديثة مفيدة ، مثل « دليل المرء للحج والعمرة » الصادر فى السلسلة الألمانية « السفر اليوم » .

وكان أهم شىء فيما يتعلق بالإعداد الروحى هو دراسة آيات القرآن المتفرقات عن الحج ، وبصفة خاصة فى السورتين ٢ (سورة البقرة) و٢٢ (سورة الحج) ، وكذا حفظ أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة التى تتناول الحج . وساعدنى كتاب أحمد فون دنفر - الجامع على نحو مكثف للقرآن والحديث - كثيرا فى ربط مناسك الحج ظاهريا وباطنيا ، ماديا وروحيا ، وهذا الأمر ليس بغريب على المسلمين الذين تؤلف عقيدتهم بين الروح والمادة معا ، إذ إن التوجه إلى الله فى الإسلام لا ينحصر فى الروح فقط أو الجسد فقط . فالمسلم فى صلاته ، وفى صومه ، وفى نحره للأضحية ، وفى حجه ليس

حاضرا بروحه وعقله وقلبه فقط ، وإنما بلحمه ودمه أيضا ؛ فهو إما أن يكون هو كله حاضرا وإما ألا يكون حاضرا بالمرة . وهذا ناتج عن « التوحيد » كمبدأ جامع من منظور إسلامى .

ترقبا للأيام المشهودة ، جلست فى حجرتى بالفندق فى جدة أطالع ما حملته معى من مطبوعات عن الحج ، ومن بينها بعض سطور للأخ أحمد تقول : « ألا يمكننا القول إن الإحرام يشير إلى الموت ، وإن الطواف يسلم المرء إلى الله ؟ والسعى . . . أليس السعى إرهاقا وتعبا ؟ أليست زمزم هى الحياة والكينونة ؟ ويوم عرفة . . . ألا يجعلنا نتوقع يوم القيامة ؟ والمزدلفة . . . أليست هى الظلام الذى يسبق اليوم الجديد ؟ ومنى . . . ألا تمثل الوفاء من خلال نحر الأضحية ؟ وخلع ملابس الإحرام بمنى . . . ألا يعنى حياة جديدة ؟ ورمى الجمرات . . . ألا يرمز لكفاح مدى الحياة ضد كل ماهو شر؟ولكن الله هو محور الحياة . . . » .

ينطلق صوت المؤذن عبر مكبرات الصوت مناديا إلى صلاة العصر . ويجىء دورى لأرفع أذان الإقامة فى مسجد الفندق الذى راح يمتلىء رويدا رويدا بالمصلين . ورحت أردد باللغة العربية ماردده بلال أول المؤذنين قبل ١٤١٣ سنة قمرية ، ولكن بصوت أضعف من صوته . وطلبنا من رجل من المالديف ذى بشرة داكنة جدا أن يؤمنا فى الصلاة ، فاستجاب لطلبنا على الفور .

لاحظت ، ونحن مجتمعون حول مائدة العشاء ، أنه لا يبدو على أحد منا أن لديه شهية للطعام . والسبب فى ذلك هو ترقبنا للانتقال فى الغد ، وهو ثامن أيام ذى الحجة ، من مكة إلى منى ، حيث محل إقامتنا الأساسى فى الأيام القادمة . ولم نذق ليلتها طعم النوم . وفى صباح اليوم التالى ، تجمع القسم الأعظم منا فى ملابس الإحرام ببهو الفندق من الساعة الخامسة صباحا .

توقفنا بمكة لنؤدى طواف القدوم حول الكعبة مرة أخرى . وكان الطواف هذه المرة تحت الشمس الحارقة ، مما دفع كثيرا من الحجاج إلى محاولة الاحتماء مثلى بالمظلات ، وهو ماكان ينطوى فى مثل ذلك الزحام على خطر إلحاق أذى بالآخرين . وفى ظل هذا الزحام ، كان الطائفون لا يكادون يتقدمون خطوة إلى الأمام فى فناء المسجد الفسيح . ولذلك ، توجهت إلى الطابق الأعلى حيث يزداد نصف قطر دائرة الطواف ، ولم يكن بوسعى إلا ذلك . وطواف الكعبة هنا يعنى أن يقطع المرء مسافة ٦ , ٥ كيلو مترات فى حرارة تصل إلى ٤٤ درجة مئوية . ومع ذلك ، لا تأخذ المرء شفقة بنفسه ، حيث يهون

كل شيء على الحاج . ولقد كان جارى في الطواف يحمل ابنه على كتفيه مسافة الطواف بأكملها .

النظر من هنا إلى أسفل يكاد يكون كالتنويم المغناطيسى . والمشهد شديد الجمال . فالكعبة تبدو كمركز ثابت لا يتحرك لأسطوانة تدور ببطء وفى سكون تام فى اتجاه مضاد لاتجاه عقارب الساعة . ولايتغير هذا المشهد إلا عند الصلاة ، حيث تصير الكعبة مركزا لدوائر عديدة متحدة المركز ، تتكون من مئات الآلاف من أجسام ناصعة البياض لأناس يرغبون فى ، ويبحثون عن ، ويفعلون الشىء ذاته ، رمزا لتسليم النفس إلى بارئها . ويحيط اليوم بفناء المسجد ، الذى تتوسطه الكعبة ، عدة طوابق من الرخام الأخضر اللون ، ويحيط بالكعبة سبع مآذن مقامة على الطراز الهندى ـ الإسلامى ، مثلما يحيط الإطار بالجوهرة .

كان لا بد من أن انتزع نفسى من هذا المشهد لأواصل سفرى إلى منى بالسيارة ، فى رحلة استغرقت ٤٥ دقيقة لقطع خمسة كيلو مترات . ومنى هى « نقطة الانطلاق » إلى يوم عرفة . . وما أدراك ما عرفة ؟! يقول الرسول ﷺ : الحج عرفة .

وفى التاسع من ذى الحجة ، تنقل حوالى ٥٠ ألف حافلة ، ما يزيد على المليونى حاج إلى عرفة ، عبر شوارع قليلة موازية لمنى أو لمكة ، لمسافة تتراوح بين ١٠ و ١٥ كيلو متر . وتسبب هذه الحافلات فوضى فى المرور تعانى منها هى نفسها ، وهى فوضى جديرة بأن تدون فى موسوعة الأرقام القياسية .

يحاول البعض أن يقطع المسافة إلى عرفة سيرا على الأقدام ، إلا أن هذا لا يعدُّ بديلا مناسبا ، نظرا لارتفاع درجة الحرارة بشدة منذ الساعة الثامنة صباحا . وأرى رجلا يسعى مع أبيه المسن إلى بلوغ عرفات ، وهو ينهار بسبب هبوط حاد فى الدورة الدموية .

عند وصولنا إلى مدينة الخيام المقامة حول جبل عرفات ، كان الهواء يلفح الوجوه من شدة الحرارة التى جاوزت الخمسين درجة مئوية فى الظل ، وتزيد على ٦٠ درجة مئوية فى الشمس ، وليست هناك نسمة هواء منعشة . فالشمس شديدة القسوة ، والمرء يعانى صعوبة بالغة فى التنفس . وكل حركة يترتب عليها إحساس بالتعب . وكان لا بد لى من أن ألاحظ ، أثناء انتظارى أمام الحمام ، أن الأقدام الألمانية تحترق خلال بضع دقائق فى درجات الحرارة المرتفعة على هذا النحو . ولذلك ، التجأت فى فترات اليوم

الأشد حرارة إلى خيمة صغيرة تقاسمتها مع حاج يعمل أستاذا بجامعة جورج تاون فى واشنطن. وكان الشيخ نعناع الذى من الجزائر يقيم فى الخيمة المجاورة لخيمتنا.

وكان يوما طويلا رائعا .. كان يوما للتأمل وللسلام .. يوما للصلاة، وللأحاديث القيمة.

لم أكن، منذ كنت أمارس التمارين الجيزويتية فى سنوات الصبا، قد عايشت مثل هذا التوجه الكامل إلى الله بكل هذا الصفاء الداخلى الباهر. فلا شىء يوم عرفة سوى مناجاته. وهنا يتجسد نداؤنا الدائم: لبيك اللهم لبيك .. هذا إذن هو معنى الوقوف بين يدى الله بعرفات .. ملايين من الناس يتشحون بأكفان، ويتركون فى هذا اليوم كل شىء وراء ظهورهم .. فوجودهم اليوم مكرس لله وحده .. يتوقعون موتهم .. يصلون ويتضرعون فى خشوع ويقين لم يحدثا من قبل، ولن يحدثا فى الغالب من بعد.

ففى هذا المكان، ألقى محمد ﷺ قبل وفاته بأسابيع قليلة - فى عام ٦٣٢ ميلادية - خطبة تقرأ كل عام فى ذات اليوم، وذات المكان. لقد خاطب المسلمين فى ذاك اليوم قائلا: «أوصيكم بالنساء خيرا ...» وأنهى خطبته قائلا: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا: كتابَ الله وسنتى. وإنى مسائلكم يوم القيامة فيما أنتم فاعلون». ووفقا للرواية، أجابه الحاضرون: «نشهد أنك أديت الأمانة، وبلغت الرسالة، ونصحت الأمة». وهذا نفسه هو ما أشهده اليوم مع مليونين ومائتى ألف من النساء والرجال من أنحاء العالم كافة.

ووفقا لشعائر الحج، ينتقل الحجاج بعد غروب الشمس إلى المزدلفة التى تقع على بعد ٧ كيلو مترات من عرفة. وفى أثناء ذلك، يحدث الكثير من الهرج والمرج، وبسببه فقدت أنا وأستاذى حافلتنا، ورحنا نبحث دون جدوى عن مكان شاغر فى مئات الحافلات .. وإذ بى ألمح وزير الصناعة المغربى عزمانى، الذى تربطنى به علاقة صداقة، وهو يلوح لى وسط أكثر من مليونين من البشر. ولقد قوّى ذلك من يقينى بأنه ليس هناك مصادفة حقيقية فى دنيا الله. وهكذا أصبحت، مؤقتا، عضوا غير رسمى فى بعثة الحج المغربية الرسمية. وفى بادئ الأمر، كان هناك حث على الإسراع، ولكننا جلسنا بعد ذلك نتصبب عرقا فى الحافلة لمدة ثلاث ساعات قبل أن تتحرك بسبب الزحام.

يتحرك جميع الحجاج الآن مرة أخرى فى اللحظة نفسها ، متجهين صوب هدف واحد . وتتدخل شرطة المرور ، ولكنها تزيد من فوضى المرور . . ويحاول بعض الحجاج قطع المسافة سيرا على الأقدام عبر الجبال السوداء التى تميزهم ملابسهم البيضاء عن أحجارها .

بلغنا المزدلفة حوالى الساعة الحادية عشرة مساء ، بسبب كثرة التوقف فى الطريق ، ونحن نشعر بآلام فى ركبنا . وفيها أمنا إمام من الرباط لصلاتى المغرب والعشاء جمعا على الصخور التى سنجمع منها ٤٩ حصاة ، استعدادا لرمى الجمرات فى اليوم التالى . وكنا قد وعدنا بطعام إلا أنه كان لا بد لنا من أن نتحرك قبل مجيئه . ولم آسف لذلك كثيرا ، إذ اعتدت أثناء أيام الحج أن أكتفى بقليل من لحم الدجاج ، ومن البازلاء ، وتفاحة وثمرة موز . ولقد كان شرب الماء هو الأهم . ولحسن الحظ لم نعان على الإطلاق نقصا فى مياه الشرب ، فالمسئولون السعوديون يوزعون أثناء الحج ٨٠ مليون كيس من البلاستيك يحوى كل منها لترا من مياه الشرب ، كما يقومون عند كل تقاطعات الشوارع الكبيرة بإلقاء أكياس تحتوى على عصير الفاكهة إلى هذا الحشد الكبير من الحجاج . ولذلك ، لم أشعر بحاجة إلى مئونتى من الكوكاكولا .

وصلت حافلتنا فى الساعة الثانية صباحا إلى منى ، قريبا من موضع رمى الجمرات . . ذلك الرمى الذى يرمز لرفض الإنسان القاطع للشر بداخله هو نفسه ، وفى العالم أيضا . واقتربت من العمود ، حتى أضمن إصابته باستخدام إصبعين فقط ، مع احتفاظى بمسافة تحمينى من التعرض لوابل من حصى الحجاج من الخلف . إنه موقف صعب حقا ، لأن بعضا من البسطاء ينتابهم شعور بأن فى مقدورهم أن ينالوا من إبليس لمرة واحدة فى حياتهم ، فيرموا رمزه بأحجار كبيرة وبأحذية ومظلات .

تجمع حول حافلتنا مجموعة من الصبية يحملون - كما توقعت من قبل - مقصات لكى يقصوا لكل منا خصلة من الشعر فى مقابل ثلاثة ريالات ، ما لم نكن نرغب فى حلق الرأس تماما . ومع أنه كان مسموحا لنا أن نخلع ملابس الإحرام ، فقد هرعنا إلى مكة قبل الشروق . ولم نكن بحاجة إلى إقناع سائق الحافلة ، الذى أمضى الليل ساهرا ، بأن يحملنا إلى مكة ، إذ كان هو نفسه يرتدى ملابس الإحرام . وبعد وصولنا إلى مكة ، طفنا للمرة الثالثة حول الكعبة طواف الإفاضة . وكان الزحام فى هذه المرة أشد من ذى قبل ، إذ كان عدد الطائفين فيها لا يقل عن مائتى ألف حاج . ولذا استغرق منى الطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة ساعتين حافلتين بالإرهاق .

الساعة الآن هى الرابعة والنصف صباحا . ولقد حان الآن موعد صلاة فجر يوم عيد الأضحى ، عاشر أيام ذى الحجة ، بالحرم المكى . وسوف أؤديها ، بآخر ما تبقى لى من قواى ، مع ٨٠٠ ألف مؤمن . وبالنظر إلى فخامة الصوت وكمال القراءة ، يعدّ مؤذنو الحرم المكى وأئمته صفوة الصفوة. فأذانهم نداء فنى رائع . . وقراءتهم للقرآن مناجاة مسموعة . ومن حسن الحظ ، أن يسمح الحنابلة السعوديون بهذا البعد الجمالى للصلاة ، على عكس ما يفعله المالكيون فى شمال إفريقيا . فهذا الجمال ينقل حاجا ساهرا مرهقا مثلى إلى عالم خال من التعب .

أخيرا ، عدنا بعد الساعة السادسة صباحا إلى بيت ضيافتنا فى منى ، بعد أن قضينا ٢٦ ساعة على أقدامنا متأثرين عاطفيا وبدنيا . وتعانقنا أنا ورفاقى فى الحج مرددين : حجا مبرورا ، وحجا مقبولا إن شاء الله . وهنأنى الشيخ نعناع فى سعادة بوضعى الجديد . وعدت إلى غرفتى حيث خلعت أخيرا ملابس الإحرام - لهذه المرة - واستلقيت فى سريرى ملتهب العروق . وحمدت الله أن منحنى القدرة على أداء فريضة الحج ، داعيا أن يتقبلها منى . ثم رحت فى نوم عميق ، لم يزعجنى فيه ضجيج صوت جهاز التكييف المرتفع .

بينما كان المنهكون أمثالى يحاولون استعادة قواهم فى يوم عيد الأضحى ، كان حجاج آخرون - ممن يتمتعون بقدرة أكبر على الاحتمال - ينحرون الأضحية أينما شاءوا . للحاج أن يأكل جزءا صغيرا من لحم الأضحية . أما القسم الأكبر منها ، فيوزعه على المحتاجين من الحجاج . ويعلق الهيكل العظمى فى الشمس إلى أن يجف ، ويتم ذلك أحيانا خارج عربات خشبية . وللمرء أن يتخيل الرائحة . . لا ، لا يمكن ذلك إلا لمن خبرها فعلا .

طرقت - أكثر من مرة - باب غرفة جارى القادم من واشنطن لكى أطمئن عليه ، لعلمى أنه كلف نفسه ما لا طاقة له به . ولقد طلب منى بالفعل أن أقوم عنه بما تبقى من رمى الجمرات . وهو أمر مسموح به بالنسبة لفريضة الحج بأكملها ، إذ يجوز أن تؤدى بالإنابة إذا كان الإنسان غير قادر على أدائها بنفسه .

كنت مدعوّاً فى ثانى أيام عيد الأضحى - ضمن ١٥٠ حاجا من أنحاء العالم كافة ، من بينهم سلطان بروناى ، وأحد أبناء الرئيس الإيرانى رافسنجانى - إلى قصر الملك فهد ابن عبد العزيز بمنى . وكان العاهل السعودى قد وجه فى ذاك العام دعوة للحج ، وليس للغداء فقط ، إلى ١٣٠٠ مسلم من الاتحاد السوفيتى السابق . وجاء مجلسى بين

الكاتب المصرى أنيس منصور، والقاضى الأعلى فى باكستان محمد حفظ الله ، الذى أخبرنى أنه لم يصادق على الإطلاق على حكم بقطع يد سارق . ولما كان الملوك يحبون كثيرا أن ينتظرهم الناس ، فقد أتيح لنا وقت طويل للحديث ، مرارا وتكرارا، عن الإسلام ، تأكيدا على أن الحج تجمع هائل للمسلمين كافة .

يتولى حراسة الملك فهد ثلاثة حراس شخصيين ، شديدى الوجوم، يرتدون الملابس الوطنية . وأغلب الظن أنهم عملوا من قبل فى حراسة أبيه الملك الأسطورى عبد العزيز آل سعود (توفى عام ١٩٥٣). ولكنهم مسلحون اليوم، لا بخناجر ومسدسات فحسب ، وإنما بمدافع آلية أيضا .

ظهر جليا أثناء حديثى مع الملك أنه يعرف الكثير عنى . وكانت دعوته لى قد فسرت على أنها رد على حملة التحريض ضدى فى ألمانيا .

طبقا لآداب الطعام العربية ، تقدم الأطعمة كلها فى وقت واحد ، بحيث تكون فى متناول الجميع ، حتى لتكاد المناضد أن تتقوس . ومن هذه الآداب أن يأكل المرء بسرعة، ويتحدث قليلا ،وينصرف إذا ما شبع، ويبقى الملك إلى أن ينصرف الجميع .

فى مساء اليوم نفسه ، حاولنا أنا والوزير عزمانى اختراق الشوارع التى تفوح منها رائحة كريهة ، والمكتظة بالناس ، بهدف الوصول إلى حيث الجمرات لرميها للمرة الثانية ، مستعينين بالشرطة . كنا نضع مناديل معطرة على الأنف والفم. فمخلفات الحجاج الذين يفترشون أسفلت الشوارع ، ومحركات السيارات الدائرة باستمرار لتشغيل أجهزة تكييفها ، تجعل الطريق محل انتقاد شديد من حماة البيئة .

وهؤلاء الحجاج الذين يفترشون الأسفلت هم من الحجاج الأجانب ، الذين يحجون بدون مطوف ، وهم يمارسون وجودا غير قانونى ، ولكنه وجود حقيقى جدا . ولقد وضعت امرأة فى هذا اليوم طفلتها على ما تفترشه من ورق .

فى اليوم الثالث (١٣ يونيو) ، وهو آخر أيام عيد الأضحى ، توجهت بمفردى بعد صلاة الفجر مباشرة لرمى الجمرات لى ولزميلى . وكان الحجاج قد بدءوا ينهضون من فراشهم الذى يفترشونه فى الشارع . وكان هؤلاء يستخدمون مخزونهم القليل من الماء للوضوء فى المقام الأول (انظر فصل : « خمس مرات كما أمرنا ») . وكان بعض الباعة الجائلين يبدءون عملهم أيضا . ومزج الحج بالتجارة أمر مسموح به دائما . فبعض الحجاج يمولون رحلة عودتهم إلى أوطانهم من حصيلة ما باعوه من منتجاتهم الوطنية ،

من حلى من العاج وفضيات وأقمشة . ويمر بى أحد الحجاج الأتراك ، ويسألنى باقتضاب : أين الشيطان؟ وكأنه ينبغى على الجميع أن يعلم أين هو ، بل وأن يتحدث التركية أيضا ! ولقد أرشدته فى أدب شديد ، وباللغة التركية ، إلى العامود الثالث (الجمرة الثالثة) التى سنرميها اليوم . ولم يكن باستطاعتى قبل اليوم أن أحدد مكان الشيطان بهذه الدقة!

فى اليوم التالى ، وفى طريق عودتنا من منى إلى جدة ، طفنا فى مكة طواف الوداع حول الكعبة . وكان المسجد قد امتلأ حتى آخره ، إذ كنا قد وصلنا إليه وقت صلاة العصر . وفى هذه المرة ، طفت حول الكعبة فوق السطح على الرغم من عدم قدرة القدمين على احتمال سخونة السطح الملتهبة إلا لثوان معدودات . ولقد خلْتُ نفسى مثل دب يحاولون تعليمه الرقص على سطح من صفيح ساخن . ومع ذلك ، جلست فيما بعد لفترة طويلة فى الشرفة للتملى من صورة هذا المسجد ذى الجمال المبهر لحفظها فى الذاكرة!

لاحظت يوم ١٦ من يونيو وأنا أسلم جواز سفر الحج ، استعدادا للعودة بالطائرة إلى الدار البيضاء ، أن المسئولين يبدون سعداء كلما غادر حاج البلد راضيا . ولقد اتجهت الطائرة الجامبو مباشرة ، وفى خط مستقيم ، إلى تونس . وبذلك ظل اتجاه القبلة ثابتا طوال رحلة الطائرة ، مما مكن المضيفين من أداء الصلاة فى ممرها . ولقد وقع اختيارى على عدد مجلة « تايم » الصادر فى ١٥ من يونيو لكى أقرأه أثناء رحلة الطائرة . وكان يحتل غلاف هذا العدد صورة لأحد المساجد ، بينما عنوانه الرئيس هو : «إسلام . . هل يجب أن يخاف العالم ؟» .

الفصل الثاني

دروب فلسفية إلى الإسلام

لم يدر بخلدى على الإطلاق ، وأنا أتوجه إلى وزارة الخارجية على جبل فينوس فى بون يوم ٨ / ٩ / ١٩٨٠ ، أننى سأسافر إلى مكة بعد سنتين لأداء فريضة الحج . فلقد بدأ ما حدث بعد ذلك ، من تحول فى حياتى يتكشف لى ، عندما أمعنت التفكير فى محاضرة شائقة ألقاها زميلى المسلم محمد أحمد هوبوم ، وفى حديثى مع محمد أحمد رسول المدير المصري ـ الألمانى لدار نشر « المكتبة الإسلامية » بكولون ، وأنا أعرض عليه مخطوطا من اثنتى عشرة صفحة ، جمعتها لولدى على مر السنين ، كى أحدد له بشكل جازم ما أراه فلسفيا حقا . فلقد أذهلنى رد فعل رسول ، وهو يقول لى : إن كنت مقتنعا بمااستخلصته ، فأنت مسلم !! ولم يكن بوسعى آنذاك أن أدرك هذا . ومع ذلك ، فقد أقنعنى برغبته فى نشر هذا النص ، عن طريق دار نشره ، تحت عنوان « درب فلسفى إلى الإسلام »(٥) .

لم يمر سوى أيام معدودات قبل أن أشهر إسلامى بنطق الشهادتين يوم٢٥ /٩ /١٩٨٠ وليس من الأمور الهينة أن يقدم المرء كشف حساب وتقييما لتطوره الفكرى . لقد كتب هيرمان هسه فى إحدى رواياته القصيرة « نوفاله » < Klein und Wagner > عام ١٩١٩ : «التحدث هو أضمن السبل لإساءة فهم كل شيء وجعله ضحلا ومجدبا» . وكتب أيضا فى روايته « لعبة الكرات البللورية » محذرا من صياغة معنى داخلى فى كلمات ، إذ يقول على لسان قائد الأوركسترا : « أظهر المهابة للمعنى ، ولكن لا تظنه قابلا للتعلم » . (٦) لقد فشل عظماء كثيرون فى هذه المحاولة .

فعمر القوي ، ثانى الخلفاء ، كان يضطهد المسلمين إلى أن اعتنق الإسلام ، ولا يمكن حقا فهم كيفية اقتناعه بالإسلام على نحو مفاجىء بعد أن قرأ سورة طه إثر مشاجرة مع أخته(٧) .

ويقول الصوفى العظيم أبو حامد الغزالى (القرنين الحادى عشر والثانى عشر)م فى اعترافاته : « إن العقيدة لم تتغلغل فى نفسه من خلال دليل واحد واضح بعينه ، وإنما من

خلال عدد لا يحصى من أسباب الإيمان ، وخبرات ومواقف مصاحبة يمكن تحديد تفصيلاتها » . ويقول أخيرا : إن عودته إلى الإسلام كانت بفعل «نور ألقاه الله فى صدره»(٨) .

وفى كتابه الرائع « الطريق إلى مكة » ، يعرض محمد أسد لأمر هدايته إلى الإسلام فى سطور قليلة لا تكاد تقنع بعض القراء المتشككين ، بينما يشير فى موضع آخر من كتابه إلى أنه تشرب الإسلام ارتشاحا(٩) .

ويكاد هذا الأمر يشبه أمر اهتداء كريستيان (عبد الهادى) هوفمان إلى الإسلام ، إذ يصفه بما لو كانت « ضربة من السماء » قد أصابته(١٠).

أما أنا ، فكنت لسنوات ، بل لعقود ، منجذبا إلى الإسلام كالمغناطيس ، لأننى ألفت أفكاره ، كما لو كنت قد عايشته من قبل .

لقد وجهنى على هذا الدرب ثلاثة أحداث أساسية ، ذات طبيعة إنسانية ، وجمالية فنية ، وفلسفية . ويرتبط أول هذه الأحداث ارتباطا عجيبا بالجزائر .

ففى عام ١٩٦٠ ، أمضيت شهرين فى Chateau Neuf sur Loire لأتمكن من إجادة اللغة الفرنسية ، استعدادا لامتحانات القبول بوزارة الخارجية . وهناك ، كنت أقرأ يوميا تقارير الصحافة الفرنسية عن حرب الجزائر .

وفى اختبار القبول بوزارة الخارجية ، كان على كل متقدم أن يلقى محاضرة لمدة لا تتجاوز خمس دقائق فى موضوع يحدد عشوائيا ، ويكلف به قبلها بعشر دقائق . ولكم كانت دهشتى عندما تبين لى أن موضوع محاضرتى هو « المسألة الجزائرية » . وكان مصدر دهشتى هو مدى علمى بهذا الموضوع ، وليس جهلى به . وبعد شهور قليلة من الاختبار ، وقبل أن أتوجه إلى جنيف بوقت قصير ، أخبرنى رئيس التدريب ، عندما التقينا مصادفة أثناء تناولنا للطعام ، أن وجهتى قد تغيرت إلى الجزائر .

فى أثناء عملى بالجزائر فى عام ٦١ / ١٩٦٢ ، عايشت فترة من حرب استمرت ثمانى سنوات بين قوات الاحتلال الفرنسى وجبهة التحرير الوطنى الجزائرية ، وانضم إليهما أثناء فترة وجودى هناك طرف ثالث هو « منظمة الجيش السرى » ، وهى منظمة إرهابية فرنسية ، تضم مستوطنين وجنودا متمردين . ولم يكن يوم يمر دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى فى شوارع الجزائر . وغالبا ما كانوا يقتلون رميا بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة . ولم يكن لذلك من سبب ، إلا كونهم عربا ، أو لأنهم مع استقلال الجزائر

وكنت عند سماعى صوت سلاح آلى ، أتصل تليفونيا بزوجتى الأمريكية لتسرع إلى شراء ما نحتاج إليه ، لأن الهجوم التالى فى المنطقة نفسها لا يتوقع حدوثه قبل عشرين دقيقة .

وكانت أنبل مهامى هى إعادة أفراد الفرقة الأجنبية من الألمان الفارين إلى الوطن بمعاونة من السلطات الفرنسية . وكان عدد هؤلاء الرومانسيين المساكين غير قليل ، منذ فر قائد قوات المظلات فى العام السابق . وكم كان الموت يجذبهم ! وكانت منظمة الجيش السرى قد جندت عددا منهم ضمن قوات خاصة (كوماندوز) . ومن ثم وجدوا أنفسهم بين نارين . كما كانت فرص نجاتهم من الموت ضئيلة جدًا . وكنت ، بصفتى ممثلا للقنصلية العامة الألمانية ، أضع الزهور على قبور الكثير منهم .

كنت ، وأنا أبحث عن ألمان بين الجرحى فى المستشفيات ، أحمل سلاحى معدا للاستخدام . وكنت أدقق النظر فى وجه من يقابلنى ، بل وفى يديه . وعندما كانت القامات تتقابل ، كان كل شخص يبتعد عن الآخر عائدا إلى الخلف ، طلبا للأمان . وفى بعض الأحيان ، كانت زوجتى المذعورة تصر على حماية ظهرى ، فكانت تسير خلفى على مسافة عدة خطوات حاملة فى كُمّ ثوبها سكينا حادا .

وما يزال بعض ذكريات تلك الأيام يثير كآبة فى نفسى حتى الآن . فعندما كنت فى طريقى إلى مقر إذاعة فرنسا ٥ ، حيث كان من المقرر أن ألقى ، تنفيذا لتكليف من القنصل العام ، محاضرة عن «وضع الرقص المسرحى» فى ألمانيا ، تعطلت مضخة البنزين فى سيارتى الفولكس واجن من طراز « الخنفسة » فى شارع إيزلى الضيق ، كثير المنحنيات . وسرعان ما اصطفت السيارات خلف سيارتى ، مطلقة أصوات النفير . وفى تلك الأثناء ، كان أمامى رجل يعبر الشارع ، وأطلق عليه شخص الرصاص من الرصيف المقابل ، فسقط جريحا أمام رفرف سيارتى الأيسر . وإذا بالمهاجم يشير لى بسلاحه آمرا أن أواصل سيرى ، كى أخلى ساحة إطلاق الرصاص . ولم أكن أرغب فى ذلك ، بل ولم أكن أستطيعه أيضا . وأخيرا ، تقدم الشخص الذى يحمل السلاح من الرجل المصاب ، وأطلق عليه رصاصة أخرى أردته قتيلا ، ثم اختفى فى زحام البشر فى تؤدة وعلى مهل !

ولقد استأت كثيرا أيضا ، عندما رأيت مضطرا أعضاء منظمة الجيش السرى ، وهم يشعلون النار فى سيارات شحنوها سلفا ببراميل من الوقود ، ويدفعونها من فوق منحدر إلى حى يسكنه العرب . ولا بد للمرء من أن يتوقع أن يكون على قائمة القتلى ، إذا ما أصبح شاهدا غير مرغوب فيه . وكان حلاقى في البيار يدرك ذلك جيدا ، فحين هاجمت قوات «منظمة الجيش السرى » مكتب التلغراف المقابل لمحله فى شارع جالينى ، أدار مقعده

حتى لا يكون شاهدا على ما يجرى . ولم يكن تصرفه أقل غرابة من تصرف أحد أفراد الشرطة الذى عرض علىّ فى مايو عام ١٩٦٢ أن يحرس سيارتى ، بينما كانت النيران مشتعلة خلف ظهره فى مكتبة البيار .

عندما توصل الرئيس ديجول ، فى إيفيان فى مارس عام ١٩٦٢ ، إلى اتفاق مع الحكومة المؤقتة لجبهة التحرير الوطنى الجزائرى على وقف إطلاق النار فى يوليو التالى [١١] ، صعدت منظمة الجيش السرى من أعمالها الإرهابية ، بهدف استفزاز الجزائريين لخرق الاتفاق . فبدأ أفرادها فى تصفية النشء الأكاديمى الجزائرى ، وراحوا يقتلون ، رميا بالرصاص ، النساء اللائى يرتدين الحجاب . وقبل تحقيق الاستقلال بأيام قلائل ، أطلقوا الرصاص على آخر بائع جزائرى جائل فى البيار ، فأردوه قتيلا أمام مكتبى مباشرة . وكان هذا البائع قد عاش ينادى على أسماكه منذ عقود طويلة ، دون أن يلحق أذى بأى إنسان كائنا من كان . وفى الشارع الذى كنت أقطنه ، كان جيرانى من الفرنسيين يلقون من النوافذ على المتصرين بكل ما لا يبخلون به . وكانت الثلاجات التى يلقون بها تسقط على أكوام من القمامة التى لم تُزَل منذ أسابيع ، وهو ما كان من حسن حظ الفئران .

شكلت هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لى عن قرب بالإسلام المعيش . ولقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم ، والتزامهم الشديد فى رمضان ، ويقينهم بأنهم سينتصرون ، وسلوكهم الإنسانى ، وسط ما يعانون من آلام . وكنت أدرك أن لدينهم دورا فى كل هذا . ولقد أدركت إنسانيتهم فى أصدق صورها ، حينما تعرضت زوجتى للإجهاض تحت تأثير « الأحداث » الجارية آنذاك .

فلقد بدأت تنزف عند منتصف الليل . ولم يكن باستطاعة سيارة الإسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحا ، بسبب فرض حظر التجول ، وبسبب شعار « القتل دون سابق إنذار » المرفوع آنذاك . وحينما حانت الساعة السادسة ، أدركت ، وأنا أطل من نافذة مسكنى فى الطابق الرابع ، أن سيارة الإسعاف لا تستطيع العثور علينا ، لأن منظمة الجيش السرى كانت قد غيرت فى تلك الليلة أسماء كل شوارع الحى الذى أقطنه ، بحيث أصبحت كلها تحمل أسماء مثل شارع « سالان » ، وشارع « يهود » ، وشارع « منظمة الجيش السرى » .

بعد تأخير طال كثيرا ، كنا فى طريقنا متجهين إلى عيادة الدكتور شمعون (قبل أن تنسفها منظمة الجيش السرى بوقت قصير) ، حيث صادفنا حاجزا أقامته الجمعية الجمهورية للأمن . وعلى الرغم من صفير البوق الذى كان السائق يطلقه ، فإنه لم يكن

باستطاعته أن يشق طريقه إلا ببطء شديد . وكانت زوجتي تعتقد ، في تلك الأثناء ، أنها ستفقد وعيها . ولذلك ، وتحسبا للطوارىء ، راحت تخبرني أن فصيلة دمها هي (O) ذات (RH) سالب . وكان السائق الجزائري يسمع حديثها ، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذي هو من نفس فصيلة دمها . ها هو ذا العربي المسلم يتبرع بدمه ، في أتون الحرب، لينقذ أجنبية على غير دينه .

لكي أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الأصليون المثيرون للدهشة ، بدأت أقرأ « كتابهم » . . القرآن في ترجمته الفرنسية لـ Pesle/ Tidjani . ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين ، حتى الآن . وحتى تلك اللحظة ، لم أكن قد تعرفت على القرآن إلا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن في متراب جنوبي الجزائر ، حيث يحفظه أطفال البربر ، ويتلونه في لغة غريبة عنهم ، وهو ما دهشت له كثيرا . وفيما بعد أدركت أن حفظ وتلاوة القرآن ، باعتباره رسالة الله المباشرة ، فرض تحت الظروف كافة .

ولقد أزعجني رد الفعل الغاضب من جانب أحد الجزائريين ، عندما حدثته في بار فندق ترانس ميدترانيان في غارديا ، عن قراءتي للقرآن ، إذ استنكر في صراحة لا ينقصها الوضوح وجود ترجمات له . واعتبر محاولة ترجمة كلام الله إلى لغة أخرى بمثابة تجديف . ولم أستغرق وقتا طويلا قبل أن أستوعب رد فعله . فاللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه . فالمفردات التي تشير إلى مستقبل مؤكد يمكن أن تدل على أمر حدث في الماضي أيضا . ناهيك عن أن اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربي أن يفهمه تلميحا . وبغض النظر عن ذلك ، فهناك المشكلة المعتادة التي تكمن في أن الكلمات التي تعبر عن ذات المعنى في لغتين لا تتطابق فيما يختص بتداعي الخواطر إلا نادرا . ومن ثم ، فإن كل ترجمة للقرآن إن هي إلا تفسير يفقر المعنى ويجرده من مضمونه . وهكذا كان الرجل في البار على حق .

لم تشأ هذه الجزائر ، التي أدين لها بالكثير، أن تتركني لحالي ، وإنما تبعتني كالقدر. فعندما أصبحت سويسرا ترعى مصالحنا في الجزائر، في عام ١٩٦٦ ، كان علي أن أعمل من السفارة الألمانية في برن على استمرار الاتصال مع من تبقى من بعثتنا الدبلوماسية في الجزائر، من خلال القسم السياسي في السفارة السويسرية . وكان البريد المرسل من بون إلى الجزائر، يمر من خلالي أسبوعيا . وبعد ٢٥ عاما من عملي بالجزائر لأول مرة ، عدت إليها سفيرا في عام ١٩٨٧ . ومنذ اعتمدت سفيرا في المغرب، المجاور للجزائر ، في عام ١٩٩٠ ، يندر أن

تفارق مخيلتى صورة الجزائر التى ماتزال تعانى آلاما مأساوية . فهل يمكن أن يكون ذلك كله محض مصادفة؟!

* * *

هدانى إلى الإسلام أيضا ، تجربة مهمة ، ذات طبيعة جمالية متصلة بالفن الإسلامى . ولهذه التجربة ، قصة تتلخص فى أننى « مولع بالجمال» . وكنت منذ صباى معجبا بالجانب الشكلى للجمال ، وأرغب الغوص فى أعماقه حتى عندما كانت حماتى الأمريكية تقول - استنادا إلى المنهج البيوريتانى - إن الجمال مجرد أمر سطحى ، وإنه ليس إلا خداعا على السطح .

عندما تلقيت فى عام ١٩٥١ الدفعة الأولى من منحة التفوق ، التى تمنحها وزارة الثقافة فى بافاريا « للموهوبين جدا» ، دفعتها بأكملها ثمنا لشراء نسخة مطبوعة على قطعة من الجوت من لوحة بول جوجان : « الفتاة وثمار المانجو» . وبما أننى لم أكن ممن يقطنون حى Maximilianeum ، الواقع على اليمين من نهر إيزار، Isar وإنما كنت أقيم فى المستوطنات السكنية للثوريين الديمقراطيين ، عند ميدان ماسمان ، حيث يتقاسم العمال والطلبة غرفها ، فقد نقلت لوحة جوجان التى اشتريتها إلى مسكنى هناك ، ورحت أحللها . ولم ألبث أن اقتنعت بأن الفن الساكن (غير المتحرك) ــ الرسم ، والنحت ، والعمارة ، والخط ، والأعمال الفنية الصغيرة - مدين بالفضل فى تأثيره الجمالى للحركة المجمدة ؛ ومن ثم ، فإنه مشتق من الرقص . ولذلك ، يزداد إحساسنا بجمال الفن التشكيلى كلما ازادت قدرته على الإيحاء بالحركة .

وهذا هو ما يفسر انبهارى الشديد بالرقص الذى دفعنى إلى مشاهدة عروض الباليه كافة فى مسرح بريتزرجنتسن فى ميونيخ . ومنذ ذلك الحين ، ازداد اهتمامى بالرقص ، واتسع ليشمل كل ما يتصل به . وكنت أقضى كل ساعة فراغ بين مواعيد المحكمة فى صالات عروض الباليه ، بالقرب من قصر العدل . وحصلت على تمارين للباليه ، لكى أتعلم - ولو على نحو متخلف - رقص الباليه الكلاسيكى ، حتى أعرف ماهية ما أكتب عنه . ويعتمد هذا الفن اللطيف ، فى نهاية الأمر ، على جهد بدنى خارق . وهكذا تعلمت أن أميز ، على سبيل المثال ، بين الحركات المختلفة وأساليب أدائها[١٢] .

كان أكثر ما يروق لى هو مدرسة لونا فون زاخنوفسكى الروسية ، التى تعيش فى المنفى . ولقد تربى فى هذه المدرسه تلميذات نجيبات مثل أنجيلا آلبريشت . ومنها تكونت فى

منتصف الخمسينيات فرقة « باليه زاخنوفسكى » ، التى قدمنا بواسطتها عروضا راقية فى ميونخ وفى مدن أخرى فى بافاريا . وكنت مسئولا فى هذه الفرقة عن التعاقدات ، والدعاية والإضاءة، ووحدة الماكياج . وفى عام ١٩٥٥ ، أسست فى ميونخ بالاشتراك، مع كارل فيكتور بريتتس تسوفيد ، جماعة أصدقاء الباليه ، وتوليت معه باب نقد الرقص فى صحيفة ميونخ المسائية .

كانت المراحل التالية فى حياتى هى بإيجاز : العمل فيما بين عامى ١٩٥٤ ، ١٩٨٠ ناقدا متخصصا للباليه فى صحف فى ألمانيا وبريطانيا وأمريكا ، والعمل محاضرا لمادتى تاريخ وعلم جمال الباليه بمعهد كولونيا للباليه فيما بين عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٣ . وتقدمت بمذكرات إلى مؤتمر وزير الثقافة حول تأسيس باليه قومى ألمانى .

لم يكن بعض معارفى يعلم أن القانون والدبلوماسية هما مهنتى الأساسية ، وليس الباليه . وكان الكتاب الأثير حقا عندى ، هو كتاب جيلبرت وكونز عن تاريخ علم الجمال كعلم فلسفى[١٣] . وكعاشق للباليه ، ذلك الفن المجرد الذى يجسد الموسيقى ، كنت فى الواقع أبحث عن الأسباب التى ترغمنا على الإحساس بجمال أشياء أو حركات بعينها[١٤] ولهذا السبب ، كنت أقبع لأسابيع طويلة فى إحدى الغابات البفارية باحثا فى أسس علم جمال الحركة . وهناك تبين لى أننا كبشر لا نملك إلا أن نحس جمال الجسد البشرى الصحيح وما يتطابق مع مقاييسه . وهو ما ينطبق أيضا علينا كمحللين بصريين لما تفرزه الطبيعة من صور وأنواع . يضاف إلى ذلك أننا نقرأ الصور فى ذات الاتجاه الذى نكتب فيه . وتبين لى أخيرا أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوى عليه من مخاطر. وتبين لى آخرا أننا نُعْجَبُ بحركات الطرد المركزى ، لأننا نستطيع أن نتخيلها ممتدة فى ما لا نهاية[١٥] .

عبر هذا الطريق ، صار الفن الإسلامى بالنسبة لى تجربة مهمة ذات قيمة عالية ومثيرة . ألا يماثل فى سكونه تماما ما أسعدنى فى حركات الباليه . . . التجريدية : القدرة الإنسانية ، والحركة الداخلية ، والامتداد فيما لا نهاية ، وذلك كله فى إطار من الروحانية التى يتسم بها الإسلام ؟!

ألهمتنى أعمال معمارية ، مثل الحمراء فى غرناطة والمسجد الكبير فى قرطبة ، اليقين بأنها إفراز حضارة راقية رفيعة . واستوعبت جيدا ما كتبه راينر ماريا ريلكا بعد زيارته لكاتدرائية قرطبة ، إذ كتب : « . . . تملكنى منذ زيارة قرطبة عداء وحشى للمسيحية . إننى أقرأ القرآن وهو يتجسد لى صوتا يستوعبنى بقوة طاغية ، وأندفع بداخله كما تندفع الريح فى الأرغن »[١٦] .

صار الفن الإسلامى لى وطنا جماليا ، مثلما كان الباليه الكلاسيكى من قبل . وأصبحت أرى الأعمال الفنية للعصور: الإغريقى والرومانى والقوطى، ولعصر النهضة والروكوكو مثيرة، وعريقة ، وأصيلة ، بل وعبقرية ، ولكنها لا تنفذ إلى داخلى ، ولا تحرك عواطفى ولا مشاعرى .

إننى أدرك قوة جاذبية فن هذا الدين الآن أفضل من ذى قبل حيث إننى محاط فى المنزل الآن بفن تجريدى ، ومن ثم بفن إسلامى فقط . وأدركها أيضا عندما يستمر تاريخ الفن الغربى عاجزا عن مجرد تعريف الفن الإسلامى . ويبدو أن سره يكمن فى حضور الإسلام فى حميمية شديدة فى كل مظاهر هذا الفن ،كما فى الخط ، والأرابيسك ، ونقوش السجاد ، وعمارة المساجد والمنازل والمدن . إننى أفكر كثيرا فى أسرار إضاءة المساجد وفى بنائها الديمقراطى ، وفى بناء القصور الإسلامية ، الذى يوحى بحركة متجهة إلى الداخل ، بحدائقها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة وينابيعها ومجاريها المائية ، وفى الهيكل الاجتماعى ـ الوظيفى المبهر للمدن الإسلامية القديمة (المدينة) الذى يهتم بالمعيشة المتجاورة تماما كما يهتم بإبراز موقع السوق وبالمواءمة أو التكيف لدرجات الحرارة وللرياح ، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل فى منطقة السوق ومنطقة السكن .

إن من يعرف واحدا من هذه الأسواق ــ وليكن فى دمشق ، أو إسطنبول ، أو القاهرة ، أو تونس ، أو فاس ـ يعرف الجميع . فهى جميعا ، كبرت أم صغرت ، منظمات إسلامية من ذات الطراز الوظيفى . فما أكثر ما تجولت فى سوق مدينة سالى المؤاخية للرباط لكى أستعيد حيويتى . إنه ذروة مجتمعية حيوية يجد فيها كل إنسان مكانا له، شيخا كان أم شابا، صحيحا كان أم معاقا، فقيرا أم غنيا، أبيض أم أسود. ولا يوجد به عجلة، ولا أزمة ضيق وقت، ولا مبالغة فى تقييم الذات، ولا خمور، ولا وسائل نقل ثقيل، ولا سياج، ولا ابتزاز، وحيث الجميع سواسية ،وكل عملية شراء ترتبط بـ «دردشة»، وحيث تغلق الحوانيت أبوابها وقت الصلاة .

كان ما أحسست منذ البداية أنه إسلامى وباعث على السعادة هو فى واقع الأمر التأثير الناضج للتناغم الإسلامى، وللإحساس بالحياة والمكان الإسلاميين على العقل والروح. وهذا ما أحسست به فى متحف جولبينكيان الإسلامى فى لشبونة، مثلما أحسست به فى المسجد الأموى بدمشق، وفى مسجد ابن طولون بالقاهرة، وفى مسجد القيروان القديم أو المسجد السليمى فى درنه .

* * *

قبل أن يقودنى الدرب الفلسفى إلى الإسلام ، الذى قادنى بدوره إلى تجربة أساسية ثالثة فى حياتى ، كنت قد حصلت ، وأنا بعد فى سن المراهقة فى مدينة أشفنبرج ، على قسط وافر من التعليم الجيزويتى ، من خلال عضويتى لجمعية Congregatio Mariana ، وهى المقابل لحركة « ألمانيا الجديدة » المتمركزة فى الشمال .

ويعود ارتباطنا ، بل تعلقنا الرومانسى ، بهذه المنطقة إلى فترة حكم النازى ، وذلك لأن الجستابو لم يتمكن من الكشف عنها عندما كانت تقاوم هذا الحكم سرًّا . ولم يكن حتى أبى المشتت الفكر يعلم بعضويتى لهذه المنظمة . وكنا نجتمع أسبوعيا مع أحد القساوسة الجيزويت فى إحدى المقابر، فى ظل إجراءات أمنية مشددة . فكان كل فرد منا لا يعرف سوى أفراد مجموعته فحسب . ولكننا تمكنا بمرور الوقت من استقطاب أفضل عناصر تلاميذ المدارس الثانوية . وقطعنا بذلك الطريق على منظمة « شبيبة هتلر » ، أى أننا منعنا هذه العناصر الجيدة من أن تنضم إلى منظمات الشباب التابعة للحكم النازى . ولقد أدهشنا أن عدد أفراد المنظمة بلغ عندانتهاء الحرب ٨٠ فردا .

بعد أن انقضت الحرب ، عدنا إلى الاستمتاع بحياة وأساليب منظمات الشباب التى كانت سائدة فى عشرينيات هذا القرن .

ونظرا لما سبق ذكره ، فقد كنت على دراية تامة بالديانة الكاثوليكية ، وبأدق شئونها من الداخل . ولكننى فى الوقت ذاته ، كنت قد بدأت أضع هذه الديانة محل تساؤلات وشكوك .

كنت أنا و Carl Jacob Burckherdt نتساءل دوما عما إذا كان من الصواب أن يكون عالم اللاهوت ودارس الأديان مسيحيى الديانة [١٧] .

وبالرغم من إعجابى بفلسفة Ludwig Wittgenstein ، فإنى كنت على يقين تام من عدم وجود دليل ينفى وجود الله . وكنت شديد التمسك بالرأى القائل بأن عدم وجود الله غير مؤكد بشكل قاطع ، وأن الاعتقاد بوجود الله أو نفى وجوده يظل مسألة تحسمها العقيدة ويقين الفرد [١٨] .

ولقد حسمت هذه باعتقادى فى وجود الله . وبعد ذلك ، ثار سؤال عن ماهية الاتصال بين الله والإنسان .

ولقد كنت شديد الاقتناع بإمكانية ، بل قل بضرورة ، تدخل الله وتسييره لمجريات الأمور . ويرتكز اقتناعى هذا على دراستى ودرايتى بتاريخ الإنسانية والعلوم والحق ، التى استنتجت من خلالها أن مجرد مراقبة الطبيعة وتتبعها فقط لن يقودنا إلى إدراك حقيقة

علاقتنا ببيئتنا وبالله . ألا يشهد تاريخ العلوم على حقيقة مفادها أن الحقائق العلمية يغير بعضها بعضا بسرعة شديدة[19]؟!

كنت بهذه الخطوة قد حسمت يقينى بإمكانية ، بل بضرورة ، الوحى والدين . ولكن أى دين ؟ وأى عقيدة ؟ هل هى اليهودية ، أو المسيحية ، أو الإسلام[20]؟

وجاءتنى الإجابة من خلال تجربتى الثالثة التى تتلخص فى قراءتى المتكررة للآية ٣٨من سورة النجم : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[21]. ولا بد من أن تصيب هذه الآية بصدمة شديدة كل من يأخذ مبدأ حب الآخر الوارد فى المسيحية مأخذ الجد ، لأنه يدعو فى ظاهر الأمر إلى النقيض .

ولكن هذه الآية لا تعبر عن مبدأ أخلاقى ، وإنما تتضمن مقولتين دينيتين تمثلان أساسا وجوهرا لفكر دينى ، هما :

١ ـ أنها تنفى وتنكر وراثة الخطيئة .

٢ ـ أنها تستبعد ، بل وتلغى تماما ، إمكانية تدخل فرد بين الإنسان وربه ، وتحمل الوزر عنه .

٣ ـ والمقولة الثانية هذه تهدد ، بل وتنسف ، مكانة القساوسة ، وتحرمهم من نفوذهم وسلطانهم الذى يرتكز على وساطتهم بين الإنسان وربه وتطهيرهم الناس من ذنوبهم .

والمسلم بذلك هو المؤمن المتحرر من جميع قيود وأشكال السلطة الدينية .

أما نفى وراثة الخطيئة وذنوب البشر ، فقد شكل لى أهمية قصوى ، لأنه يفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية ، مثل : ضرورة الخلاص ، التجسيد ، الثالوث ، والموت على سبيل التضحية .

وبدا لى أن تصور فشل الله فى خلقه ، وعدم قدرته على تغيير ذلك إلا بإنجاب ابن والتضحية به ـ أى أن الله يتعذب من أجل الإنسانية ـ أمر فظيع ومروع ، بل وتجديف وإهانة بالغة .

وبدت لى المسيحية وكأنها تعود لترتكز فى أصولها على أساطير متنوعة ومتعددة .

وتبين لى جليًا الدور الخطير و الشرير الذى لعبه بولس الرسول . لقد قام بولس ، والذى لم يعرف المسيح أبدا ولم يصاحبه فى حياته ، بتغيير بل وبتزوير التعاليم اليهودية ـ المسيحية التى صاغها برنابه ويرى فى المسيح أحد رسل الله وأنبيائه .

وتيقنت أن المجلس الملى ، الذى انعقد فى نيقيا (عام ٣٢٥) ، قد ضل طريقه تماما ، وحاد عن الصواب وتعليمات المسيحية الأصلية ، عندما أعلن أن المسيح هو الله . واليوم ، أى بعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرنا ، يحاول تصحيح هذا الخطأ بعض علماء اللاهوت الذين يتمتعون بجرأة شديدة .

وبجمل القول إننى بدأت أنظر إلى الإسلام كما هو ، بوصفه العقيدة الأساسية الحقة التى لم تتعرض لأى تشويه أو تزوير . عقيدة تؤمن بالله الواحد الأحد الذى ﴿ لم يلد ولم يولدولم يكن له كفوا أحد ﴾ (سورة : الإخلاص) . رأيت فيه عقيدة التوحيد الأولى ، التى لم تتعرض لما فى اليهودية والمسيحية من انحراف، بل ومن اختلاف عن هذه العقيدة الأولى . . عقيدة لا ترى أن معتنقيها هم شعب الله المختار ، كما أنها لا تؤله أحد أنبياء اليهود .

لقد وجدت فى الإسلام أصفى وأبسط تصور لله . تصور تقدمى . ولقد بدت لى مقولات القرآن الجوهرية ومبادئه ودعوته الأخلاقية منطقية جدا حتى إنه لم تعد تساورنى أدنى شكوك فى نبوة محمد .

ولقد سمعت مرارا قبل اعتناقى الإسلام مقولة أن التحول من دين إلى دين آخر ليس له أى أهمية ، حيث إن الأديان كلها تؤمن فى آخر الأمر بإله واحد ، وتدعو إلى الأخلاقيات والقيم ذاتها . وإن السلوكيات والأخلاق الحميدة ، بالإضافة إلى الإيمان بالله فى قلب الإنسان ، وأن يتوجه الإنسان إلى الله سرا ، لأهم من الصلاة خمسا ، ومن صوم رمضان وأداء فريضة الحج . كم من مرة اضطررت إلى الاستماع إلى هذه المقولات من مسلمين أتراك تخلوا عن عقيدتهم دون أن يدركوا ذلك [٢٢] .

إن إلـهًا خاصا سريا ليس بإله . . وكل هذه الحجج والمقولات تبدو واهية ، إذا ما تيقنت أن الله يتحدث إلينا فى قرآنه . ومن يدرك هذه الحقيقة لا يجد مفرا من أن يكون مسلما بأعمق معانى هذه الكلمة .

الفصل الثالث

خمس مرات يوميا كما هو مفروض

ربما يمكن القول إننى كنت قريبا من الإسلام بأفكارى قبل أن أشهر إسلامى فى عام ١٩٨٠ ، بنطق الشهادتين متطهرا كما ينبغى ، وإن لم أكن مهتما حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية . لقد كنت مسلما من الناحية الفكرية أو الذهنية ، ولكنى لم أكن كذلك بعد من الناحية العملية . وهذا على وجه اليقين ما يتحتم أن يتغير الآن جذريا . فلا ينبغى أن أكون مسلما فى تفكيرى فقط ، وإنما لا بد أن أصير مسلما أيضا فى سلوكياتى .

إذا كان الدين يعنى رباطا يربط الإنسان بربه ، وإذا كان الإسلام يعنى أن يهب المسلم نفسه لله ، فقد كانت أهم واجباتى ، كمسلم حديث عهد بالإسلام ، فى الخمسينيات من العمر ، أن أتعلم صلاة الإسلام . وليس من الضرورى أن يكون المرء خبيرا فى الحاسب الآلى ليدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسألة اتصال . . ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به ؟

من المؤكد ، على أى حال ، أنه لا شىء يعرض إسلام المرء للخطر أكثر من انقطاع صلته بربه . ومن ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنصر المحورى فى حياة كل من يعى ويدرك معنى ما يقوله ، عندما يقول إنه يؤمن بالله . وبناء على ذلك ، فإن من لا يصلى ليس بمؤمن من وجهة نظرى . فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها ، دون أن تكون لديه رغبة فى التحدث إليها تليفونيا أو فى الكتابة إليها ، ودون أن يلقى نظرة واحدة على صورتها طوال اليوم ، ليس محبا لها فى حقيقة الأمر . وهذا ما ينطبق تماما على الصلاة . فمن يعى ويدرك حقا المعنى الحقيقى لوجود الله ، ستكون لديه بالضرورة رغبة فى التأمل وفى التوجه إلى الله كثيرا . وبذلك فقط ، يصير ما يردده المسلم كثيرا وهو يقرأ سورة الفاتحة : ﴿ إياك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ حقيقة واقعة .

كنت حتى تلك اللحظة أجهل ما يجب فعله واتباعه فى الصلاة . ناهيك عن قدرتى على الحفظ والتلاوة باللغة العربية . ومن ثم ، كانت أولى أولوياتى آنذاك هى التغلب على هذا النقص . وقبل أن أمعن فى دراسة مقدمة مصورة باللغة الألمانية للصلاة الإسلامية ، تحظى بأكبر قدر من الثقة ، طلبت من صديق تركى أن يعلمنى الوضوء وكيفيةالوقوف فى الصلاة ، والركوع ، والسجود ، والجلوس على الأرض مستندا على القدم اليسرى ، ورفع الذراعين ، واتجاه النظر ، ومتى يقرأ المرء جهرا ، ومتى يقرأ سرا مع تحريك الشفتين فى القراءة ، وكيف يقف المرء موقفا صحيحا خلف الإمام ، وكيف يتصرف المرء عندما يأتى متأخرا إلى المسجد ، وكيف يتحرك داخل المسجد . إنه علم كامل ! وفى الحقيقة ، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم كمسلم دون أن يكون كذلك .

* * *

تبدأ الصلاة الإسلامية ، وإن بدا ذلك أمرا غريبا ، فى الحمام أو عند مصدر المياه فى الفناء الأمامى للمسجد بالوضوء . وينبغى تعلم ذلك بحسب تتابعه وتسلسله ، وكيف يغسل المرء اليدين ، وكيف يمسح الرأس ، وكيف يتأكد من غسل الكعبين . . كل شىء وضع وحدد على نحو دقيق تماما (٢٣) .

حينما ينوى المرء الصلاة ويرفع اليدين إلى الرأس مكبرا مفتتحا الصلاة ، فإنه ينفصل تماما عن مشاغل حياته اليومية ، مما يؤكد قدسية الصلاة بالنسبة له .

لا يمثل الوضوء مشكلة فى البلدان الحارة ، حيث تؤدى الحرارة المرتفعة إلى سرعة الجفاف . وفى حالة عدم توفر الماء ، فإنه يكفى تنظيف اليدين بالرمل على سبيل الرمز (التيمم) . ولقد تعرضت لمثل هذا الموقف ، حينما غاصت السيارة التى يقودها سائقنا الخبير بالصحارى فى السابع من شهر ديسمبر عام ١٩٩٣ ، أثناء رحلة فى منطقة ليوا الغنية بالنفط فى الإمارات العربية المتحدة ، حيث تبدو الرمال صالحة تماما للتيمم .

أما فى مناطقنا الباردة ، فليس من المريح حقا ، فى حالة عدم وجود مناشف ، أن يضطر المرء إلى ارتداء جواربه وقدماه مبتلتان .

* * *

تبين لى أن تعلم كيفية أداء الصلاة أيسر كثيرا مما كنت أتوقع ، لأن الصلاة تتكون من وحدات ثابتة تسمى «ركعة» . فالركعات هى وحدات الصلاة .

وينبغى أن يتعلـم المرء أيضا عدد الـركعات فى كـل من الصلوات الخمـس : الصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وأن يعرف مواقيتهـا ، وما ينبغى على المسافر أن يراعيه من أحكام الصلاة .

تعلمت أخيرا كيفيـة الوقوف فى صلاة الجماعـة ، حيث ينبغى أن يصطـف المصلون فى صف مستقيم تتلاصق فيه الأقدام وتُسدُّ الفرج . وهـذا التلاصق يرمز بالنسبة لى أكثر من مجرد ضم صفوف . إنـه يرمز إلى التضامن على نحـو يؤثر فىّ مجددا كل مـرة . ويتجدد هذا التضامن فى نهاية كـل صلاة مع تحية « السلام عليكم » التى ينطقها المُصَـلـِّى وهو يلتفت يمينا ثم يسارا ، وبعد ذلـك يمسح وجهه بكلتا يديه إعلانا عـن انتهاء الصلاة ، وبعدها يمد يديه إلى جاره فى الصلاة مصافحا ومتمنيا أن يتقبل الله صلاته « تقبل الله صلاتك » .

روى لى عبد الوهاب عبادة ، السكرتير العام السابق لوزارة الخارجية الجزائرية ، أنه غير هذه التحية مرة عندما كان طفلا . فلقد بدا له أنه من الأقرب إلى المنطق أن يقول : « السلام عليك » . وكانت نتيجـة ذلك أنه تلقى على وجهه صفعة من والـده الذى علمه أن المسلم يقول دائما : « السـلام عليكم » لأن تحيتـه تشمل جميع المخلوقـات المرئية وغير المرئيـة . . تشمل الملائكة . . وتشمل الصراصير .

مـن الأهمية بمكـان ، أن يعرف كيـف يحدد موضـع صلاتـه ، بحيث يضـع نظارتـه وحافظة أوراقـه على مسافة نحو ٩٠ سنتيمترا أمامـه . فلن ينتهك أحد موضـع صلاة أحد آخر ، ولن يمـر أحد من أمام أحد المصلين مبـاشرة . وإننى لأتذكر أننـى هممت بمغادرة مسجد الـرسول ﷺ فى المدينـة ، بعد أن انتهيـت من الصـلاة ، يوم ٢٦ مـن ديسمبر عام ١٩٨٢ . وعندما بلغت الباب الرئيسى ، كانـت حركة السير بطيئة . وكان السبب أن أحد القادمين إلى الصـلاة متأخرين ، لحق بها فـور وصوله إلى البـاب ، وما يزال يكمل صـلاته على الـدرج فى هدوء تـام ، بينما انقسمت جموع المصلين المنصرفين مـن المسجـد حولـه كما تنقسم حـول صخرة . ولم يجرؤ أحـد على أن يزعجه ، أو يشـوش عليه فى صـلاته ، أو أن يقتحم مـوضع صلاته . أمـا ما هو أشد غـرابة وإثارة للدهشـة ، فذلك الذى رأيتـه أثناء الطواف حول الكعبة فى عام ١٩٩٢ . . فلقدراحت امرأة ضعيفة البنية تؤدى الصلاة دون اكتراث ، فى قلب الزحام على مسـافة بضعة أمتار من الكعبة ، محاطة بـأربعة رجال أشداء يصنعون حولها سياجا بسواعدهم . ومرة أخرى ، يتكرر نفس رد الفعل الهادىء من جانب الناس . فلا لوم ، ولا تأنيب ، ولا كلمة غاضبة ، وإنما احترام للصلاة .

ربما يكون من العسير أو حتى من المستحيل ، بسبب هـذه القواعد الصارمة ، أن يغادر

المسجد أحد مـن المصلين فى الصفوف الأمامية قبل أن يغادره الجميـع . ولقد اضطررت فى عام ١٩٩٣ إلى أن أترك مضيفى فى أبو ظبى ينتظرنـى ، لأننى لم أجد وسيلة لمغادرة المسجد تتفق مع القواعد . فلكى أغادر المسجد عبر طريق جانبى ، كان لا بد من أن أمر أفقيا من أمام المصلين ، وهذا هو « الحرام » بعينه .

* * *

أحب كثيرا أن أؤدى الصلاة بمفردى ، حتى أستطيع أن أتحكـم فى سرعة إيقاعها الذى يتسم عادة بالسرعـة إلى حدما عند الصلاة فى المسجد ، بسبب مراعـاة ظروف المرضى ومن يكونون على عجلة من أمرهـم . ومع ذلك ، فإن لصلاة الجماعة فضلا على الصلاة منفردا .

بعيدا عن المساجد التى لها إمام محدد ، يؤم الصـلاة فيها ، ينبغى قبل كل صلاة جماعة أن يختـار فى لحظتهـا مـن يـؤمهـا . ويتمتـع المضيـف بـالحق فى أن يـؤم الصـلاة . ومـع ذلك ، فإننى أحب بشدة أن أفوض فى إمامتها واحدا من ضيوفى (مثل السفير السعودى ، أورئيس حزب الاستقـلال المحامى محمد بوستـة ، عندما نلتقى معـا على مائدة الإفطار فى رمضان بمقر إقامتى فى الرباط) .

وذات مرة ، اقتضت ظروف غريبة أن أصلى أنا نفسى إماما . [٢٤] فعند وصولى إلى سان فرانسيسكـو فى العاشر من أكتـوبر عام ١٩٨٥ ، للمشـاركة فى الاحتفال السنـوى لتجمع شمالى الأطلنطى ، رحت أبحـث فى دفتر التليفون وفى سجل الكنائس عـن مسجد . وكنت موقنا أننى سـأجد فى عاصمة المذاهب الأمريكيـة جماعةإسلامية . وشد ما كـانت دهشتى حينها قرأت : « المركز الإسلامى ، ٨٥٠ ، شارع ديفيزاديـرو ، تقام شعائر الصلاة يوميا فى السـاعة الثـانية عشرة ، وأيـام الآحـاد فى الساعـة الثـالثة عشرة » ، تمامـا كما هو معتـاد فى الكنائس التى لا تحدد مواعيد الصلاة بها تبعا لوضع الشمس كما هو الحال عند المسلمين . وعندمـا وصلت إلى هناك ، وجـدت جماعة تتألـف من ثلاثـة أعضاء من السـود . وانتظارا لارتفاع الأذان مناديا للصلاة راح شيخ أشيب الشعـر ، يضع على عينيه نظارة واسعة مائلة إلى أسفـل ، يقرأ فى نسخـة عربيـة من القـرآن واضعا الإصبـع على السطور . وينضـم إلى الحاضرين عضـو آخر مـن أعضاء الجماعة . إنـه يوسف سيمـون . . شاب شيعـى أسود يدرس العلوم السيـاسية . ولقد قابل دهشتى بـالصمت ، إذ لا بد من أنه اعتـاد أن يعانى التفرقة كأسود بين بيض ، وكمسلم بين مسيحيين ، وكشيعى بين سنّة .

لم تفارقنى الدهشة على الإطلاق . فها هو ذا المؤذن يـؤذن للصلاة ، ولكنه يبدأ بالإقامة

قبل الأذان. ولأن « بلالا » ، أول مؤذن للإسلام بالمدينة ، كان أسود ، فقد شعرت بحرج شديد فى أن أصحح خليفته فى سان فرانسيسكو . ولكنى ما كنت لأستطيع الصمت إزاء كل هذه التطورات المتناقضة ، فرحت أروى بحرص شديد أنه سبق لى أن كنت فى مكة ، وأنهم هناك يبدءون بالأذان ثم الإقامة .

ولم يدهشنى رد الفعل لما قلت ، بل اعتبرته رد فعل طبيعيا ، إذ دعتنى الجماعة الصغيرة على الفور للصلاة بها إماما ، لأننى « الأكثر علما » بين المسلمين الموجودين . ولم يؤثر فى ذلك بأى حال كونى ألمانيا أبيض وأننى جئتهم لأول مرة . وهكذا وجدت نفسى على غير انتظار فى مواجهة القبلة . وتمنيت لو أنها كانت ، على الأقل ، موجهة توجيها صحيحا نحو مكة . وصففت جماعتى الصغيرة جدا فى صف مستقيم ، ورفعت يدىّ مكبرا « الله أكبر» .

إن للمعرفة وحدها وزنا يعتد به . وهذا ما تؤكده أيضا واقعة أخرى . ففى ديسمبر عام ١٩٨٢ ، أمَّ صبى عربى فى الخامسة عشرة من العمر ، بفندق شيراتون المدينة ، صلاة مجموعة من المعتمرين الباكستانيين الأميين .

فيما يختص بصلاة الجمعة ، التى تتألف بصفة أساسية من خطبتين قصيرتين ثم صلاة ركعتين ، فإنه لا بد لأدائها من الذهاب إلى المسجد . وينهى الخطيب خطبته فى العادة برفع يديه بالدعاء إلى الله . ومما له أهمية سياسية كبيرة ، أن يدعو الخطيب بالبركة للحاكم .

وبناء على خبرتى لسنوات طويلة ، لا تحقق هذه الخطب ، للأسف ، فى العالم العربى ما كان يمكن أن تحققه ، لأنها تخاطب المشاعر أكثر من مخاطبتها للعقل . فهى تردد ما يؤمن به المؤمنون أكثر مما تعمقه . ويظهر ذلك فى نبرة صوت الخطباء . فبعضهم يصرخ كما لو كان يستثير حماسة جيش لخوض معركة . وينبغى مع ذلك أن أقر ، على الجانب الآخر ، أنه لا مجال فى العالم الإسلامى للوعظ بأسلوب حديث ، لأنه لا يكاد يوجد به من يدعى الإلحاد . فلماذا ينبغى على المرء إذن أن يدعم أسس ومبادىء العقيدة بحجج وبراهين عقلية ومعقدة ، بدلا من أن يوظف تربويا ما يسود العالم الإسلامى من إيمان ؟ (وهناك أيضا استثناءات إيجابية . فكما يتحمل بعض المسيحيين فى ميونخ مشقة الوصول عبر طرق أطول إلى خطيب بعينه ، كنت فى فترة وجودى بالرباط أذهب حتى مشارف المدينة لأستمع إلى إمام مسجد لالا « السيدة» سكينة ، المثقف فى خطبة صلاة الجمعة) .

أثناء عملى الوظيفى ، كان علىّ ، تنفيذا لقاعدة بروتوكولية ، أن أصلى صلاتى عيدى

الفطر والأضحى خلف قادة دول ، مثل الرئيس الجزائرى الشاذلى بن جديد ، والملك الحسن الثانى ملك المغرب . وكان ذلك يجرى أمام عدسات كاميرات التلفزيون . وكنت فى كل مرة ألمس الروح الديمقراطية التى تضفيها الصلاة الإسلامية حتى على مثل هذه الأجواء . فسجود ملك على الأرض مرتديا جواربه أمر جد مختلف عن خطو رئيس فرنسا فى كاتدرائية ريمس نحو موضع جلوسه المميز .

* * *

يتسم حفظ النصوص العربية ، التى تتلى أثناء الصلاة ، ومن بينها مقاطع قصيرة أو طويلة من سور القرآن ، بالنسبة للبعض ، بقدر من الصعوبة ، يفوق ذلك الذى يتسم به تعلم كيفية أداء حركات الصلاة . ولقد ساءنى ألا أستطيع أن أحفظ جيدا النصوص العربية ، مما جعلنى أشبه بمساعد قس يفتقر إلى المعرفة اللاتينية . ولذلك ، قررت مثل المسلين كافة ، منذ الأزل إلى الأبد ، أن أتعلم من اللغة العربية ما يكفى على الأقل لفهم الصيغ النحوية وأصول المتون . (ولقد استفدت كثيرا من هذه المعرفة الأولية ، عندما عملت فيما بعد سفيرا فى الجزائر) . وكان أول ما تعلمته بطبيعة الحال هو سورة «الفاتحة» ، أول سور القرآن وفاتحة الكتاب ، وهى مكون رئيسى لكل ركعة . ومن ثم ، فإنها تُتلى يوميا ١٧ مرة على أقل تقدير:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الحمد لله رب العالمين *الرحمن الرحيم *مالك يوم الدين* إياك نعبد وإياك نستعين *اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . بعد الفاتحة تعلمت السورة رقم ١١٢ ، أى سورة الإخلاص ، التى تعادل من حيث مضمونها ، وفقا لما يروى عن الرسول ﷺ ، ثلث القرآن بأكمله ، على الرغم من قصر آياتها الأربع : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل هو الله أحد* الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كُفُوا أحد ﴾ .

وتلا ذلك المعوذتان ، وهما : سورة الفلق(رقم١١٣) ، و سورة الناس (رقم ١١٤) ، ثم سور مكية أخرى قصيرة مثل سورة الفيل (رقم ١٠٥) ، وسورة قريش (رقم ١٠٦) ، وسورة الكافرون (رقم ١٠٩) ، وسورة النصر (رقم ١١٠) ، وكذا الآيات من ١ إلى ٥ من أول سورة نزل بها الوحى ، وهى سورة العلق رقم ٩٦ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق *خلق الإنسان من علق *اقرأ وربك الأكرمُ *الذى علَّمَ بالقلم* علَّم الإنسان مالم يعلَمْ ﴾ . ولم أغامر بعد ذلك بمحاولة تعلم (حفظ) مقاطع أطول من القرآن مثل آية الكرسى (سورة ٢ ـ آية ٢٥٥) ، وآية النور (سورة ٢٤ ـ آية ٣٥) ، وكذا المقاطع الخاصة بأسماء الله الحسنى ، أى صفات الله ، (سورة ٥٩ ـ الآيات ٢٢ ـ ٢٤) ، إلا بعد تقدمى المتنامى فى المعارف العربية .

إن من يحلل نصوص الصلاة ، يصل إلى اليقين بأن جوهر الصلاة هو ذكر الله ودعاؤه . وهذا يتفق مع إرشاد القرآن إلى أن أسمى واجبات الإنسان : أن يهتدى بفضل قدراته الذهنية إلى معرفة الله والتسبيح بحمده . وهذا هو جوهر سلوك المسلمين . فإذا سألت أحدهم عن أحواله ، فلن يجيب : جيدة أو سيئة ، وإنما سيقول : الحمد لله .

بعد الصلاة ، يقوم المرء بشغف شديد بالتسبيح بحمد الله ، مستخدما إما مسبحة مكونة من ثلاث وثلاثين أو من تسع وتسعين حبة ، وإما أصابع يده مرددا فى همس : «سبحان الله وبحمده » أو « الشكر لله » ، و « الحمد لله » ، و« الله أكبر » . ولعلنا نلاحظ أنه ـ خلافا للمسيحية ـ تتعدد أشكال التسبيح والدعاء فى الإسلام .

وإذ كان للدعاء مكانته الرئيسية ، فإن الانصراف عن الدعاء إلى الله يصير نوعا من نقص الإيمان ، لأن « الله قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه » . (انظر : سورة ٢ آية : ١٨٦) .

وكما أنه ليس للدعاء صورة أو قالب محدد ، فليس له أيضا موقع أو زمن محدد ، ولا يشترط أن يكون باللغة العربية ، وهو فى حالته المثلى ذِكْر دائم لله . وهذا الذكرالدائم لله هو ما يجتهد فيه متصوفة المسلمين . ولقد قامت أنّا مارى شيميل بجمع قدر كبير من هذه الأذكار والأدعية الإسلامية الجميلة[٢٥] .

ويرجع إلى التصوف الإسلامى الفضل فى تماسك وعدم تفكك الأذكار والأدعية الإسلامية شكلا ومضمونا ، بدءا من المتصوف الأندلسى ابن عربى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر م حتى فريثجوف شوؤن [٢٦] فى عصرنا الراهن . فلم يتحلل الصوفيون الإسلاميون الحقيقيون على الإطلاق من الشكليات المفروضة ، وإنما قاموا بعقلنتها . فها هو ذا شوؤن يقول فى موضع آخر [٢٧]: إن « المسلم ـ وبصفة خاصة من يتبع السنَّة حتى فى أدق وأصغر تفريعاتها ـ يعيش فى شبكة من الرموز . . . » . ومن يحمل هذا فى قلبه لا يترك صلاته تتحول إلى روتين . وسواء أديت الصلاة فى مسجد شيعى فى هامبورج ، أو فى مسجد مبنى بالطوب اللبن (الطوب الأخضر) وجذوع النخيل فى واحة فيجيج شرقى المغرب ، أو فى المسجد الأموى فى دمشق بفسيفسائه المبهرة ، فإن الصلاة واحدة ، فقد تعلموها على يد معلم واحد (وهو ما حدث بالفعل) . وهذا التوحد الشكلى يوفر الهدوء والطمأنينة اللازمين للتركيز التام .

* * *

تنطوى الصلاة فى الإسلام ، بالإضافة إلى جانبها الروحى ، على بعد مادى ملموس ، فضلا عن بعد سياسى محتمل . فالمرء يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعلم كيف يجلس على قدميه مسترخيا على أرض صلبة ، دون أن يتعرض لتقلصات عضلية ، مدركا أن وضع القدمين عاريتين فى الوضع المناسب أيسر منه وهما داخل الجوارب . ولكن الجلوس على الأرض دون حراك لساعات طويلة على نحو ما يفعله إخوتنا فى الشرق أمر لم يعد بمقدورنا أن نتعلمه فى سن متقدمة .

ومن المؤكد ، أن الصلاة فى الإسلام تفيد فى علاج أعراض التوتر المعاصر ، الذى لا يحتاج إلى وقت طويل لتحليل ومعرفة أسبابه . فالإنسان المعاصر لا يعمل من حيث الكم ، فيما يختص بالعمل العضلى بصفة خاصة ، أكثر مما كان يعمل فيما مضى من الزمن ، بل إن العكس هو الصحيح . أما الجديد ، فهو السرعة التى تجرى بها كل الأحداث وتُجْرَى بها كل الأعمال ـ بواسطة التلكس ، والفاكس ، والبريد الإلكترونى ، والإنترنيت ، والبريد السريع ـ والتى ترهق المرء وسين ـ أكثر من الرئيس ـ الذين يساورهم القلق من احتمال فقدان السيطرة على الأمور ومداهمة المواعيد لهم ، والخوف من الفشل . ويزيد تعاطى الخمور ، والتدخين ، والأقراص المخدرة ، والأقراص المنشطة ، الأمر سوءا . ولقد ارتفعت تكاليف علاج انسداد الشرايين عند من يشغلون وظائف الإدارة العليا ، إلى درجة أنهم أصبحوا يرغمون على القيام بإجازات إجبارية . وكذلك تتناول البرامج التدريبية لمديرى شئون العاملين التغذية الحيوية المرتدة ، والتأمل الاستشراقى ، وضرورة اكتشاف الفرد بنفسه لطقوس الشاى اليابانية كوسائل للتخلص من التوتر والقلق .

ومقولتى فى المقابل ، هى أن الصلاة الإسلامية تحقق كل هذا وأكثر منه ، إذ إنها لا تساعد المؤمن على التوقف عن التفكير والاسترخاء فحسب ، وإنما تساعده أيضا على تحقيق تحرره الداخلى من سحر المال والجاه والمنصب . فبينما يجد الأمريكى الذى يعيش تحت ضغوط مختلفة أنه أمام خيارين لا ثالث لهما : إما الحرب وإما الهروب بالانتحار ، يختار المسلم اختيارا ثالثا هو أن يفيض مع الأشياء . (ربما يقصد المؤلف هنا توكل المسلم على الله) . فبفضل الصلاة الإسلامية لا يستطيع مسلم حقيقى أن يكون متوترا مؤرَّقا ، ولا أن يكون مصدرا للتوتر والأرق .

إننى أعرف تماما عما أتحدث . فلقد كان بمقدورى أن أعرف كل العوامل التى تسبب الضغط والتوتر والأرق من خلال عملى مديرا لقسم حلف شمال الأطلنطى والدفاع بوزارة الخارجية فى الفترة (١٩٧٩ ـ ١٩٨٣) ، ومن خلال عملى مديرا لإدارة المعلومات الخاصة

بخطر التهديدات بالعدوان فى حلف شمالى الأطلنطسى ببروكسل فى الفترة (١٩٨٣ ـ ١٩٨٧) .

ابتداء من عام ١٩٨٠ ، لم أعد أحمل معى فى رحلات العمل سوى سجادة للصلاة وبوصلة (صنع تايوان) ، لتحديد اتجاه القبلة ، وإن كنت على يقين بأن منشفة نظيفة تفى بالغرض ، وأن الله ليس غربيا ولا شرقيا ، إذ ﴿ . . فأينما تُوَلُّوا فثَـمَّ وجه الله . . ﴾(سورة البقرة : الآية ١١٥) . وراحت أيامى تتشكل أكثر فأكثر تبعا لمواقيت الصلاة ، وليس تبعا للساعة التى تسبب القلق والتوتر . (فعندما يتواعد المرء مع مسلمين ، فإنه لا يواعدهم «الساعة الثالثة والربع » ، وإنما يواعدهم لوقت غير محدد إلى حد ما « بعد صلاة الظهر » ، أو « بعد صلاة المغرب ») .

ويجمل القول إننى وجدت عبر الصلاة تلك الطمأنينة والتحرر الداخلى الذى ينتزع المسلم من الضغوط كافة ، لأنه يستطيع أن ينتزعه من عالم يقاس الوقت فيه بالمال ، والمال فيه هو كل شىء .

عندما تعرضت فى عام ١٩٩٢ لحملة طعن وتجريح شرسة فى وسائل الإعلام بسبب إيمانى ، لم يستطع بعض من زملائى أن يفهم عدم اكتراثى بهذه الحملة (أو أنهم اعتبروه نوعا من الكبرياء والغطرسة) . وكان من الممكن العثور على تفسير لهذا السلوك من جانبى فى الآية الخامسة من سورة الفاتحة : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

فى تلك الأثناء ، صارت الصلاة بالنسبة لى عنصر تنظيم لحياتى على جانب كبير من الأهمية ، حتى إننى لم أعد أرغب العيش فى بلد لا أستطيع أن أسمع فيه نداء المؤذن الجميل للصلاة كما هو الحال فى فاس ، وفى إسطنبول مرة أخرى أخيرا .

* * *

لاحظت مرارا أن الصلاة المنزهة عن الغرض يمكن ، بحكم طبيعتها ، أن تصير عنصرا سياسيا . فإلى ما قبل إقدام الجبهة الإسلامية فى الجزائر على العمل العلنى فى عام ١٩٨٨ ، كان أتباعها قد بدءوا يتجنبون المساجد الخاضعة لإشراف الحكومة (كما يتجنب كثيرون من الأتراك العاملين فى ألمانيا المؤسسات التابعة لوزارة الأديان التركية) . فإسلامهم الموازى ينعكس فى صلاة موازية أيضا . ففى البليدة ، على سبيل المثال ، أدينا الصلاة فى عام ١٩٨٧ فى مسكن خاص مجاور للمسجد مباشرة ، بدلا من أن نصلى فى المسجد .

وبالمثل ، كـان من المظاهر المميزة أن تـدخل المسجد مجموعات مـن الشباب ، قبل أو بعد صلاة الظهـر بوقت قصير ، لتصلى فى أحد الأركـان كمجموعة مغلقة ، وخلـف إمام خاص . وهـذه هى ذات الظاهرة التـى لا حظتها فى سبتمبر عام ١٩٩٤ فى مسجـد سنان باشا بحى بارباروس بإسطنبول .

كانت النتائج السياسـية باهرة ، عندما أرادت حكومة جبهة التحـرير الوطنى الجزائرى أن تدلل ، فى أحد المساجد بالقـرب من ميناء الجزائر يوم عيد الأضحى عام ١٩٨٨ ، على مدى مـا صارت إليـه من تديـن وورع . فلقد غضب الشعـب بأكملـه ، (أو سخر) ، عندما تبين له على شاشات التلفزيون أن عناصر قيـادية من حزب الوحدة الاشتراكى تجهل بشكل واضح كيفية أداء الصلاة . ولم تمض سوى شهور قلائل حتى أصيبت جبهة التحرير الوطنى فى شهر أكتوبر بهزيمة قاسية ، فى انتفاضة شعبية ، بينما اكتسبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ وضع حزب شرعى .

ما يـزال هناك الكثير مما يمكـن قوله فى هـذا الصدد . ولكـن حان الآن موعـد انطلاق صوت الأذان منـاديا عبر عشرات مـن مكبرات الصوت لصـلاة المغرب التـى تحين بغروب الشمس مباشرة ، وهو أمر لا يحتمل التأجيل .

الفصل الرابع
الإفـاقة من السـكْر

كـان أبرز مظـاهر تحولي إلى الإسـلام ، هو رفضـي المهذب لاحتسـاء الخمر ، واختفـاء زجاجة النبيذ الأحمر من فوق مائدة طعامـي . ولقد ظننت في باديء الأمر أنني لن أستطيع النوم جيدا بدون جرعة من الخمر في دمي ، بـل وأن النوم سيجافيني من البداية . ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تمامـا . فنظرا لأن جسمي لم يعد بحاجة إلى التخلص من الكحول ، أصبح نبضي أثناء نومي أهدأ من ذي قبل . صحيح أن الخمر مفيد ومريح جدا في هضـم الشحوم والدهون ، لكننا كنا قد نحينا لحم الخنزير عن مائدتنا إلى الأبد ، بل إن رائحة هذا اللحم الضار أصبحت تسبب لي شعورا بالغثيان .

* * *

كنت في جاهليتي الشخصيـة « زمن الظلام » قبل اعتناقي الإسـلام ، خبيرا بالخمور ، حتى إنني كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشـة بمجرد تذوقها بطرف لساني . وكا التمييز بين أنواع الخمـور «الذكورية »و « الأنثـوية » أيسر منه بين الأنواع المختلفـة دا كل مجموعة منها ، حيث يتطلب الأمر بالنسبة لكل حالة تحديد الزيت الأثيري الخاص عن طريق التذوق . ولقد أتاحت لي الحياة الـدبلوماسية ، وبصفة خاصة حفلات العشاء الرسميـة في ختام مؤتمرات وزراءحلف شمال الأطلنطي ، فرصـة هائلـة لاكتساب هـذه الخبرة .

لقد « تدربت » بنشـاط وجد ، لأنمي وأدرب ملكة التفرقة والتمييـز بين أنواع النبيذ . وأثناء عملي بباريس في عام ١٩٦٧ ، كنت في عطلة نهايـة الأسبوع أحجز عن طريق دليل ميشلان منضـدة في أحد المطـاعم ذات النجمـة الواحـدة . وكنت أختـار النبيذ بـواسطة الهاتف ، وأطلب فتح الزجاجة على الفور ، حتى يتأكسد النبيذ بدرجة كافية ، ويصل إلى كامـل نضجه ومذاقـه عند وصولي إلى المطعـم . وكنت في المساء أختـار قائمة طعـامي بما يناسب النبيذ ، وليس العكس .

عندما كنت أشغل منصب المستشار الأول بالسفارة فى بلجراد ، فى عامى ١٩٧٧ / ١٩٧٨ ، كنت أقيم حفلات اختبار وتذوق للنبيذ ، أدعو إليها الأصدقاء . وكنت أعرض على ضيوفى كيف يمكن عن طريق سقف الحلق تحديد أنواع الكروم والتربة وطرق القطف وطرق التخمير والسَّنة ، مستخدما أنواعا من النبيذ الأبيض عديم اللون ، كنت أجلبها من متاجر متخصصة ، ومن مناطق مختلفة . وكنت « كتربوى» أعرض أنواع النبيذ على نحو تتتابع فيه أنواع تجمع بينها صفات مشتركة ، وتميزها بعضها عن بعض صفات أخرى . ولقد تطورت قدرات بعض ضيوفى ، فى واقع الأمر ، بحيث استطاعوا بعد سابع محاولة للتذوق أن يميزوا بين أنواع النبيذ المختلفة تبعا لمعايير مختلفة .

* * *

لقد وجدت مع ذلك أن التحريم القرآنى للخمر والمخدرات[٢٨] ليس ضرورة اجتماعية فحسب ، وإنما هو أيضا منفعة شخصية للفرد ، إذ يمكنه من أن يكون متيقظا صافى الذهن دائما . ومن ثم ، أنهيت هذه المرحلة من حياتى مرة واحدة ، وإلى الأبد . فإن الإنسان ، بفضل قدرته على التفكير وإعمال عقله ، يفاخر بأنه أعظم المخلوقات . فنحن البشر نستطيع أن نمعن التفكير فى العالم من حولنا وفى أحوالنا ، وأن نتصرف بحكمة . وهذه الصفات التى ترقى بنا ، هى ذات الصفات التى ندمرها على نحو منتظم بتعاطى الخمور والمخدرات . ونحن بذلك نمتهن أنفسنا ونحط من قدرنا داخل المنظومة الكونية ، وننحدر بالتالى إلى مكانة أدنى من مكانة الحيوانات ، التى لا يغيب عنها وعيها أبدًا . فإدمان تعاطى الخمور والمخدرات نوع من التشويه الذهنى الذاتى . وكانت مديرة منزلى الصربية فى بلجراد مثالا منذرا لى ، إذ كانت تعود دائما إلى إدمان الخمر ، حتى بعد علاج لفترات طويلة .

إن مشهد مدمنى تعاطى الخمر مشهد مهين ، يبعث على الاكتئاب ، ويثير الشفقة . وكثيرا ما يقدم هؤلاء على الانتحار . وهم يعلمون حقيقة حالهم ، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع عما هم فيه ، لأن الخمر سلبتهم العزيمة والإرادة والقدرة على اتخاذ القرار .

من النادر أن تجد عدد مدمنى الخمر فى المجتمع الأحدث فى المدن التركية الكبيرة أقل من عددهم فى ألمانيا . فهم يمسكون ـ من وقت الظهيرة ـ بكأس الراكيا فى يد ، وبالسيجارة فى اليد الأخرى ، مبرهنين بذلك على أنهم لم يعودوا سادة أنفسهم . وهم ، من الناحية الدينية ، يمارسون بذلك نوعا من « الشرك بالله » ، لأن الخمر ونيكوتين الدخان أهم عندهم من كل ما عداهما فى العالم بمن فى ذلك ربهم الذى خلقهم . فهم يستطيعون ـ فى ظنهم ـ أن يعيشوا بدونه ، ولكن ليس بدون الراكيا .

يهدف القرآن من وراء التحريم المطلق للخمر إلى منع البدء في تعاطيها ، حيث لا يبدو ضارا في حالة احتساء كأس واحدة . فالكأس الواحدة التي لا تبدو خطيرة في الظاهر يمكن في يوم ما أن تصبح كئوسا عديدة . ومن المعتاد ألا يرى المدمن أنه معرض للخطر ، وأن يقدِّم مالا حصر له من الأعذار والحجج لتبرير اعتياده التدخين أو احتساء الخمر ، في هذا الوقت بصفة خاصة ، ومن ذلك كون المدمنين سعداء أو تعساء ، يعانون من ضغط العمل أو في إجازة منه ، جماعة أو فرادى ، مرضى أو أصحاء ، جوعى أوشبعى .

لقد واجهت كرئيس مسئول هذه المشكلة . فكنت ، عندما أنبه أحد العاملين معي حتى قبل احتسائه الخمر بيوم واحد ، كنت أَعَدُّ معتديا على حقه في أن يعبر عن شخصيته بحرية (وأواجه بذلك مشكلة مع مستشار شئون العاملين) . ومع ذلك ، كان مستشار شئون العاملين نفسه يستطيع أن يتأكد في اليوم التالي أن الموظف المعني صار في واقع الأمر مدمنا للخمر . ومن ثم ، فإنه يعد رسميا من هذه اللحظة مريضا بإدمان الخمر .

إن من لا يتعاطى الخمر ، إذا وُجد بين سُكارى ، سرعان ما يكتشف أنه في مكان خطأ، إذ يرى هؤلاء أنفسهم ظرفاء ومبدعين وقادرين على التخيل . ولقد استطعت أن أثبت لنفسي عكس ذلك تماما ، عندما قمت بعزف مقطوعات موسيقية بذاتها على إحدى الآلات النحاسية وتسجيلها ثلاث مرات . وكنت بين المرة والأخرى أحتسي كأسين من ويسكي البربون من النوعية المفضلة لدى . وكان توقعي : أنّ عزفي سيكون أفضل في كل مرة أحتسي قبلها الويسكي ، لكن جهاز التسجيل كشف الحقيقة الصاعقة !

شعرت بخجل شديد من سلوك بعض مواطنيّ ونحن على متن إحدى طائرات شركة لوفتهانزا ، في طريقنا إلى جدة . . فكنا كلما اقتربنا من السعودية بمناخها الشديد الجفاف ، ازداد طلبهم ، وبإلحاح شديد ، للخمر حتى إنهم طلبوا من المضيف أربع زجاجات في وقت واحد ـ كما لو أن المرء يستطيع أن يجتر الخمر بعد ذلك كالجمل . ولقد كان مشهدهم مخزيا ، وهم يغادرون الطائرة حاملين في أيديهم شجرة عيد الميلاد مغلفة بالبلاستيك ، ويترنحون من السكر .

أثبتت لي هذه الوقائع أنه قد لا يكون هناك عائق في طريق انتشار الإسلام في ألمانيا أقوى من التحريم القرآني للخمر (ولحم الخنزير) . فلن يتنازل الألماني في بافاريا ولا في كولونيا عن طعامه المفضل من لحم الخنزير، ولاعن خمره المفضلة .

لقد نظم ليسنج في القرن الثامن عشر قصيدة ساخرة في هذا الصدد، بعنوان

«الأتراك» ، يتغنى فيهـا بجمال الفتيات التركيات ، وبحق المرء فى تعـدد الزوجات إذا أراد ، ورغبته بالتـالى فى أن يكون تركيا . ولكنه سرعان مـا يعدل عن هذه الرغبـة ، ويصرح بأنه لا يريد أن يكون تـركيا لأن الأتراك لا يشربون الخمر . وما كان يمكـن أن يكون مجديا لليسنج على الإطلاق أن يصير تركيا ، وإن كـان الأتراك يتعاطون الخمر الآن ، إذ يعاقـب القانون فى تركيا حاليا على تعدد الزوجات .

إن المسلم ، بتنـاوله كـوبا مـن الماء أو العصير بين أناس يحتسـون الخمر ، يفسـد عليهم بهجتهم ، لأن مـا يفعله ينطـوى على عقاب معنوى لهم . لـذلك ، أصبـح من النـادر بعد اعتناقى الإسلام أن نُدعى ، زوجتى وأنا ، إلى حفلات خاصة أو إلى حفلات رقص ، وكأن المرء لا يسعد إلا بالخمر . وهكذا ، أصبحنا معزولين « منبوذين » .

كثيرا ما يسـاق اختلاف البيئـة المناخية كحجـة ضد التحريـم الإسلامـى للخمر ولحم الخنزير فى مجتمعنا ـ (يقصد المجتمع الألمانى) ـ بدعوى أن هذا التحريم لا يناسبه مناخيا . وهذه حجة تفتقـر إلى المنطق . فالحقيقة أن أضرار الخمر فى العصر التكنـولوجى أكبر بكثير منها فى القرن السابـع ، حيث كان أقصى ما يمكن أن يحدث للمخمـور هو أن يسقط من فوق صهوة جـواده ، أو أن يعتدى بالضرب على زوجته وأطفاله ، أو أن يقطـع أوتار سيقان الجمل . (كان وقوع حدث شرير من هذا القبيل مناسبة لنزول إحدى آيات تحريم الخمر فى القرآن) (٢٩) .

وما يزال النساء والأطفـال يتعرضون اليوم للضرب تحت تأثير الخمـر . وكذلـك تسقط الطائرات اليـوم تحت تأثير الخمر . ولقـد تسبب قائد إحدى النـاقلات البحريـة تحت تأثير الخمر فى وقوع أسـوأ كارثة بيئية حتى الآن . وعلى الرغم من توفر إحصـاءات عن حوادث الطرق وحـوادث المصانـع ، فإنـه لا يمكن تقـدير الخسـائر البشرية والماديـة التى تصيـب المجتمع الغربى بسبب إدمان الخمـر والمخدرات . وفى بعض المستشفيات التركية ، تتجاور أقسام علاج الإدمان وأقسـام علاج الأمراض العقلية ، لما ينطوى عليه ذلـك من إنذار ، إن عاجلا أو آجلا . هذا إذا ما دمر العقل قبل أن يتوقف الكبد عن أداء وظائفه .

لقد كنت واحدا مـن ضحايا حوادث المرور التى تقع تحت تأثير الخمـر . ففى نهاية عام دراسى فى كليـة الاتحاد بشينيكتادى بـولاية نيـويورك ، قمـت بجولـة فى الولايـات المتحدة «بطريقة الأوتوستوب» ، (أى إيقاف السيارات والانتقـال بها مجانا من موقع إلى آخر) . وفى أثناء هـذه الجولة ، تعرضت يـوم ٢٨ من يونيو عـام ١٩٥١ لحادث سيئ بالقرب مـن هولى سبرنجز (بولايـة مسيسيبى) . فبينما كنا فى طريقنا على الطـريق السريع من أتلانتـا (بولاية

جورجيا) إلى ممفيس فى ولاية مسيسيبى، ظهر أمامنا ونحن على مقربة من غايتنا شبح . ولا أتذكر شيئا عما حدث بعد ذلك . ولكننى علمت فيما بعد أن هذا الشبح لم يكن سوى سيارة اصطدمت بنا، كان سائقها ومرافقه قد احتسيا كميات كبيرة من الخمر فى تنيسى، التى تسمح باحتسائه أثناء القيادة، قبل أن يتوجها إلى مسيسيبى التى تمنع احتساءه أثناءها . وكانت خسائرنا أقل فداحة من خسائرهم، لأننا كنا نركب سيارة شيفروليه مصنوعة فى عام ١٩٤١ ، أى قبل الحرب، وكانت أشد متانة من السيارة التى كانوا يركبونها وهى شيفروليه من إنتاج عام ١٩٤٣ ، أى أثناء الحرب .

ولقد تبين لى بوضوح أن ذراعى المصابة الآن ، والتى كنت أضعها على وسادة المقعد الخلفية، قد وقتنى مما هو أكثر. وكان من الواضح أيضا أننى ما كنت لأنجو لو أن قامتى كانت أقصر بمقدار ثمانية سنتيمترات فقط، لأننى كنت سأنكفئ فى هذه الحالة على أنفى وعينى بسرعة حوالى ١٦٠ كيلومتر فى الساعة. ومع ذلك، كانت خسارتى فى هذا الحادث تسع عشرة من أسنانى. وبعد انتهاء الجراح من خياطة ذقنى وشفتى السفلى، واسانى قائلا : إنه من الممكن إصلاح وجهى بعد سنوات عن طريق إجراء عملية تجميل. وأضاف قائلا : إن « مثل هذا الحادث لا ينجو منه فى الواقع أحد ، وإن الله يدخر لك يا عزيزى شيئا خاصا جدا » .

ولقد كنت أفكر فى هذا الأمر ، وأنا أتجول فى هولى سبرنجز بذراع مربوطة وضمادة تحيط بالذقن والفم تخيط . وكنت أفكر أيضا فيما أرفه به عن نفسى فى يوم عيد ميلادى العشرين . ولكن كل شىء كان يؤلمنى . . تناول الطعام أو الشراب ، أو التنزه ، أو الإجابة عن الأسئلة . وأخيرا ذهبت لأقص شعرى ، فهذا على الأقل لا يؤلم . ولم أدرك المغزى الحقيقى لنجاتى وبقائى على قيد الحياة إلا بعد ثلاثين سنة ، عندما أشهرت اعتناقى للإسلام .

الفصل الخامس

اختبــار الجـَلَد

بعد بضعة أشهر من اعتناقى الإسلام ، حل شهر الصيام ، شهر رمضان ، وهو الشهر التاسع بين أشهر السنة الهجرية . وكنت أنتظر حلوله بشيء من القلق والخوف ، لأنه اختبار صعب لجَلَد المسلم وقوة احتماله ، يجسد قمة وعيه وصحوته . ففيه ينبغى علىّ أن أمتنع لمدة ٢٩ أو ٣٠ يوما من الفجر إلى غروب الشمس عن الطعام والشراب والتدخين ومعاشرة الزوجة ، ولكن مع ممارسة عملى كالمعتاد [٣٠] .

عرفت الصيام لأول مرة فى عام ١٩٧٧ ، على متن إحدى طائرات شركة الخطوط الجوية اليوغسلافية JAT المتجهة من بلجراد إلى إسطنبول . فلقد لاحظت أن يد جارى فى الدرجة الاقتصادية لم تمتد إلى الطعام إلا بعد رفع آنية طعام بقية الركاب، وعندما حان موعد الإفطار الذى كان يتابعه بالنظر إلى ساعته من حين إلى آخر. وأثناء إقامتنا فى بلجراد، كنا كثيرا ما ندعو رمضانى رمضان، البستانى الذى يرعى حديقتنا، إلى طعام الإفطار، إذ كان يثير شفقتنا بإصراره الشديد على الصيام . فلقد كان يمتنع تماما عن تناول أى طعام عندما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ولقد قمت بصيام أسبوع من قبيل التعاطف معه . ومع ذلك ، فإن المرء لا يتعلم صيام ٣٠ يوما إلا بصومها فعلا .

فى بون ، كان من بين المهام الموكولة إلىّ إقامة حفلات عشاء لضيوف أجانب . وكان عدم مشاركتى لهم الطعام يثير حرجا شديدا : فهل أعانى توعكا فى معدتى؟ أم إن الطعام الذى طلبته لهم بنفسى لا يرقى إلى مستواى؟ وفى مثل هذه المناسبات ، كنت أتذكر السهولة التى كان يمكن بها الاعتذار عن عدم تناول العصير أو القهوة التركى التى كانت تقدم لى فى وزارة الخارجية اليوغسلافية فى شهر رمضان . وفى واقع الأمر، فإن صيام رمضان لا يصبح مناسبة تسعد المرء على مدار العام كله إلا عندما يكون فى محيط مسلم، حيث يكون شهرا مشبعا تماما بالروحانيات . . شهر سلام داخلى وإخاء .

يشتمل الصوم فى الإسلام، مثل كل العبادات ، على مكـونات مادية وأخرى معنوية ، لا ينفصل بعضها عن بعـض. ويبدأ الحرمان البدنى بامتناع المرء عـن تناول قهوة أو شاى الصباح . وينخفض السكر فى الدم أثناء النهار، حتى ليكاد المرء يصاب بالإغماء . ويسهل على المرء، من ناحية أخرى ، أن يعرف كيف يعمل نظامه البيولوجى . فبالنسبة لى، هناك على سبيل المثال فترتان للنشاط الوفير فى النهار، هما الساعة الحادية عشرة والساعة السادسة عشرة بعد الظهر. ولقـد استفدت من ذلك على نحـو نظامى، حيث وزعـت عملى اليومى تبعا له إلى : ما ينبغى ، وما يجوز، وما يمكن عمله .

وكانـت المجموعة الأولى مـن الأعمال هى ما أقـوم بأدائه بقـدر الإمكان عندمـا يستفيد ضغط دمـى من الذروة البيـولوجية المخططـة . فكنت أحاول أن أقـود سيارتى لمسـافة ١٣ كيلومتر فى طريقى من مقر قيادة حلف شمالى الأطلنطى إلى مسكننا فى إكسيل، وأنا فى أوج نشاطـى. وكنت أزيـد من حـذرى حتى لا أعـرض نفسى أو غيرى للخطـأ . ففى شهـر رمضان، تزداد بالفعـل حوادث المرور، وبصفة خاصة عندمـا يحاول أرباب الأسر اللحاق بالإفطار فى منازلهم. ولقد لقـى خمسة من مواطنينا من ألمانيا الشرقية سـابقا حتفهم بالقرب من القنيطرة يـوم ٢٥ من فبراير عام ١٩٩٣ ، ثالـث أيام شهر الصوم، عندمـا حاول سائق سيارة نقل أن يتجاوز الحافلة التى يستقلونها، فصدمها، فانقلبت بهم. وأرجع الحادث إلى ضعف تركيز قائد السيارة بسبب الصيام .

واليوم الثالـث من أيام الصوم يوم عصيـب ، يكون فيه المرء فى أسوأ حـالاته ، ويصاب بصداع شديد تزداد حدته إذا ما استلقى ليسترخى. ومع ذلك، يبدأ جسدنا بقدرته الهائلة على التكيف فى التـأقلم منذ هـذه اللحظة مع المعطيـات الجديدة، فتخف حـدة الصداع والإحساس بـالجوع، ويستطيع المرء أن يرى من يتنـاول الطعام دون أن يحسده . ومـع أننى كثيرا مـا أشعر فى المسـاء بأننـى قد أُنقِصـت، ولا أستطيع القـراءة، وأجلس أمـام شاشـة التلفزيون بلا إرادة، فإننى لا أشعر برغبة فى الطعام وبخاصة اللحوم .

* * *

يعلن عن نهاية يوم الصوم فى العالم الإسلامـى بإطلاق مدفع، وعندئذ يتناول المرء بعضا من الماء أو من العصير، وعددا فـرديا من ثمرات التمر أو الزيتون، ثـم يؤدى صلاة المغرب شاكرا لله أن أعـانه على صيام اليوم . ويبدأ تناول وجبة الإفطـار فى كل من الجزائر والمغرب بتناول شاى بالنعنـاع الأخضر، وحساء داكن اللون هو شوربة الفـريك الجزائرية ، والحريرة المغربية التى يختلف مذاقها إلى حد ما مـن منزل إلى آخر، إلى جانب بيضة مسلوقة وتمر وتمر

بالعسل، الذى كان طعام الرسول ﷺ المفضل. وسرعان ما ينتعش الجسد مرة أخرى. وبعد فترة توقف قصيرة، يتناول المرء وجبة كاملة من اللحوم، وفى المغرب من الدجاج، ولحم الضأن المشوى، والكسكى باللحم البقرى، وحلوى وفواكه. وكان كل ذلك يتم للأسف بسرعة حتى إننى أعود إلى منزلى فى الساعة التاسعة من دعوات للإفطار فى الساعة السابعة والنصف.

يختلف مفهومى عن رمضان، المبنى على اتباعى للسنَّة، عن الكيفية التى يُمارس بها فى بعض البلدان الإسلامية، ومن بينها المغرب. فالناس هناك يميلون إلى أن يعوضوا فى الليل مافاتهم فى النهار، فيشاهدوا التلفزيون، ويلعبوا الورق (الكوتشينة)، ويحتسوا الخمر أحيانا، حتى منتصف الليل، حيث يتناولون وجبة ثالثة (السحور). ومن ثم، لا يأخذ كثيرون من الجزائريين والمغاربة قسطا كافيا من النوم، بل إنهم لا يتمتعون فى الساعات القليلة التى يخلدون فيها إلى النوم بنوم مريح من فرط إتخام معداتهم بالطعام. ويترتب على ذلك، أنهم لا يلحقون بصلاة الفجر، وبصفة خاصة فى رمضان. ولا يفيدون بشىء فى ضحى اليوم التالى. ومن شأن هذا أن ينمى الاتجاه الغريب نحو استبدال الليل بالنهار فى رمضان.

وفى واقع الأمر، يرتفع كثيرا استهلاك الأغذية فى هذه البلدان فى رمضان، بدلا من أن ينخفض. أما ما ينخفض بالتأكيد، فهو إنتاجية العمل. ويؤثر رمضان على الإنتاج القومى فى هذه البلدان، كما لو كان فترة إجازة ثانية. لذلك، فليس غريبا أن يعلن رؤساء علمانيون عرب أن بلدانهم النامية لا تستطيع أن تحتمل «كسل» رمضان.

أما ما أراه عبثا، فكان دعوتى من قِبَل شخصيات رفيعة المستوى إلى تناول طعام الإفطار باستخدام أدوات مائدة مصنوعة من الذهب، وكذا أن يبدأ المسلم تناول الطعام بقول: « Bon Appetit »، أى «شهية طيبة»، بدلا من قول «باسم الله» على طبق طعامه الملىء بخيرات البحر، وقبل أن يؤدى صلاة المغرب. ولقد بدا لى دائما أنه من غير المنطقى أن يصوم من لا يصلى. ولكن هذا السلوك يكشف عن حقيقة أن صوم رمضان أصبح يمارس فى أقسام من عالم المسلمين على نحو يجرده من مغزاه الدينى، ويجعله جزءا متحررا من المدنية. وهذا يفسر أيضا السلوك الغريب من جانب بعض المسلمين إذ يمتنعون عن تناول الخمور فى شهر رمضان، باعتباره شهر إسلام مقابل أحد عشر شهرا للراحة من الإسلام...

* * *

يمضى يومى فى رمضان فى الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٤ على نحو مختلف تماما . فـأ آوى إلى فراشى بعد صلاة العشاء ، أى حوالى الساعة الحادية عشرة ، وأضبط المنبه عل الساعة الثالثة والنصف أو الساعة الرابعة صباحا ، لأستيقظ قبل بداية الصوم بنحو ٠ دقيقة كى أتناول ، قبل انطلاق مدفع الإمساك ، طعام السحور وأشرب كثيرا من الماء وبعد ذلك ، أقضى ما تبقى من وقت حتى الفجر فى قراءة القرآن . وبعد صلاة الفجر أنام ساعتين . وكان العمل فى سفارتى يبدأ متأخرا ساعة عن المعتاد . وكنت أنجز بالفعل أكثر مما أنجز فى الأيام العادية ، خاصة وأن العمل يشغل عن الإحساس بالمعدة الخالية وكنت فى رمضان أجلس فى مآدب غداء العمل الدورية التى يقيمها زملائى من البلدا أعضاء الاتحاد الأوروبى وأمامى طبق خال . وكان زميلى الفرنسى فى الرباط مسيو دى كونياك يشاركنى سلوكى « تضامنا » منه مع أبناء البلد المضيف ، كما كان يقول ، وهذا م يعد تصرفا سياسيا بارعا .

كان يوم عملى فى رمضان ينتهى عادة بحضور دروس دينية « دروس الحسنية » فى القصر الملكى بالرباط . وكانت الحكومة المغربية بأكملها ، وهيئة الأركان العامة ، وعلما المسلمين ، وسفراء الدول الإسلامية ، يجتمعون يوميا ، ابتداء من الساعة الخامسة بعد الظهر فى القصر الملكى . وكنا نستمع إلى تلاوة قرآنية إلى أن يصل الملك والأمراء . وكان من يلقون الدروس محاضرين مدعوين من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، من بينهم مسلمون أمريكيون ، وأعلام كالشيخ طنطاوى من القاهرة . وكانوا يجلسون على المنبر التقليدى ، بينما يجلس الملك مثلنا جميعا عند أقدامهم فى مربع حولهم .

كنت أنا وزملائى المسلمون نتناوب الدعوة إلى طعام الإفطار حوالى الساعة السابعة مساء . وعندما كان دورى يحين ، كان بهو مقر إقامتى فى سُويْسى الواقع بين غرفة الاستقبال (الصالون) وغرفة الطعام يتحول إلى مسجد ، حيث كانت أرضه تغطى بسجاجيد صلاة . ولقد صارت العلاقات والصلات التى أقمتها فى هذه المناسبات مع بعض من أعضاء الحكومة ومن مستشارى جلالة الملك ذات طبيعة دائمة وقوية بمرور الوقت .

ومن المعتاد ، أن أفقد بانقضاء شهر الصوم ما يتراوح بين ٥ و ٨ كيلو جرامات من وزنى . وبتعبير أدق : فإننى أقترب من وزنى المثالى .

* * *

ينطوى الصوم، إلى جانب بعده المادى ، على بعد روحانى يصير بدونه مجرد حركات تجويع بهلوانية . وشهر رمضان شهر مُعظَّم ، لما له من أهمية فى تاريخ العالم . فلم يشهد رمضان موقعة بدر (عام ٦٢٢م) ذات الأثر الحاسم فى بقاء وتثبيت المسلمين الأوائل فحسب ، وإنما الأكثر أهمية من ذلك أن به ليلة القدر التى بدأ فيها نزول الوحى بالقرآن .
وعن هذه الليلة أحادية الرقم التى تقع بين الليالى الأخيرة من رمضان (٣١) ، يقول الله فى السورة ٩٧ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنَّا أنزلناه فى ليلة القَدْر *وما أدراك ما ليلةُ القدْر* ليلةُ القدْر خير من ألف شهر * تنزَّل الملائكةُ والرُّوح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

هذا نص يصلح للتأويل والتفكر .

لقد جرت العادة على اعتبار ليلة السابع والعشرين من رمضان ليلة القدر . وتشترك ليلة القدر مع ليلة عيد الميلاد ، وإن يكن عن بعد ، فى أن المرء يُهدِى فيها (إخراج زكاة الفطر) . كما يقام فيها ـ كغيرها من ليالى رمضان ـ صلاة التراويح ، وتكثر تلاوة القرآن والتواشيح والأدعية . ومن ثم ، فما لم يدرك المرء فى هذه الليلة مغزى الرسالة والوحى ، فمتى عساه يدركه ؟ !

وصوم رمضان ، فرض على المسلمين . وهم يعتبرونه عبادة ، باعتباره أحد أركان الإسلام الخمسة التى لا تحتاج إلى تبرير مقنع . فالمسلم ، بوصفه عبدا لربه ، يصوم لأنه أمره بالصوم . فالطاعة هنا واجبة . ويستطيع المرء أن يكتشف بسهولة أن هذا الفرض لم يفرض لله ، وإنما فرض من الله للناس .

منذ أن عادت رشاقة القوام لتصبح زِيًّا سائدا (موضة) ، راح النساء يتبعن نظما للتغذية تُذَكِّر بالصوم ، كما يمكن أن تؤدى إلى نحافة مَرَضيَّة . ومع كثرة الحديث فى الآونة الأخيرة عن أضرار الكوليسترول والوزن الزائد ، ظهرت عروض مختلفة لبرامج التخسيس أو إنقاص الوزن .

ومن ناحية الصوم الإسلامى ، فإنه يفى بهذا الغرض وزيادة . فهو يؤدى ، على سبيل المثال ، إلى إذكاء الإحساس الاجتماعى حيث يشعر الصائم مرة واحدة على الأقل فى السنة بما يشعر به من يرغم على الصوم فى العام كله ، بسبب ما يعانيه من شح فى الغذاء أو المال .

وبالنسبة لى ، لعل أهم أثر جانبى لصوم رمضان فىّ ، أننى أستطيع ـ فى رمضان ـ أن أختبر ما إذا كنت ما أزال سيد نفسى أم إننى صرت عبدا لعادات تافهة ، وما إذا كنت ما

أزال قادرا على التحكم فى نفسى أم لا . وأتمنى أن يكون فرحا وليس غرورا ذلك الذى أشعر به بعد انتهاء آخر أيام رمضان ، أى عند صلاة المغرب ، من أننى استطعت بعون الله أن أصومه .

ولكن ، من ذا الذى يستطيع أن يقول لى بثقة : متى يبدأ رمضان؟ومتى ينتهى ؟ ولقد يقول المرء : إن تحديد متى وأين يظهر الهلال الجديد أمر فلكى هين فى أيامنا . وهو بالفعل كذلك . ومع ذلك ، فمن المخزى أن يظل مسلمو هذه الأرض مختلفين فى أيام بدء وانتهاء صومهم ، تبعا لكونهم أتراكا أو مغاربة أو سعوديين . وهذا أمر من شأنه أن يضر بالصوم كحدث جماعى ، وأن يعرض المسلمين لسخرية البعض .

ويرجع هذا الاختلاف إلى سببين : أولهما ، أن الأمة مجزأة إلى دول قومية ، ولا يكفى التركى أو المغربى أن يعرف أن رؤية الهلال ثبتت فى مكة ، إذ لا بد بالنسبة لكل منهما أن تثبت رؤيته فى قونية أو فاس . ويترتب على ذلك اختلاف فى تحديد يوم بداية ويوم نهاية شهر رمضان ، لأن الترتيب الوضعى بين الشمس والأرض والقمر يختلف فى كل بقعة من الأرض عنه فى غيرها . ويتباين الاختلاف فى موعد ظهور القمر فى يومين متتاليين عن الاختلاف فيهما فى موعد شروق الشمس ، فيبلغ دقيقتين فى شروق الشمس، بينما يبلغ خمس عشرة دقيقة فى ظهور القمر (٣٢).

أما السبب الثانى ، فيدركه الفقهاء على نحو أفضل . فلقد جرت العادة فى عصور الإسلام الأولى على أن تثبت رؤية الهلال بالعين المجردة ، وليس بالحسابات الفلكية أو بالتنبؤات ، وهو ما لم يمثل فيما مضى ولا يمثل اليوم أى مشكلة ، بفضل الظروف المناخية فى شبه الجزيرة العربية . واستنادا إلى ذلك، يرى بعض الفقهاء المتشددين أن رؤية هلال رمضان بالعين المجردة من شخص موثوق به تقليد ضرورى لا غنى عنه ، وأن الحسابات الفلكية غير كافية فى هذا الشأن . ويعادل رفض التواريخ الفلكية عدم الأخذ فى قانون العقوبات بدليل مبنى على أساس غير قانونى . (٣٣)

يتمسك المتشددون بالإجراءات الموروثة لتحديد بداية الشهر القمرى ، حتى وإن حالت الظروف المناخية دون رؤية الهلال الذى يكون موجودا بالفعل . ويمكن أن يترتب على ذلك ، كما حدث فى عام ١٩٩٤ ، أن يفطر المرء فى المغرب متأخرا يومين عنه فى السعودية . وعندما نقلت الاحتفالات بعيد الفطر فى مكة ، عبر وسائل الإعلام ، فى ثانى أيام الصوم الزائدة فى المغرب عنها فى السعودية، رأى بعض البسطاء فى المغرب أن هذا الاختلاف أمر مخز ومشين !! أليس من الممكن حقا أن تُوحَّد مواعيد شهر الصوم فى أنحاء

العالم الإسلامى كافة بناءً على الحسابات الفلكية بالقياس إلى مكة ، أسوة بما هو متبع فى حالة تحديد مواقيت الحج ، ومن ثم أيضا عيد الأضحى ؟!

وعندما يتناول المرء يوم عيد الفطر أول قدح من القهوة ، فى أول إفطار منذ ٢٩ أو ٣٠ يوما ، يشعر بألذ مذاق . وعند صلاة العيد فى المسجد ، لا يلتقى المرء إلا بأناس تشع منهم إشراقة داخلية . ولعل مما يبدو غريبا ، وإن كان حقيقة ، أن يشعر المرء بالجوع عند الظهر لأنه تناول طعام الإفطار ، بينما ينسى طعام الغداء فى رمضان على الرغم من أنه لم يتناول طعام الإفطار .

وهكذا تعود الأيام سيرتها الأولى .

إننى أحتفظ لنفسى بما أسميه «زر رمضان » . فعندما تكون هناك ضرورة ، بين الحين والآخر ، على مدار العام ، لترك وجبة أو وجبتى طعام ، أضغط ذهنيا على هذا الزر الذى يعيدنى نفسيا إلى رمضان بنفس الوضع ونفس الشعور . وسرعان ما أحتمل جوعى ، ولا أعيره اهتماما .

إننى أترقب رمضان المقبل بسعادة غامرة ، حتى وإن لم يصدقنى فى ذلك أحد .

الفصل السادس

مع مسلمين حول مائدة الطعام

إذا كنا تحدثنا فيما سبق عن الصوم أو الامتناع عن تناول الطعام ، فلقد آن لنا أن نؤكد أن المسلمين لا يأكلون فقط ، وإنما يحق لهم أن يأكلوا باستمتاع وتلذذ كل ما هو صحى ، وهذا يعنى كل شىء ما عدا لحم الخنزير (والخنزير البرى أيضا) ، والميتة ومنتجات الدم مثل السجق المصنوع من الدم ، ومشتقات الخنزير كالحلوى التى يدخل شحم الخنزير فى صناعتها ، وكذا الحلوى التى تحتوى على خمور .

ومن الخطأ تصور أن تحريم القرآن لتناول لحم الخنزير إنما يعود إلى أسباب مناخية فقط ، أو إلى عدم القدرة على التعامل مع الدودة الشريطية فى القرن السابع الميلادى . فنحن نعلم اليوم أن تناول لحم الخنزير يؤدى إلى الإصابة بسرطان الأمعاء ، وبالتهاب المفاصل ، وبالإكزيما والدمامل ، وإلى ارتفاع نسبة الكوليسترول فى الدم ، وإلى الإصابة بحمى القراص بسبب ارتفاع نسبة الهستامين [٣٤] .

إن تسمية هذا الفصل باسم « مع مسلمين حول مائدة الطعام » تسمية مُضَلِّلة ، لأن تناول الطعام جلوسا على الأرض ، حول قطعة من الجلد دائرية أو مربعة أو بيضاوية الشكل ، وليس على منضدة لا يقتصر فقط على البدو المرتحلين فى الصحراء ، وإنما يمارسه أيضا بعض إخوتى المؤمنين فى ألمانيا . فنحن عندما نتناول طعامنا ، على سبيل المثال فى دار الإسلام فى ليتسيل باخ فى أودن فالد ، نعد قطعة مماثلة من الجلد فى قاعة الاجتماعات والصلاة ، ونجلس أو نستلقى عليها مثلما كان الإغريق الأقدمون يفعلون ، وإن يكن بدون نبيذهم . وهكذا يفعل بعض المسلمين فى الغرب تقليدا ، ولو فى بعض الشكليات غير المهمة ، للرجل الذى يدينون له بالكثير من الفضل . . . محمد ﷺ . وتنطوى قطعة الجلد المشار إليها على معنى رمزى . فهى تذكرنا بأننا جميعا بدو مرتحلون دائما على طريق عودتنا إلى الله .

هذا السلوك فى واقع الأمر سلوك عملى ، إذ إن حمل ونقل هذه القطعة من الجلد أيسر كثيرا من تحريك منضدة فى مسكن ، أو من شحنها فى سيارة . وهكذا ، يمكن استغلال المكان الذى يتناول فيه المرء الطعام على رقعة (قطعة) الجلد فى أغراض متعددة . ولكن ينبغى ملاحظة أنه قليلا ما يتناول المرء الطعام واقفا ، أو جالسا القرفصاء ، أو مستلقيا بما يضغط على المعدة . فالجلسةالصحية تكون بمد الساقين ناحية اليمين ، مع الاتكاء على الذراع الأيسر . ومن ثم تبقى اليد اليمنى طليقة لتناول الطعام بها [٣٥] .

هناك ،مع ذلك ، فى العالم العربى أيضا من يتناول الطعام واقفا كما هو الحال فى تناول الطعام فى محلات الوجبات السريعة فى أوربا . وفى الجزائر ، جرت العادة على أن يتناول الناس شاة مشوية وهم وقوف حول منضدة الطعام ، حيث يمكن أن تلتهب أصابع يد من يبدأ بتقطيع اللحم ،الذى يُؤكل معه خبز وبصل وملح وكمّون . أما فى بقية البلدان العربية من المغرب إلى السعودية ، فيأكل الناس الشياه المشوية وهم جلوس .

تعد التغذية السليمة ، من أجل الحفاظ على سلامة الجسم ، لصالح المرء نفسه ولصالح أهله ، فى المنظور الإسلامى فرضا ، ومن ثم عبادة . لذلك يبدأ المسلم تناول طعامه بالبسملة ،أى : بسم الله الرحمن الرحيم ، وينهيه بالحمد ، أى الحمد لله . وبما أن تناول الطعام عبادة ، فإن المسلم لا يقطع تناوله للطعام عندما ينادى المؤذن لعبادة أخرى ، هى الصلاة ، طالما كان هناك متسع من الوقت لأدائها .

ولأن تناول الطعام عبادة، يحرص المرء على ألا يسرف فيه ، وعلى ألا يتناول منه ما يزيد على حاجته ، وعلى أن يتوقف عنه على الرغم من شعوره بأنه يستطيع أن يستمر فيه ، وعلى ألا يشبع حتى الامتلاء . وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **وكلو واشربوا ولاتسرفوا**﴾ (الأعراف : ٣١) .

ومن المفروض أن يتوقع المرء أن يأتيه ضيوف فجأة ، ولذلك ينبغى إعداد طعام يكفى لعدد أكبر من عدد الموجودين بالفعل . وتقضى التقاليد الإسلامية فى مثل هذه الحالات ، بأن طعاما لفردين يكفى لثلاثة أفراد ، وأن طعاما لثلاثة أفراد يكفى أيضا لخمسة . ولأن ذلك كذلك ، لا يجد المرء فى بلاد المسلمين حرجا فى أن يزور أحدا فى وقت تناول الطعام ، أى كما يقول الأمريكيون جرب « حظك مع القدر » .

من كان مثلى وزوجتى ، مضيفا رسميا فى العالم الإسلامى يعرف أن المرء لا يستطيع أن يتوقع بدقة عدد من سيأتيه من ضيوف على مائدة العشاء فمن المحتمل أن يتخلف عدد

غير قليل من المدعوين عن الحضور ، بعد أن يكونوا قد أكدوا أنهم سيحضرون . ومن المحتمل أيضا أن يحضر عدد من الضيوف يزيد كثيرا عن عدد الذين وجهت إليهم الدعوة مما قد يسبب حرجا للمضيف و للضيوف على السواء .

بسبب مثل هذه المواقف ، التى تساهم فى إظهار العربى فى صورة المهمل ، كنا نتجنب بقدر المستطاع توجيه دعوة إلى تناول طعام العشاء جلوسا حول منضدة ، وفق ترتيب معين إلى نحو ٢٤ شخصا . وبدلا من ذلك ، كنا نفضل أن ندعو إلى تناول طعام العشاء فى بوفيه مفتوح يصل إلى ٨٥ مدعوا ينتشرون على كثير من المناضد صغيرة الحجم موزعة بدون ترتيب تقريبا .

لذلك ، يعزى تخلف ضيف عربى عن تلبية دعوة إلى تناول طعام العشاء ، على الرغم من التأكيد المسبق بالحضور ، إلى أسباب كثيرة غير العقبات المرتبطة بالعمل . ومن ذلك على سبيل المثال أن يكون قد استقبل ضيوفا على نحو مفاجئ ، أو أن تصر زوجته على أن ليس لديها ما ترتديه من الثياب . إلا أن ما أصابنى بدهشة ألجمت لسانى ، كان اعتذار ضيف شرف مغربى عن عدم حضور حفل عشاء أقمته على شرفه ، لأنه لم يكن يشعر بجوع . وكان هذا فيما أعتقد أصدق أسباب الاعتذار .

ولقد كنت أنا وزوجتى نلبى جميع الدعوات التى توجه إلينا ، سواء أكانت دعوة من وزير أم من سائق سيارتى ، أم دعوة من أميرة أم من خادمتنا . وهكذا أوصى الرسول ﷺ الذى كان يلبى حتى دعوات العبيد ، ولم يجز رفض الدعوة إلا لسببين ، وهما أن تؤدى الدعوة إلى استدانة الداعى ، أو أن تكون لغرض التفاخر والمباهاة . ولذلك ، لم أشعر بحرج لرفض دعوات كثيرة وجهت لى لحضورحفلات زفاف ، لعلمى أن والد العروس يبغى المباهاة بحضورى كسفير .

* * *

ومثلما ينظم الإسلام نواحى الحياة كافة ، فإنه كذلك ينظم آداب الطعام ، وهى مانسميه « إتيكيت »[٣٦] . والكثير من هذه الآداب مألوف لنا ، لأنها آداب معروفة على نطاق العالم كله ، بينما بعضها الآخر خاص بالمسلمين وحدهم ، اهتداءً بسلوكيات أتاها الرسول ﷺ فعلا ، أو تنفيذا لتوصيات أوصى بها .

ففى بعض البيوت العربية ، يستقبل الضيف بالتمور ، ويساعده المضيف على خلع معطفه ، ولا يتخذ مكانه فى صدارة المجلس ما لم يصر المضيف على ذلك . وقبل تقديم

الطعام، يتيح المضيف لضيوفه أن يغسلوا أيـديهم ، لأن المرء فى نهاية الأمر يأكل بيده . ويحول بعض المضيفين ، وبصفة خاصة فى المغرب ، الأمر إلى طقوس جميلة ، حيث يلتف الجميع حول حـوض عليه صابون ، بينها يصب الماء للضيـوف شخص غالبا مـا يكون هو المضيف نفسه . ويتكرر ذلك مرة أخرى بعـد أن ينتهى الضيوف من تناول الطعام . ويقوم المضيف بتعطير يدى الضيف عند انصرافه بماء الورد أو ماء البرتقال .

وينظف بعض المسلمين أسنـانهم بالسواك ، بعد الانتهاء من تنـاول الطعام . والسواك غصن صغير (سمكه حوالى ١٥ مم) من خشب لين تماما . ولدى أنا أيضا سواك حصلت عليه فى المدينة المنورة . ويمتاز بأن استخدامه لا يحتاج إلى ماء ولا إلى معجون أسنان .

لكى يستطيع المرء أن يتناول طعامه بيده ، يجرى تجزئة الطعام إلى قطع صغيرة تغنى عن الحاجة إلى السكين . ومع ذلـك ، تقدم اليوم أدوات المائدة كاملـة ، ولا يقتصر الأمر على تقديـم ملعقة الحسـاء فقط . ولا تسمـح التقاليد بـاستخدام أدوات مـائدة مصنوعـة من الفضة ، لا لكـونها من مادة صنـع النقود فحسب ، وإنما لأن أدوات المائدة الفضيـة ترف غير إسلامى بالنسبة لهم . (وهو ما ينبغى أن يـذكر به المرء بصفة دورية فى مقار السفارات الإسلامية) .

* * *

عندمـا يقدم الطعام ، يأكـل المرء مما يليه مبـاشرة من لحم أو حلوى أو فاكهـة . ويهتم المضيف والجالسـون بجوار المرء عادة بـأن يجد بطبقه كل مـا لذ وطاب . وكثيرا مـا يملأ لى البعـض طبقى بما لـذ وطـاب ، دون اكتراث بمعارضتـى الشـديدة . ويخدم المرء نفسـه ، ويأكل بثلاثة من أصابع يده اليمنى ، هى الإبهام والسبابة والوسطى ، لأن الأكل بإصبعين أمر عسير جدا ، والأكـل بكل أصابع اليـد نهم مستهجن . وإذا لم يستسغ المرء نوعـا من الطعام فلـه أن يتركه جانبا ولا يـأكل منه ، وكـان محمد ﷺ نفسه يفعل ذلـك ، إذ كان لا يستسيغ الطعام الذى يحتوى على كثير من الثوم . ومن ناحيتى ، فإننى للأسف لا أستسيغ طعم الكمون . ومرد الأسف هنا أن لهذا الصنف من التوابل دورا كبيرا فى الشرق كله .

من اليسير على المرء أن يترك صنفـا من الطعـام دون أن يتناولـه ، عندمـا تقدم الـوجبة بأكملها ـ من المشهيات إلى الحلو ـ دفعة واحدة . ولقد خبرت ذلك ، عندما دعانى الشيخ زايد آل نهيان إلى تنـاول طعام الغداء معه ، حيـث كانت المائدة تبدو وكـأنها تقوست تحت تأثير ثقل ما تحمل من طعام . وهو نفس ما حدث عندما كنت ضيفا على طعام الغداء يوم

عيد الأضحى ، على مائدة الملك فهد بمنى كما سلفت الإشارة . ومن طبيعتى أن أفقد شهيتى للطعام تماما عندما أرى أمامى ثمار الموز أو الحلوى (تورتة بالكريمة) بجوار كبد مشوى أو دجاجة محشوة بالنقل (المكسرات) وريش ضأن مشوى . لذلك ، لم أتناول فى منى سوى بضع تمرات وقطعة خبز وثمرة موز ، وانحنيت نحو الملك المضيف وانصرفت .

وتبعا لآداب الطعام عندنا فى الغرب ، يعد الانصراف فور الانتهاء من تناول الطعام إهانة بالغة ، حيث إننا نشأنا منذ الطفولة على ألا ننصرف من حول مائدة الطعام قبل أن يأذن لنا الأم والأب . ولكن الأمر يختلف تماما حسب الإتيكيت الإسلامى ، حيث يبدأ المضيف المسلم تناول الطعام (قبل ضيوفه ليثبت لهم سلامة الطعام وعدم خطورته) وآخر من يتوقف عن تناوله . وهكذا يبقى المضيف ، حتى وإن كان ملكا ، آخر من يجلس بمفرده إلى مائدته . ومن ثم ، فقد كان سلوكى سليما [٣٧] .

وربما يستطيع المرء أن يعترض بأننى كنت أستطيع على الأقل أن أجرى فى منى حوارا طيبا حول مائدة الغداء دون أن أتناول كثيرا من الطعام . حسنا ! ولكن هذا ليس من الإسلام فى شىء . فالمرء كضيف فى بيت مسلم يستفيض فى تجاذب أطراف الحديث قبل تناول الطعام ، ويتحدث قليلا جدا أثناء تناوله ، وينصرف بعد الانتهاء منه بقليل . ومن شأن هذا النظام أن يعطى للمضيف فرصة لتحديد طول الفترة التى يبقى فيها ضيوفه عنده .

إذا كنت قد تحدثت عن موائد عامرة بأصناف وكميات الطعام ، حتى لتكاد تتقوس من ثقله ، فإننى لم أقصد بذلك أن الإسراف ، وفى المقام الأول إلقاء الطعام فى إناء الفضلات ، يمكن أن يكون سلوكا إسلاميا . بل إنه على العكس من ذلك تماما . فالمضيفون المسلمون من دبى حتى مراكش يعتبرون أن من واجبهم إكرام الضيف وتدليله . وعلى أى حال ، فهناك ، خلف الكواليس ، جيش كامل من العاملين ومن الفقراء مستعد لتلقى ما يتبقى من الطعام .

تمثل الحفاوة البالغة بالضيف فى الشرق مشكلة لمن يزوره من الرسميين الألمان ، لأن اللوائح المالية لجمهورية ألمانيا الاتحادية الغنية لا تسمح لممثليها ـ سواء أكان رئيسا اتحاديا أم وزيرا أم مندوبا ـ أن يرد المعاملة بالمثل . ولا يعود ذلك فقط إلى رقابة ديوان المحاسبات الاتحادى علينا ، وإنما هو أيضا نتاج لعملية وئيدة الخطى للتحول إلى أقاليم ، ولإشاعة البيروقراطية ، وللفرز البروليتارى على نحو أفقدنا القدرة على أن نحتفل وأن نستضيف بكرم وحفاوة وأناقة .

ولقد قدم المغرب الفقير ، باستضافته مندوبى عالم المال بأكمله فى مؤتمر الجات بمراكش فى إبريل عام ١٩٩٤ ، المثل على مدى أهمية كرم الضيافة فى التقاليد الإسلامية . ولقد انصرف بعض المندوبين الغربيين ، يسيطر عليهم شعور بالخزى ، من ضيافة الأمير محمد ولى العهد الذى استضافهم استضافة ملوك فى خيمة تغطى أرضيتها بُسُطٌ فاخرة، قدمت لهم أثناءها ألعاب نارية .

* * *

بعد وصف الكيفية التى يجرى بها تناول الطعام فى العالم الإسلامى ، يأتى الآن عرض للأطعمة التى يتناولها الناس هناك . والمطبخ الإسلامى ، مثله مثل الفن الإسلامى ، يتعرف عليه المرء للوهلة الأولى على الرغم من تنوعه الشديد . ويرجع هذا التنوع الشديد إلى أن كل مجموعة قومية ، من موريتانيا حتى بلوخستان ، لها وجباتها القومية الخاصة بها ، والتى تساهم بها فى هذا المطبخ . وفى موسم الحج ، تتحول مكة إلى بوتقة يتحقق فيها انصهار مثالى لمطبخ إسلامى . ويتمثل القاسم المشترك فى هذا المطبخ فى سيطرة المطبخ التركى الذى يعد ، إلى جانب المطبخين الصينى والفرنسى ، أحد أشهر وأشهى ثلاثة مطابخ فى العالم . ويمكن للمرء فى الواقع أن يحدد درجة تأثر المطابخ القومية المختلفة ، كالمطبخ المصرى والسورى واللبنانى ، بالمطبخ التركى .

تشترك كل هذه المطابخ فى كونها مثالا جيدا للعادة التركية المتمثلة فى بدء تناول الطعام بتناول عدد لا حصر له من « المشهيات» (المزة) سهلة الهضم ، الباردة أو الدافئة ، كالخضراوات ، والسلاطة ، والفواكه ، والبطيخ ، والكبد ، والمخ ، والزبادى ، وورق العنب المحشو ، وفاصوليا حمراء ، وسلاطة خيار . . . إلخ . ولقد تبينت زوجتى أثناء جمعها وصفات (الأطعمة كثيفة العمل اليدوى) أن المشهيات تزيد على الوجبات الرئيسية فى العالم الإسلامى بصفة عامة [٣٨] .

لقد جرت العادة فى بلاط الخلفاء والسلاطين والأمراء أن يقدم الطعام فى تتابع يأتى الحساء فى نهايته ، ويجرى تناول قدح من شربات الفواكه بين الوجبات الرئيسية المكونة من السمك واللحم [٣٩] . ولكن الأمر يختلف عن ذلك فى العالم العربى اليوم ، إذ يهاجم المرء الضيف بأطباق متوالية من اللحم ظنا من المضيف أن طعامه يخلو عادة من اللحم .

يعلم الجميع أن الإسلام ليس دينا نباتيا . ولكن ربما لا يعلم إلا القليلون أنه محرم على المسلمين أن يأكلوا لحم الحيوانات التى لم تذبح وفق الشريعة الإسلامية . ولقد ثبت بالدليل

القاطع أن الحيوانات لا تتألم إذا ما ذبحت وفق كل من الشريعة الإسلامية والشريعة اليهودية أكثر مما تتألم عندما تقتل صعقا بالكهرباء، أو رميا بالرصاص، أو خنقا بالغاز، كما هو الحال فى الغرب الذى يتصور أن أساليبه أكثر إنسانية. فوفقا للشريعة الإسلامية يذبح الحيوان راقدا وبسكين حاد جدا. ولتجنيب الحيوان الإحساس بآلام نفسية، لا بد من أن يغذى تغذية جيدة إلى أن يحين موعد ذبحه، وألا يتعرض لمشاهدة حيوان آخر وهو يذبح، وألا يشاهد حتى السكين وهو يُشحذ. بل إن من آداب الذبح فى الإسلام، أن يخفى الجزار السكين خلف ظهره، وهو مقبل على الحيوان لذبحه. والجزار المدرب يقطع الحلق والمرىء وشرايين الرقبة بضربة سكين واحدة، حتى يغيب الحيوان عن الوعى مرة واحدة، فينزف دمه تماما، ويسلم الروح بدون ألم(٤٠).

وبالنظر إلى كل ذلك، يُسمح للجماعة اليهودية بألمانيا أن تَذْبح ذبائحها وفق الشريعة اليهودية، بينما يمنع المسلمون من هذا الحق، وهو أمر يدعو إلى السخرية. وفى شأن ذلك، يقول القرآن ﴿ . . . **فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم**﴾ (سورة الأنعام: الآية ١٤٥) . وتستنتج السلطات الألمانية من ذلك نتيجة « منطقية »، مؤداها أنها إذا منعت المسلمين من أن يذبحوا ذبائحهم وفق شريعتهم ، فسوف يضطرون إلى أكل لحوم حيوانات لم تذبح وفقا لها . ولكن هذا التصور ينطوى على خطأ فادح فى الحساب ، لأن اضطرار المسلم الذى ورد ذكره فى القرآن ينطوى على محاولته دره خطر موت يتهدده جوعا . ومن ثم ، فالمسلم فى ألمانيا مضطر إما إلى الاستغناء عن اللحوم بالأطعمة النباتية ، وإما إلى شراء اللحم من الجزارين اليهود .

يحذر القرآن من تحريم ما أحله الله للناس من طعام : ﴿ **قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين ءامنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة كذلك نُفصِّل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ (سورة الأعراف ـ الآية ٣٢) . ومن ثم ، فإنه يحث على تناول مواد غذائية بعينها ، كاللبن والتمر والزيوت النباتية والأعناب والعسل الذى وصفه بأنه دواء ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾ (سورة النحل ـ الآية ٦٩) . ولذلك يضعه المرء فى جميع الحلويات تقريبا فى العالم الإسلامى ، كالبقلاوة على سبيل المثال .

يمكننى أن أذكر على وجه السرعة وجباتى المفضلة فى العالم الإسلامى . ففى المناطق الحارة ، يحتاج المرء إلى تناول الكثير من المشروبات التى تصل كمياتها إلى ٧لترات يوميا ، وبصفة خاصة إذا كان المرء يعيش منذ عشرين عاما بإحدى كليتيه فقط . لذلك ، فإن أول ما يخطر ببالى من المشروبات هو اللبن باللوز ، والقرفة ، والزنجبيل ، والقهوة التركى ،

والشاى بالنعناع ، والقهوة التى تقدم فى أبهاء فنادق المشرق العربى كافة والتى يشعر المرء بأنه استعاد حيويته من جديد بعد أن يحتسى ثلاثة أقداح منها .

فى أول زيارة لنا إلى مكة ، فى عام ١٩٨٢ ، طلبنا فى أحد المطاعم إبريقا من القهوة ، كما هى العادة فى ألمانيا عند ما يتناول مجموعة من الأصدقاء القهوة معا . وكلما كرر النادل السؤال أكثر من مرة عن طلبنا بهدف التأكد ، أرجعنا ذلك إلى مشكلات وصعوبات تتعلق باللغة . . وأخيرا ، أحضر لنا طائعا إبريقا يمنيا تقليديا مملوءا بالقهوة العربية . لكننا لم نتمكن ، بطبيعة الحال ، من احتساء كل ما به كاملا ، إذ شعرنا أن ضربات القلب راحت تتسارع بعد احتساء ما يعادل نصف قدح من الحجم الألمانى .

كنا على موعد مع القدر ، عندما أتيح لنا أن نشهد طقوس إعداد الشاى الأخضر بأوراق النعناع فى ضاحية النخيل بواحة العطوف فى جنوبى الجزائر . وكنت قد ألقيت فى عام ١٩٨٩ محاضرة فى واحة بنى عِزجون المجاورة ، حول عشر نقاط فى العالم الإسلامى لا تروق لى ، وبعدها قضيت ليلتى وحيدا فى كوخ وسط عدد من أشجار النخيل . وفى الصباح ، حضر مضيفى حاملا معه طعام الإفطار وعددا من الأقداح والعلب . وغسل الإبريق بماء ساخن ، ثم غسل الشاى بماء ساخن داخل الإبريق ، وتخلص بعد ذلك من الماء ثم أضاف أوراق النعناع والكثير من السكر والماء المغلى إلى الشاى . وراح بعد ذلك يصب الشاى فى الأقداح من ارتفاع قدره حوالى نصف متر ، دون أن تهدر نقطة واحدة منه ولا أعتقد أن هناك طريقة أمتع من ذلك ليبدأ بها المرء صباح يوم جديد .

من بين أطعمة المسلمين التى أفضلها : الباذنجان المحشو والمقلى ، وسلاطة الجبن الفرنسى ، والدجاج المحشو بالمكسرات ، وريش الضأن ، والحمص ، والكباب ، والأرز الشرقى وبخاصة الباكستانى (الذى يحتوى على كثير من القرفة والزبيب) ، والتبولة ، والكسكسى الحلو ، والعاشوراء ، والمهلبية ، وأم على .

فى ختام هذا الفصل ، أريد أن أقص عليكم إحدى النوادر التى ترتب عليها أننا تناولنا وجبة طعام بالمجان . ففى عيد الميلاد عام ١٩٨٢ ، كنا نقيم فى فندق شيراتون المدينة الذى يقع فى المنطقة المسموح لغير المسلمين بارتيادها ، ومن ثم يقيم به رجال أعمال غربيون . ولذلك كان « جرسونات » الفندق الباكستانيون يعاملوننا على أننا رجال أعمال ، وليس كمعتمرين . فكانت تحيتهم الودودة لنا ونحن فى الطريق إلى تناول طعام الغداء « عيد ميلاد

سعيد» . وكنت أرد عليهم التحية بود مماثـل ، قائلا : « شكـرا جزيلا ، وبـالمناسبـة نحن مسلمون والحمد للـه» . وكاد يغشى على هؤلاء العمال الأجانـب المساكين ، خشية أن يجرى ترحيلهم إلى وطنهم .

وما لبـث مدير الفندق أن حضر بعـد دقائق معدودة ، ليعتـذر لنا رسميـا عن الإهـانة البالغة التـى لحقت بنا من بعـض العاملين لديه ، وراح يـرجونا أن نقبل تنـاول الطعام على نفقة الفندق كتعويض بسيـط لنا عن هذه الإهانة . ولم يقتنع بإلحاحنـا فى التأكيد أكثر من مرة أننا لم نشعر أننا تعرضنا للإهانـة . فالمسيح يحظى عندنا فى الإسلام بذات الاحترام الذى يحظى بـه جميع الرسل والأنبيـاء . ولقد تبين لنا من هـذه الواقعة أن معرفـة بعض المسلمين بالمسيحية مشوهة ، كما هو الحال فى معرفة بعض المسيحيين بالعهد القديم .

الفصل السابع

قدريون طموحون

لا يفتح بعض القراء الغربيين كتابا عن الإسلام إلا بعد أن يبحثوا في فهرست المحتويات عن كلمات مثل « قسمة » و«قدر» و«حسد » و « الحرب المقدسة » . وأنا لا أريد أن أخيب ظنونهم .

وكلمة « كسمت» المنتشرة في اللغة التركية (يقابلها في العربية قسمة) بمعنى النصيب أو القدر يعرفها المرء ، في ألمانيا ، إن لم يكن من العمال الأتراك ، فمن كارل ماي . والأصل العربي لهذه الكلمة هو فعل « قَسّم» أي وزع أو قسم أقدار كل منا . ويفضل المرء في العالم العربي التعبير عن هذا المعنى باستخدام لفظ أو كلمة «مكتوب»، وأصلها فعل كتب . وهي تعني أن قدر كل إنسان « مدون » في كتاب كبير على غرار القرآن (اللوح المحفوظ) . وسواء أكان « مقسوما » أو « مكتوبا » ، فإن كل المسلمين على اقتناع بأنه ما من شيء يقع دون معرفة أو علم مسبق من الله العليم بكل شيء .

يقر كثير من المسيحيين أيضا بذلك ، ولكنهم لا يحبون مع ذلك أن يعترفوا بالنتيجة الحتمية التي لا بد من أن تترتب عليه ، وهي أن ما نفترض أنها إرادة حرة لا يمكن إلا بالكاد وصفها بأنها «حرة » . وأنا أعرف أن كثيرين من الفلاسفة المسلمين فكروا كثيرا في القدر وحرية الإرادة [41] (أي ما إذا كان الإنسان مخيرا أم مسيرا) . ومن ثم ، فليس هناك من حرج في أن نقر بعجزنا عن إدراك الكيفية التي يثيب الله العادل أو يعاقب بها الناس على أفعالهم ، التي كان بمقدور الله العليم الرحيم القادر أن يمنعها . وبالمثل ، فإنه قليلا ما يقبل عقلنا أنه كان بمقدور البشر أن يحركوا سلسلة أصلية من الأسباب . ومن الأفضل أن نتبع نصيحة الرسول ﷺ إذا كنا لا نريد أن نحطم رءوسنا بالتفكير في مثل هذه الأمور ، إذ إنه يمكن حقا أن يؤدي التفكير فيها إلى تحطيم رءوسنا دون جدوى .

* * *

لقد صادفت فى حياتى كثيرا من الأحداث المذهلة التى يمكن للمرء أن يلصق عليها بطاقة « قسمة » ، والتى تجعلنى وغيرى من المسلمين نشعر بالسكينة والطمأنينة ، لأن الله القادر العليم يرعانا فى السراء والضراء على السواء :

عام ١٩٤٤ :

أثناء الحرب الجوية الإستراتيجية فى الحرب العالمية الثانية ، كنت أعيش فى مدينتى أشافينبرج ، وكانت ذات حامية بها خمس كتائب من الجيش ، إلى جانب كونها نقطة التقاء للمواصلات ومنطقة صناعية . وابتداء من سبتمبر عام ١٩٤٠ ، راحت تتعرض لغارات جوية منتظمة تقريبا . وبعد أن انتزعتنى صفارات الإنذار من النوم أكثر من ٧٠٠ مرة ، قررت أن أنام ، مرتديا ملابسى ، فى مخبأ للحماية من الغارات الجوية . وكنت أذهب إلى المدرسة ، ومعى مئونة الطوارىء ، والقناع الواقى من الغازات . وفى أحد الأيام ، تعرضت مدرستى للقصف ، وأصيب المخبأ الخاص بتلاميذ فصلى .

وكنت قد قررت بالفعل ، عند سماع أولى صفارات الإنذار ، أن أنصرف !! ترى ما الذى كان يمكن أن يحدث ، لو أننى كنت فى المدرسة فى تلك الأثناء ؟!

ونظرا لعدم وجود مدرسة أذهب إليها ، عملت على أن يكون بقائى بالمنزل مفيدا ، فرحت أستمع باستمرار تقريبا إلى إذاعة « فيجارو » ، التى كانت القوات الجوية الألمانية توجهها . وكانت مدينة أشافينبرج بالنسبة لهم مربع الخريطة « ريتشارد تونى ١ » . وهكذا ، صرت أعرف على وجه الدقة ما إذا كان ضروريا حقا أن أذهب إلى المخبأ أم لا .

وفى يوم ٢١ من نوفمبر عام ١٩٤٤ ، فاجأتنى صفارة الإنذار ، عندما قام سرب مكون من ١٥٠ إلى ٢٠٠ قاذفة قنابل أمريكية بدك المدينة بما يزيد على ألف قنبلة متفجرة ، أتبعتها بقنابل حارقة . وترتب على ذلك تدمير المدينة وتحويلها إلى حطام بنسبة ٦٤٪ . فلقد لقى مئات من الناس حتفهم ، ودُمر تماما ١٩٠٠ منزل ، بينما أصيب ألف منزل آخر بخسائر فادحة . ودكت المنطقة الواقعة على بعد ١٢ مترا فقط خلف منزلنا بقنابل متتابعة الانفجار ، مع ما تتركه من حفر هائلة . ترى ماذا كان يمكن أن يحدث ، لو أن قاذف القنابل ضغط على الزر مبكرا بمقدار عُشْر ثانية . . ؟!

عام ١٩٤٥ :

كان هدير المدفعية فى منطقة الراين قد اعتادنا ، حتى تعوّدنا عليه وصار السكون يفزعنا . وكان رجال باتون يحاصرون مدينة أشافينبرج بعد ساعات معدودة من عبورهم الراين . وكان باستطاعتهم أن يدخلوا المدينة بسهولة ويسر ، لولا أنهم تركوا أنفسهم فريسة للخوف من بعض أفراد المقاومة الشعبية المتقدمين فى العمر ، ومن بينهم أبى ، وبعض أفراد شبيبة هتلر ، وبعض أفراد مخابرات النازى المغالين فى إخلاصهم لزعيمهم . ورد الأمريكان على هذه المقاومة بحرب مادية بلا حدود .

ولما كان منزلنا يقع على الجبهة مباشرة ، فقد فررنا منه إلى «المجهول» . وأمضينا ، ومعنا كثيرون من جيراننا ، ١١ يوما وليلة فى قبو عميق للبيرة يتبع بستانا يحمل اسما مثبطا هو « الهجوم الأخير » . وكانت أمى تطهو فى منزلنا كل ليلة ملء إناء كبير من حساء الفاصوليا ، لأحمله دون أن تهدر منه قطرة واحدة إلى القبو ، تحت نيران قذائف المدفعية المتقطعة .

وكنت فى طريقى ، ذهابا وإيابا ، أتحدث مع جندى وحيد ، حفر خندقا بالقرب من منزلنا ليحتمى به مع مدرعته . وبينما كنت أمر بهذا الخندق ذات ليلة ، تبين لى أنه قد تحول إلى حفرة قنابل ، وأن الجندى قد لقى حتفه من جراء قصف موقعه بقنبلة زنتها ربع طن ، ألقت بها طائرة حربية من طراز ثاندربولت .[٤٢] ترى ماذا كان سيحدث ، لو أننى كنت قد توقفت لأتحدث معه فترة أطول ؟!

عام ١٩٥٠

فى ليلة عيد الميلاد ، تخلفت بسبب عاصفة ثلجية عن القطار الذى كان سيقلنى من شينيكتادى بولاية نيويورك إلى مدينة نيويورك . وما كان لى أن أصل به حتى لو لم يحدث ذلك ، لأنه أصيب إصابة بالغة بصاعقة برق .

عام ١٩٥١ :

تحدثت فى موضع سابق من هذا الكتاب عن حادثة السيارة التى وقعت فى مسيسيبى والتى ما كان لى - من وجهة نظر الجراح - أن أنجو منها أصلا . وبعد أن أصبحت مؤهلا للسفر مرة أخرى ، بعد هذا الحادث ، سافرت بالقطار من ممفيس بولاية تنيسى إلى

واشنطون العاصمة ، وكنت أثناء رحلة القطار : أنكبُّ على القراءة تارة ، وأومئ برأسي إلى الأمام تارة أخرى ، وأتطلع عبر النافذة أحيانا . وذات مرة ، بينما كنت أشرع في التطلع عبر النافذة ، اخترقت « مصادفة » رصاصة طائشة ، أطلقت من بندقية صغيرة ، زجاج النافذة ، ومرقت على مسافة تقل عن بضعة سنتيمترات منى !! ترى ماذا كان سيحدث ، لو أننى كنت منكبًّا على القراءة حينذاك ؟!

عام ١٩٥٤ :

عندما كنت «مصادفة »بمبنى سيمينار القانونيين ، عند باب النصر بمدينة ميونيخ ، فى أحد أيام الأربعاء ، رأيت إحدى السكرتيرات تلصق إعلانا على الباب ، يشير إلى أن الأستاذ رودولف بوهلا ، أستاذ كرسى إجراءات القانون المدنى الجديد ، سوف يفتتح حلقة دراسية(سيمينارا) للإجراءات المدنية ، يشترط لحضورها الحصول على شهادة تدريب فى إجراءات القانون المدنى بدرجة « جيد » ، على أن تقدم طلبات الالتحاق أيام الأربعاء ، من الساعة الثانية إلى الساعة الثالثة بعد الظهر .

ولقد كنت حاصلا على شهادة وحيدة بدرجة « جيد » ، وكانت « مصادفة » فى إجراءات القانون المدنى . وبالنظر إلى ساعتى ، تبينت أن الوقت كان قد تجاوز الساعةالثانية بقليل . ومن ثم ، لم أكن الطالب الأول الذى يتعرف عليه الأستاذ بوهلا فى ميونيخ فحسب ، وإنما صرت مساعدا معاونا له أيضا ، كما صرت فيما بعد مساعدا (معيدا) أساسيا .

وبطبيعة الحال ، كان لا بد من أن أعد رسالتى لنيل درجة الدكتوراه فى أحد موضوعات الإجراءات المدنية . وترتب على ذلك ، حصولى على منحة بحثية من مدرسة هارفارد للحقوق بمدينة كمبردج بولاية ماساتشوستس ، حيث حصلت منها على درجة الماجستير . ترى لو لم أذهب مصادفة إلى مبنى سيمينار القانونيين ذاك الأربعاء ، ماذا كان سيحدث ؟ !

عام ١٩٥٥ :

حضر امتحانى الشفهى «مصادفة » أبو علم قانون الإجراءات المدنية الألمانى ، الأستاذ ليو روزينبرج . ولكونى معيدا فى هذا التخصص ، استطعت بطبيعة الحال أن

أعرِّف ، أفضل من الدارسين الأربعة الآخرين الذين يؤدون الامتحان معى ، ماهية الحكم الغيابى ، ومدى أهمية مفهوم موضوع النزاع فيما يختص بتغيير موضوع الشكوى ، وبقوة القانون ، وبالتقادم . وكان من نتيجة ذلك ، أن سمح لى ، وأنا الموظف تحت التمرين من خارج ميونيخ ، على سبيل الاستثناء أن أبقى بها .

عام ١٩٥٩ :

تلقيت فى إحدى عطلات نهاية الأسبوع دعوة من زملاء بمدرسة هارفارد للحقوق ، لحضور حفل يقام فى مكان قريب من مسكنى . وأبلغونى أننى سأعثر عليه بعد مجمَّعين فقط من المبانى السكنية ، فى اتجاه ميدان هارفارد ، على مقربة من طريق ماساتشوستس . ولقد كان من اليسير التعرف على المبنى ؛ فهو مبنى كبير أبيض يشبه الفيل من حيث الضخامة .

وبالفعل ، كانت أصوات حفل تنطلق من مبنى رأيته أشبه بالفيل فى ضخامته . ولكننى ما لبثت أن تبينت أننى فى حفل آخر غير الذى دعيت إليه . ولم يتركنى أحد أغادر الحفل ، بدعوى أنه لا يوجد على الإطلاق ما يمكن أن يسمى « حفلا خطأ » . وقيل لى : « ابْقَ ، واحتفل معنا» !

ولقد كانوا على حق ! فهناك قابلت إليزابيث آن جريفيث ، التى تزوجتها بعد ذلك بستة أشهر . هل لو كنت قد ذهبت إلى الحفل الذى دعيت إليه أصلا ، كان سيصبح لى اليوم ابن أمريكى ؟!

أعوام ١٩٦٠ ـ ١٩٦٥ :

كنت مرتبطا حقا بالجزائر بعلاقة قدرية ، على نحو غريب متكرر ، كما سبق أن أشرت فى فصل « دروب فلسفية إلى الإسلام » .

فبراير عام ١٩٧٦ :

فى التاسع والعشرين من يناير ، عرضت إيفا كامبيانو ، بمصاحبة رباعى إدوارد ميلكوس ، باليه عصر النهضة فى مسرح ألبرتينا بفينا . ولقد دُفعَت بلبين أوتس ـ العازفة التركية فى مرحلة الامتياز ، بالمعهد العالى للموسيقى والفنون التشكيلية ـ إلى

مشاهدة العرض على الرغم منها . فلم يكن لديها رغبة فى ذلك على الإطلاق ، (ولذلك جاءت متأخرة) . ولقد أرغمت أنا أيضا على مشاهدة العرض من جانب كورت بيترز الصحفى الكولونى . وبدورى ، لم يكن لدى على الإطلاق رغبة فى مشاهدته ، (ولم أكتب نقدا حوله) . وبعد عام واحد من العرض ، تزوجنا . . بلبين وأنا !! فماذا كان سيحدث لو لم يذهب أى منا لمشاهدة هذا العرض ؟ !

مارس عام ١٩٧٦ :

على الرغم من أن الحياة فى فينا تعجبنى ، ومن أن محادثات حلف شمالى الأطلنطى وحلف وارسو حول إزالة الأسلحة من أوربا الوسطى كانت تمثل لى يوميا جولة جديدة مثيرة فى لعبة الشطرنج ، فقد طلبت نقلى بعد ثلاث سنوات ونصف من العمل فيها . وفى يناير من عام ١٩٧٦ ، عرض علىّ مدير شئون العاملين بوزارة الخارجية منصب السفير فى جدة . وكان ذلك قبل الفورة النفطية منصبا شاقا جدا ، حيث لم يكن هناك طبيب أسنان بعد . وكانت زوجتى الأمريكية قد توفيت فى العام السابق . . فهل كان بوسعى كأعزب أن أحتمل الحياة هناك ؟ ولأننى أشعر بخوف شديد أمام الواجب ، فقد قبلت المهمة .

أجريت لى فى ذات اليوم اختبارات تحمُّل مناخ المناطق الحارة ، واتصلت بسلفى فى المنصب ، ودرست ملف البلد ، واشتريت ملابس ملائمة لطقس المناطق الحارة . وبعد ١٤ يوما ، أوصى مكتب الخدمات الصحية بوزارة الخارجية ، استنادا إلى نتائج التحاليل المعملية ، بإجراء تحليل لبولى ، نظرا لوجود كرات دم بيضاء به .

ولو أننى كنت أعير أمر صحتى قدرا أكبر من الاهتمام ، لكنت قد أدركت أن جميع اختبارات قدرتى على تحمل مناخ المناطق الحارة ستؤدى إلى نفس النتيجة ، دون التوصية بإجراء المزيد من الاختبارات . وعندما ذهبت إلى العيادة الخارجية لمستشفى فينا الجامعى ٢ ، لأطلب إجراء الاختبار بسرعة ، إذ ينبغى أن « أرحل إلى جدة على عجل » ، التقيت «مصادفة» بإخصائى الكلى ، دكتور بول شميت دينست ، الذى لم يكن على الإطلاق فى عجلة من أمره ، فراح يجرى لى فحوصا أكثر تعقيدا . وبعد أسبوع ، أجريت لى يوم ٢٣ من مارس جراحة لاستئصال الكلى اليسرى ، بسبب إصابتها بورم سرطانى من نوع خطير ، لدرجة أننى ما كنت لأبقى على قيد الحياة عاما آخر ما لم تجر الجراحة .

بعدنصف عام من مباشرة عملي - في بلجراد وليس في جدة - عدت إلى فينا لإجراء فحص للمتابعة . وكانت نتيجة تحليل البول مذهلة ، إذ كان ما يزال في البول كرات دم بيضاء ، وإن كان عددها قد انخفض إلى النصف . وتبين لنا أن الطبيب اكتشف الورم السرطاني استنادا إلى أعراض ليست من بين أعراضه على الإطلاق !!

ولولم أطلب نقلي من فينا ، لما عرض عليّ منصب في منطقة حارة . . . ولو لم أقبل هذا المنصب ، ما كنت ذهبت لإجراء الفحوص . . وما كنت التقيت بالإخصائي . . وما كنت كتبت هذا الكتاب !!

* * *

هذه الوقائع الدرامية ، والأقل منها في دراميتها ، لا تؤكد شيئا ، وإنما تبين كل شيء . فهي علميا ليست شيئا ، ولكنها على المستوى الشخصي كل شيء . إنها لا تؤكد شيئا ، لأنها وقائع شخصية جدا تعكس سلسلة من الأسباب والنتائج التي تدل على تدخل الله في تسيير الأحداث . فهل نعلم حقا أن «واقعة حظ» غير عادية» قسمة» تجلب لنا الحظ ، وأن «واقعة سوء حظ» غير عادية» قسمة» تجلب لنا سوء حظ حقيقيا؟!

بالمثل ، تبين لي الأحداث المشار إليها كل شيء . ففيها يكمن إحساسي الشخصي بالأمان ، بسبب رعاية الله لي . وربما يؤدي هذا الشعور إلى القدرية (أي الاستسلام للقدر) . ولكن لا ينبغي - ولن يحدث أيضا - أن يستطيع المسلم ، عندما يتبين له ذلك ، أن يدرك مشيئة الله في كل ما يقع له من أحداث مقبلة . ومن ثم ، فإنه يمكن أن يكون قدريا فقط في مواجهة حدث وقع بالفعل ، وبالتالي يجب أن يقبله ، وهو سيقبله ، دون أن يحلق شعره ، أو يلطم الخدود ويشق الجيوب ، كما يفعل البعض .

لا يعني هذا أن المسلم قدري فيما يختص بالمستقبل ، أو أنه يجوز له أن يتواكل في أمر من أموره . بل ينبغي عليه النقيض من ذلك : أن يكون عضوا نشطا في جماعة : **﴿ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾** (سورة آل عمران - الآية ١٠٤) . وكذا : **﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾** (سورة آل عمران - الآية ١١٤) . فهل هذه دعوة إلى القدرية ؟ !

إننا على معرفة تامة بهذه القضية ، من خلال نظرية « المادية التاريخية »و« المادية

الجدلية » لزمن الشيوعية الغابر . فوفقا لتعاليم ماركس - إنجلز ، التى كانت تتسم بالقدرية الشديدة ، يتحرك التاريخ وفق قوانين جدلية لا مفر منها إلى غايتها ، وهى مجتمع بلا طبقات . ومع ذلك ، لم يتوقف لينين ولا تروتسكى ولا ستالين ولا عناصر الصف الخامس عن العمل من أجل « بناء الشيوعية » .

لقد فسر رسول الإسلام ﷺ هذا الأمر فى صيغة بسيطة بقوله : « اعقلها وتوكل » ، أى أن على المرء أن يعقل ناقته وأن يترك ما بقى لله . ولقد تسلحت بهذا اليقين حينما كنت بالجزائر ، دون أن أتوهم للحظة واحدة أننى أستطيع بمسدس أن أطيل حياتى ولو لثانية واحدة إذا حان أجلى . وكنت دائما شديد الاقتناع بأن الرصاصة التى لم تصبنى، لم تكن تمثل خطرا بالنسبة لى أيا كانت درجة قربها منى .

أثناء عملى مديرا لمعلومات حلف شمالى الأطلنطى (١٩٨٣ - ١٩٨٧) ، عادت مسألة اتخاذ تدابير لحماية النفس تفرض نفسها من جديد ، عندما أخبرتنى مصادر وجهات مختلفة عديدة أنها تخشى أن ألقى المصير الذى لقيه زميلى السابق فون براونميل ، الذى راح ضحية عملية اغتيال . ولقد خبرت منذ ذلك الوقت كل الإجراءات المعروفة لحماية الشخصيات الرسمية ، بما يمكن أن يقترن بها من إجراءات روتينية ومن مضايقات . وكنت فيما مضى أشفق على من يُسمَّون « الشخصيات المهددة بالخطر » ، بسبب فقدانهم حرياتهم الشخصية . والآن ، ينبغى علىّ أن أمارس بنفسى « ألعاب سيرك الأمن » .

ونظرا لتحولى من استخدام مسدسى (والتر ٦٥ , ٧) إلى استخدام مسدس سيدات بسبب تطور وسائل العنف ، قام مدرب الرماية فى فرقة مقاومة الإرهاب البلجيكية بتدريبى على استخدام مسدس ٩ م (هيكلر وكوخ ٧ م ١٤) فى أوضاع مختلفة . . وقوفا ورقودا . . فى الليل وفى النهار . . باليد اليمنى وباليد اليسرى . . وبأنواع الذخائر كافة ، للدفاع عن النفس . وكان التركيز الضرورى فى وضع الرماية يستنزف قواى البدنية تماما .

كان يتحتم علىّ أن أنجز ، بالتوازى مع التدريب ، العمل الذهنى فيما يختص بتصور جميع السيناريوهات المحتملة لهجوم أتعرض له ، وردود الفعل السليمة لها . وفى حالات الضرورة ، يكون رد الفعل المؤكد : لا شىء . وكلما تحسنت النتائج التى أحققها فى الرماية وفى إصابتى للهدف ،كان يساورنى شك دائم فى جدوى كل هذا الجهد الذى أبذله . فهل يعنى هذا أننى قد أكون قدريا بالمعنى السلبى للكلمة ؟

* * *

لا يمكن للمرء أن يتحدث عن القدرية في العالم الإسلامي ، دون أن يتطرق الحديث إلى ظاهرة الحسد ، الذي لا يشك مسلم في وجوده . أما في الغرب ، فيفضل المرء أن يتحدث كطبيب عن تأثيرات «نفسية» ، وكـ « هيبي » عن « إشعاع خبيث » ، وكعالم نفساني عن «تنبؤات تتحقق ذاتيا » بحظ عاثر .

إننا نصادف بطبيعة الحال حالات ملموسة للحسد ، ومن الخطأ علميا أن نتعجل فنستنتج من ذلك أن الحسد مجرد وهم . ومن الخطأ أيضا أن نتصور أن المرء لا يلاحظ الحسد في مواضع أخرى ، لا لسبب إلا لأنه كفيف غير مبصر .

لقد شاهدت في تركيا ، على سبيل المثال ، طبقا غاية في الجمال وهو يتحطم فجأة في المطبخ ، أثناء زيارة إحدى القريبات ، دون أن يتعرض لأى تأثيرات خارجية . ولكننا لا نستبعد أن تكون هناك تأثيرات داخلية . فمن المحتمل أن يكون الطبق قد تحطم بفعل توترات داخلية في بنيته ، أو بسبب ذبذبات زائدة . ولكن ألم تُبد هذه القريبة ، المعروف عنها حسدها إعجابها الشديد بهذا الطبق الجميل ؟! ربما يكون قد فاتنا آنذاك أن نقول « ماشاء الله » (بمعنى أن الله قادر على حفظه) .

للأسف الشديد لم ينجح الإسلام بعد في فرض جوابه (رده) الصحيح على هذه المشكلة ، وهو اللجوء إلى الله ، في العالم الإسلامي . فما يزال كثير من المسلمين يلجئون علانية إلى السحر كعلاج ممكن ، بدلا من قراءتهم للمعوذتين في القرآن ، وبصفة خاصة سورة الفلق (السورة ١١٣) :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خَلَق * ومن شر غاسِق إذا وَقَب * ومن شر النَّفَّاثات في العُقَد * ومن شر حاسد إذا حَسَد ﴾ (٤٣) .

وما هو أسوأ من ذلك ، أن بعض المسلمين يلجئون إلى استخدام هذه السور في أعمال السحر ، وفي عمل التعاويذ (الأحجبة) ، حتى إن قول « ما شاء الله » المذكور في القرآن يستخدم على نحو مرتبط بالخرافات . ولا يستطيع المرء أن يتخيل إلى أى مدى تسعى بعض النساء المسلمات إلى أعمال السحر . ففي أسواق المدن المغربية ، مثل فاس ، يوجد كثير من المحلات التي تبيع فقط مستلزمات أعمال السحر : كالزيوت والعصائر ، وأنواع من البودرة ، وسحالي مجففة ، وحتى عرائس تستخدم في أعمال سحر لإيذاء بعض الناس ولإشعال الحب في قلوب آخرين . وتشتهر قبائل الريف بممارسة هذا الفن الأسود ، وإن لم تكن منفردة وحدها بذلك .

لم تكن زوجتي تستطيع ، ونحن في المغرب ، أن تمنع خدم المنزل من خلط بعض المواد وحرقها قبل وبعد الحفلات الموسيقية (كونشرتو الهارب) التي تعزف فيها زوجتي على الهارب . وكانوا يفعلون ذلك قبل الحفل لحماية يديها وآلتها الموسيقية من شر الحسد ، وبعد الحفل لحمايتها ﴿ من شر حاسد إذا حسد ﴾ . وكانوا يحرصون أشد الحرص على إخفاء هذه المواد عني .

إن من يريد التهكم على هذا السلوك ، عليه أن يثبت أن الناس في الغرب لا ينزعون إلى اللجوء إلى أعمال السحر ، بدءاً بقراءة الطالع والأبراج ، لمواجهة مشكلات حياتهم .

* * *

نخلص مما تقدم إلى أنه لا يجوز للمسلم أن يكون قدريا أو سلبيا وإلى أنه ينبغي عليه أن يسعى جاهدا من أجل الخير في هذا العالم . وهذا السعي ، هو أولى وأرقى معاني كلمة « جهاد » التي يهوى بعض أدعياء الاستشراق ترجمتها إلى « حرب مقدسة » !!

كانت هناك أيضا حروب دائمة باسم الإسلام للدفاع عنه ، تكتيكيا أو إستراتيجيا . وإلى يومنا هذا ، يستطيع رئيس دولة إسلامية أن يمني النفس بعمل الكثير لتلبية دعوة الجهاد . فعندما تتفاعل الأرواح على نحو آخر تزداد القدرة على التضحية ، خاصة وأن الشهداء الذين يسقطون في الكفاح في سبيل الإسلام مثواهم الجنة . ويعلم الجميع الإمكانية السياسية التي تكمن في هذه الحقيقة . ولقد حاول صدام حسين أن يستخدمها في حرب الخليج . بينما لا يدعو التلفزيون التركي من يلقى حتفه شهيدا إذا كان الأمر يتعلق بمن يقتل من أفراد حركة الانفصال الكردية ، مدنيا كان أم عسكريا .

إن أقل الناس قدرية ، وأكثرهم نشاطا في سلوكهم ، هم أتباع ما يسمى بالحركات الإسلامية ، مثل الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجزائر ، الذين ينشطون من أجل التمكين السياسي لإسلام راديكالي متشدد في أوطانهم . وتسعى الغالبية العظمى من المسلمين من الشباب ومن المثقفين ، ومن حملة الشهادات العلمية في العلوم الطبيعية ، بحماسة شديدة إلى تطبيق ما تنص عليه الآية ١٠٤ من سورة آل عمران ـ السالف ذكرها ـ تطبيقا صارما .

لقد عايشت ذلك بنفسي في الجزائر في الفترة من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٠ . ويبدأ الأمر غالبا بمحاولة أحد الأبناء ـ ليس بالضرورة الأكبر سنا ـ فرض تصوراته عن

الأخلاق الإسلامية على أسرته ، وإرغام شقيقاته على ارتداء الحجاب . ولذلك ، نادرا ما توجد بالمدارس فتيات لا يرتدين ملابس إسلامية . وحتى هؤلاء الأخيرات ينصحهن آباؤهن وأمهاتهن بارتداء الحجاب ، مجاراة للاتجاه العام السائد ، حتى تزداد فرصهن فى الزواج . وهكذا يتصاعد هذا الاتجاه فى الشارع وفى المدارس .

ولقد شاهدت مرة فى بوزاريه شابا يبصق أمام امرأة سافرة وهو يردد « أعوذ بالله » ، كما لو كانت شيطانا . وكذلك ، رفض الطلاب فجأة الإقامة مع الطالبات فى مبنى سكنى مشترك ، حتى وإن فصلت بينهما طوابق المبنى . كما رفضوا أيضا تناول الطعام معهن فى مطعم الجامعة ، دون فصل حاد بين الرجال والنساء .

ويأتى بعد ذلك ، من منطلق الجهاد ، إشاعة الفضيلة فى الحياة العامة . فالشاب المسلم يشعر فى كل مكان كما لو كان ما يزال فى عصر الجاهلية . ومن ثم ، فإنهم يرون أن واجبهم هو تحويل ما يرونه مجتمعات الجاهلية الجديدة إلى مجتمعات إسلامية عبر حرب أهلية يرونها مشروعة ، أو أن يهاجروا داخليا كما حدث فى عصر الرسول ﷺ .

ابتداء من عام ١٩٨٨ ، قام مسلمون حديثو العمر فى الجزائر بفصل أسلاك هوائيات (إريال) استقبال الإرسال التلفزيونى فى الأبنية الكبيرة لمنع الناس من مشاهدة برامج وأفلام فاضحة . وهم يطلقون على هذه الهوائيات اسم الهوائيات الشيطانية . وقام آخرون بتحطيم قوارير (زجاجات) الخمور فى البارات ، وبتمزيق لوحات فنية بمحال بيع التحف لتصويرها نساء غير محتشمات ، إذ يرتدين ثيابا خفيفة .

كان هؤلاء الشباب يتسمون بالجدية والمثالية فى تعاملهم مع الأمور . وكانوا يكافحون ، فى ظل ظروف تكتنفها مخاطر وتضحيات شخصية هائلة ، من أجل عالم أفضل يقوم على مبادئ الإسلام ، خال من الاستغلال ، ومن الفساد ، ومن الامتيازات ، ومن البذخ والترف ، ومن الدعارة والمخدرات . ولكنهم ارتكبوا خطأ وحيدا ، إذ خالفوا أمرا أصيلا وجوهريا فى الإسلام ، ألا وهو عدم الإكراه فى الدين ، كما جاء فى الآية ٢٥٦ من سورة البقرة : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبيَّن الرُّشدُ من الغىِّ فمن يكفرْ بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسك بالعُروة الوُثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ . ومن ثم ، فإنهم أحلوا النفاق العام محل القيم الأخلاقية العامة . ولقد وقعوا إلى جانب ذلك فيما وقع فيه بعض المتزمتين قبلهم ، إذ وحّدوا فى شخص واحد أشخاص المدّعى والقاضى ومنفذ الحكم ، فسلكوا بذلك مسلكا ثيوقراطيا ـ فاشيا .

لقد تجاهلوا أنه فى ظل كيان دولة منظم ، يصير الفرد مسئولا فقط فى حدود مسئوليته الشخصية عن الدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر . فالوالدان مسئولان عن ذلك فى أسرتهما ، والمدير فى مؤسسته ، ورئيس الجامعة فى جامعته ، ورئيس الدولة فى دولته .

لا يمثل هؤلاء المسلمون الإصلاحيون الشبان خطرا على أوربا ، وإنما على حكومات بلدانهم . لقد شاركت ، بناء على دعوة من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر ، فى مؤتمر عقد بالقاهرة فى الفترة من ١٩ إلى ٢١ من يناير عام ١٩٩٣ ، لمناقشة هذا الخطر على وجه التحديد . وكما هى العادة ، كان المشاركون هم وزراء الشئون الإسلامية ومفتى الديار فى كل الدول الإسلامية تقريبا ، أى من المؤسستين اللتين اغترب عنهما الشباب المسلم بقوة فى الآونة الأخيرة . ولقد نسى المنظمون أن يدعوا إلى المؤتمر ممثلين لهذا الشباب ، وخصوصا متحدثين عن الإخوان المسلمين . وبذلك ، صار المؤتمر جزءا من المشكلة ، بدلا من أن يكون أداة للمساعدة فى حلها .

وعلى الرغم من كل الانتقادات ، فإننى أتمنى لبعض المجتمعات فى الغرب شبابا قادرا على إحداث بعث أخلاقى (هل ينبغى أن أقول « تحول » ؟) مماثل لما حدث فى مجتمعات إسلامية ، ومستعدا للتضحية فى كفاح ضد حكم استبدادى فاسد .

الفصل الثامن

عن حب المال

ينطوى مثل تركى على ما يعنى أن الصداقة والمال لا ينسجمان ، مثلهما فى ذلك مثل الماء والزيت . فما هى إذن العلاقة بين الإيمان والمال ؟ هل ينسجمان ؟ نعم . . فضريبة الثروة والمال (الزكاة) فى الإسلام هى أحد أركانه الخمسة ، ومن ثم فإنها عبادة مفروضة(٤٤) .

ولعل المرء يلاحظ الذكر المتكافئ ، الوارد فى الآية ٢٧٧ من سورة البقرة : ﴿ **إن الذين ءامنواوعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وءاتَوُا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾ . فكما أن الصلاة تقضى على غرور الإنسان ، وكما أن الصوم يهذب النفس ويقاوم شهوات الإنسان ، فإن إخراج الزكاة يقهر بخله وشحه ، فضلا عن أنه يكبح التفاوت الهائل بين الدخول المادية للناس . لذلك ، تفرض الضريبة (الزكاة) بنسبة ٢,٥٪ على المال بعد مرور سنة .

ويندرج تحريم الربا فى الإسلام تحت الوسائل التى تحقق ذات الهدف ؛ إذ إنه يحول دون تراكم أو تكوين رءوس مال بدون جهد .

كثيرا ما يجد المرء أن الزكاة تترجم خطأ فى كتابات المستشرقين على أنها الصدقة أو «ضريبة الصدقة » (وهو ما ينطوى على تناقض) . فالصدقة يؤديها المسلم طواعية بإرادته الحرة تماما ، لأن الإسلام يحض على الإحسان . أما الزكاة فضريبة معلومة مفروضة ، يحق للدولة المسلمة أن تتلقاها ، بل وأن تجمعها حتى تستطيع أن تفى باحتياجات بعينها ، فصَّلها القرآن فى الآية ٦٠ من سورة التوبة : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبُهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليم حكيم** ﴾ . فالدولة المسلمة ، تتلقى أو تجمع الزكاة لإنفاقها على رعاية الفقراء والمساكين ، وحديثى العهد بالإسلام ، وعابرى السبيل ، والمدينين والمسجونين تنفيذا لعقوبة ، والإنفاق على أعمال الإدارة والدفاع ، ﴿ **وفى سبيل الله** ﴾ ، أى فى العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام والعمل على نشره .

الزكاة فى الإسلام ، الذى يرى نفسه دينا ودولة ، عنصر بناء حيوى . فحينما امتنعت بعض القبائل العربية عن أداء الزكاة ، بعد وفاة الرسول ﷺ ، حاربهم خليفته الأول أبو بكر على أنهم مرتدون .

ولكن ما هو إذن موقف المسلم فى الغرب من الزكاة ؟ هل يسقط عنه التكليف بأدائها ، لأنه يؤدى ضرائب عن أجره ودخله وثروته إلى دولة غير مسلمة ؟

طالما أن الدولة الغربية لا توجه أى « ضريبة كنسية » لخدمة طوائفها الإسلامية ، ومن ثم فإنها لا تحقق هدفا مهما من أهداف الزكاة فى الإسلام ، وهو إعلاء شأن الإسلام ونشره ، لذلك ، فلقد انتهيت إلى أن أؤدى زكاة إضافية إلى مؤسسات إسلامية أختارها ، وبصفة خاصة فى ألمانيا ، بحيث تكون حريصة كل الحرص على أن تنفق المال فى مصارفه المحددة .

وإلى جانب ذلك ، فإننى أتنازل عن حقوقى كمؤلف لدور النشر الإسلامية ، سواء فى ألمانيا ، أو الولايات المتحدة ، أو الجزائر ، أو المغرب ، مساهمة منى فى العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام وانتشاره ، أى مساهمة منى فى العمل ﴿ فى سبيل الله ﴾ .

ويؤدى الكثيرون من العمال الأجانب المسلمين فى ألمانيا الزكاة ، وليس أدل على ذلك من وجود مئات المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية بها . ويوجد بالمساجد أماكن لتلقى الزكاة التى تؤدى مرة واحدة فى السَّنة . وعادة ما يكون المبلغ المجموع كبيرا بما يمكن من تخطيط الميزانية على نحو أفضل .

ويتلقى بعض المساجد فى ألمانيا ، بطبيعة الحال ، « بترودولارات » (دولارات نفطية) . وأيا كان مصدرها ، سعوديا أو إيرانيا أو ليبيا ، فإنها تترك تأثيرا خاصا يرتبط بمصدرها .

ولقد كان من الممكن التغلب على كثير من المشكلات المالية ، التى تواجه الطوائف أو المجموعات الإسلامية فى ألمانيا ، لو أنها اتبعت نظاما كفئا للضرائب ، كذلك المطبق فى حالة الضرائب الكنسية المسيحية واليهودية . ولكن ذلك قد يؤدى من الناحية الأخرى إلى بروز مشكلات سياسية أكبر منها ، تحل محلها ، من قبيل : الرقابة على الأموال وتوزيعها فى مجتمع متعدد الثقافات .

من هنا ، كان فخرى واعتزازى بالمسلمين الأندلسيين الملتفين حول الأستاذ عبد الرحمن مدينه موليرا ، الذين نجحوا ، بفضل مساندة وتشجيع رجاء (روجيه) جارودى المتحمس دائما ، فى عام ١٩٩٤ ، وبعد توقف دام ٨٠٠عام ، فى بناء مسجد فى قرطبة بدون مساعدات مالية أجنبية . ويبعد موقع هذا المسجد مائة متر فقط من موقع مسجد قرطبة

القديم الكبير . ويتمتع هؤلاء المسلمون بحق الدعوة إلى الصلاة بأذان ينطلق من منارة المسجد. ليس هذا فحسب، بل إنه يرتبط أيضا مع «جامعة ابن رشد الإسلامية بالأندلس» ، التى افتتحت فى نهاية أغسطس عام ١٩٩٤ . ولعل استقلال مسلمى الأندلس عن الدولارات النفطية يكون نموذجا يحتذ يه المسلمون فى ألمانيا .

* * *

ولكن ماذا يفعل المسلم لكى يحافظ على ثروته وينميها ؟

يرتبط هذا السؤال أيضا بمشكلة « البخل » . ويقودنا على الفور إلى ذكر تحريم قرآنى مزدوج ، يحرم على المسلم فى العالم الرأسمالى أيضا أن يقامر أو يضارب بالمال أو أوراق اليانصيب لتحقيق أرباح بالمضاربة ، كما يحرم عليه أيضا الإقراض بفوائد، لأنه ينبغى عليه أن يكسب عيشه بعمله هو ، وبما يتحمله هو أيضا من مخاطر .

إن إشكالية سوق رأس المال المشار إليها إشكالية معقدة ، وبصفة خاصة لأن الدول الغنية « الأشد إسلامية » فى هذا العالم لا تستحى أن تودع أموالا طائلة هائلة فى بنوك الغرب التى تتعامل بالربا ، كما أنها ذاتها تسعى إلى عقد صفقات مصرفية على أسس ربوية .

لذلك ، دارت فى لقاء للمسلمين الناطقين بالألمانية ـ عقد فى آخن فى ديسمبر عام ١٩٨٦ ـ مناقشات جادة حول مفهوم الربا المحرم بنص الآية القرآنية ٢٧٥ من سورة البقرة ، سعيا إلى فهمه . ولقد لخصت رأيى آنذاك فى أن مفهوم الربا ، الوارد فى القرآن وفى أحاديث الرسول ﷺ ، ينصب حسب أصله التاريخى على الفائدة الربوية التى تفرض استغلالا لحاجة المقترض وللمضائقة الاقتصادية التى يمر بها . ومن ثم ، فإن من يقترض من البنك الألمانى لشراء سيارة ثانية ، لا يتعرض لاستغلال من جانب البنك . وأشرت أيضا إلى أن الفوائد على المدخرات غالبا ما تعوض فقط الخسارة الناجمة عن التضخم ، وإلى أن المدخر يعوض ما يفقده من ربح (كان من المحتمل أن يحققه من استخدام آخر لرأسماله) بما يحصل عليه من فائدة على مدخراته .

ومع أننى لم أكن الوحيد الذى يتبنى هذا الرأى ، فقد كان رد الفعل له سلبيا ، إذ تمسك معظم الذين شاركوا فى المناقشة بالمفهوم الأصولى للربا ، الذى يرى أن تحريم الفائدة مجرد شكل خاص من التحريم الشامل للربا [٤٥] .

ما ذا يفعل المسلم الألمانى إذن بمدخراته ؟ فعلى الرغم من الجهود المضنية التى بذلها الدكتور أيوب (أكسيل) من معهد الاقتصاد الدولى فى كولونيا ، فإنه لا يوجد فى ألمانيا بعد مؤسسة مالية إسلامية . وهذا أمر لا يثير الدهشة على الإطلاق ، عندما يتابع المرء

الصعوبات التى ما تزال تواجه باكستان فى سعيها إلى إقامة اقتصاد بلا فوائد . فكيف تجمع شركة رأس المال دون فائدة ؟ كيف إذا كان ذلك سيقترن بمخاطر كبيرة لرأس المال ؟ كيف يعمل تخصيص الموارد بدون فائدة كمعيار للربحية ؟ كيف يمارس البنك المركزى سياسة نقدية غير دورية فى غياب الفائدة كأداة ؟

إن الحل لا يمكن أن يكون فى طلب مسلم ألمانى من البنك الذى يتعامل معه أن يفتح له حسابا ادخاريا بدون فوائد ، لأن هذا طلب من شأنه أن يهدم النظام المصرفى بأكمله . وسيكون رد موظف الشباك المتوقع استنادا إلى خبرته هو : « أولا : إننا لم نفعل هذا على الإطلاق من قبل . وثانيا : إننا كنا نفعل دائما شيئا آخر . وثالثا : إن هذا سيكون سابقة يستند إليها أى شخص» .

إن محاولة إيجاد حل من هذا القبيل تعنى ببساطة أنه من الخطأ محاولة أسلمة نظام اقتصادى عن طريق إلغاء الفائدة . فإلغاء الفائدة يمكن دائما أن يكون مجرد جزء من عملية تغيير عميقة ناجحة متعددة الجوانب ، لتقليص الرأسمالية كنظام [٤٦] ، أو لتعديلها حتى لا تعارض النظام الإسلامى .

إن المشكلة تظل قائمة حتى فى حالة التوصل إلى نظام لحسابات ادخارية بدون فوائد ، لأن أصحاب مثل هذه الحسابات يساعدون البنك فى منح قروض بفوائد . ناهيك عن أن البنك يجد صعوبة فى التعامل مع عملاء مسلمين يفكرون تفكيرا غير اقتصادى . ويتبين ذلك من رسائل أتلقاها بانتظام من البنك الذى أتعامل معه ، تقول : « السيد المحترم دكتور هوفمان ، يُظهر حسابكم الجارى فى الوقت الراهن رصيدا مرتفعا . ولذلك ، فإننا نسمح لأنفسنا أن نستلفت انتباهكم لإمكانات جذابة لاستثماره . . . » .

إن المسلم الألمانى ، الذى يريد أن يتجنب شبهة مخالفة التحريم القرآنى للمضاربة وللربا ، لا يشارك على أى حال فى أرباح ناجمة عن استثمارات لرأس المال ذات فوائد محددة سلفا فى حدود قيم معينة ، أو من أعمال تتسم بالمضاربة فى السلع أو الأسهم أو العملات . ويبقى له أن يوظف أمواله كرأس مال منتج فى استثمارات تحوطها المخاطرة ، كأن يشارك فى شركة تجارية ، أو يستثمر فى صناديق استثمار ، أو فى أسهم (كمستثمر لا كمضارب) . ولن يترتب على ذلك انهيار سوق المال الألمانى .

يندرج تحت المبدأ الإسلامى بمحاربة البخل ، الدعوة إلى نحر الأضحية (الحيوانات) فى عيد الأضحى ، وفى مناسبات أخرى ، تكفيرا عن بعض الذنوب أو المخالفات ، وغير

ذلك . ويصف القرآن والسنّة كيفية النحر ، ويضيف القرآن إلى ذلك ماهو أهم : ﴿ لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن ينالُه التقوى منكم كذلك سخَّرها لكم لتكبِّروا اللهَ على ما هداكم وبشّر المحسنين ﴾ (سورة الحج ـ الآية ٣٧) .

شهدت لأول مرة ، في عام ١٩٨٢ في إسطنبول ، كيفية نحر الأضحيّة ، حيث شاهدت شاة تذبح على رصيف أحد الشوارع ، في مناسبة افتتاح محل جديد لبيع الأحذية . ولقد أحسست بعدم الارتياح ، وأنا أشاهد هذا المشهد . وما أزال حتى اليوم أشعر بعدم الارتياح ، عندما أشاهد حيوانا يذبح ، على الرغم من أنني شاهدت ذلك عشرات المرات .

إن المناسبة الرئيسية التي تنحر فيها الشياه ، هي عيد الأضحى الذي يمثل ذروة شهر ذي الحجة ، على نحو ما ذكرت بقدر كبير من التفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب . وفي الرباط ، كانت الأمة كلها تنتظر لتشاهد على شاشة التلفزيون الملك الحسن الثاني وهو يؤدي واجبه في نحر الأضحيّة ، باعتباره أول من يفعل ذلك من أفراد الأمة . وكنت كجميع السفراء المسلمين أؤدي صلاة العيد مع الملك الحسن الثاني بمسجد أهل الفحص ، في المنطقة التي يقع بها القصر . وبعد الصلاة ، كان الملك يقوم بنفسه بنحر كبشين أملحين ، مع وضع منديل أبيض في طريق انبثاق الدم . وبعد ذلك ، شاهدت في مسكننا طاهينا (الطباخ) ، وهو ينحر كبشين محاطا بأسرته الكبيرة . وكان قد اشترى أحد الكبشين بنفسه ، بينما كان الكبش الآخر « كبشا ملكيا » ، إذ كان هدية من الملك .

ويجوز لي ، حسب الشريعة ، أن أنيب عني من ينحر الأضحيّة ، ولكن لا بد لي من أن أكون حاضرا عملية النحر لأنطق بنفسي « باسم الله » . ولم يكن يمضي سوى ساعات قليلة قبل أن نكون قد انتهينا من أكل نصيبنا من الأضحيّة ، وهو الكبد مشويا . أما بقية الأضحيّة ، فكنا نهديها في قطع كبيرة إلى العاملين الكثيرين بمنزلنا .

في المغرب ، يعد ميلاد طفل جديد من أكثر المناسبات التي تنحر فيها الأضاحي . فلقد جرت العادة هناك على أن يدعو المرء إلى حفل إفطار كبير ، في وقت متأخر عن الإفطار المعتاد ، يقام بعد مولد الطفل بفترة من ثمانية إلى أربعة عشر يوما . وفي هذه المناسبة تنحر شاة على الطوى (خالية المعدة) ، أمام كاميرات الفيديو ، كأضحيّة شكرا لله وحمدا له على اتمام الولادة السعيدة (ويمكن أن ذلك أيضا بهدف درء الحسد عن المولود) .

تعد أسواق الأغنام قبل وقت قصير من عيد الأضحى حدثا متميزا . فبينما كنا في طريقنا من سبته إلى الرباط في مايو عام ١٩٩٤ ، اعترضتنا أمام بوابات تطوان آلاف من رءوس الأغنام محاطة ببائعيها . ومع ذلك ، كانت البهجة تعم الجميع . وكانت وسائل نقل متعددة وغريبة ، أحضرت لنقل الأغنام ، تسد الطريق . وكان من نتيجة ذلك ، أننا

استغرقنا مـن الزمن ساعة ونصف السـاعة حتى استطعنا أن نجتاز هـذه السوق ، الأشبه بخلية نحل ، ونواصل طريقنا .

كان انتقالنا إلى مسكن آخر جديد فى إسطنبـول مناسبة أخرى لأن نقدم أضحيّة ، تعبيرا عن الشكـر لله . وكان أنسـب مكان لذلك ، هـو المؤسسات الخيرية بمسجـد السلطان أيوب عنـد القرن الـذهبى . فهنـاك يدفع ثمـن الأضحيّة ، ويحدد كيفيـة توزيـع لحمها ، ويختـار الشـاة التـى يضحِّيهـا ، ويشهـد عملية النحـر ، وتطبـع على جبينـه ، بـاعتبـاره المُضحِّى ، قطرة من دم الأضحيّة .

يتجاهل الناس فى الغرب ، فى حياتهم اليومية ، الحقائق غير المبهجة فى حياتنا ، كتلك المتعلقة بالميلاد والشيخوخة والمرض والموت . فلا ينبغـى لشىء دام أن يعكر صفو حيـاتنا النفسية الهادئة . فالمرأة التى تعانى آلام المخاض ، تدخل غرفة التوليد ، ثم تخرج إلى زوارها فى أبهى زينتهـا . وفى المستشفيات الحديثـة ، يتحـول المرضـى إلى نزلاء فى فنـدق . ويُـودَعُ المسنُّون فى مآوٍ (دُور) مخصصـة لرعايتهم ، ومـن ثم تُبعَد كلمة « مسـن» عن أن تقلقنا . وعندما يتعلق الأمر بالموت يجد المرء فى أمريكـا نفسه وقد غاب فى «دار آخرة » . . فيالها من سخرية !

أما فيما يختص بالحيوانات ، التى كدت أنساها ، فإنها تذبح على نحو متكرر ، دون أن نرى أو نشم أو نسمع عملية ذبحها . ولكنها تأتينا كقطع للأكل فى صورة صدور أو أوراك نظيفة معقمة مغلفة لنخرجها من جهاز التجميـد (الديب فريزر) إلى الموقد مباشرة . . . باختصار شديد . . . بطريقة إنسانية .

إن عالمنا هذا شأنه ينظر ، بطبيعة الحال ، إلى تضحية حيوان حى على أنه عمل وحشى ، لا معنى ولا هـدف له . وذلـك على الرغم مـن أن المرء فى هذا العـالم ، ما يـزال حتى الآن يسمى صلاته « قربانا » ، وما يزال يتـأمل فى يوم الجمعة الحزينة لأن الرب « ضحى » بابنه من أجلنا .

إن نحر الحيوان كـأضحيّة فى واقع الأمر مسألـة حياة وموت . فالحيوان يفقـد حياته إن عاجـلا وإن آجلا ، كما نفقد نحـن أيضا حياتنا إن عـاجلا وإن آجلا . ولكـن الفرق بين الحالتين ، يكمن فيما إذا كان الموت يحدث كأمر لا مفر منـه ، يعى المرء حتميته كجزء من إيمانه بالله ، أم إنه يحدث كنوع من موت ذليل .

ومع ذلـك ، دعونـا نتذكر أنـه لا ينال اللهَ دمُ الأضحيـة ولا لحمُها ، وإنما ينـاله معنى الإجلال وتقوى الله وشكره ، الذى تنطوى عليه الأضحية . والعبرة لمن يعتبر !!

الفصل التاسع

فتش عن المسلمة

ينطبق التعبير البلاغى : « فتش عن المرأة » على العالم الإسلامى أيضا . فإذا كان حقا ما يقال فى الغرب من أن وراء كل رجل ناجح امرأة ، فإن وراء كل مسلم ناجح امرأة مسلمة . . ليست جارية ، وإنما شريكة حياة محبوبة . ومن ثم : « فتش عن المسلمة » !

وقبل التطرق إلى تفاصيل هذا ال « تقرير عن وضع المرأة فى الإسلام » ، أود أن أشير إلى بعض الأحكام العامة ، وهى :

١ ـ تشبه النساء المسلمات أخواتهن الغربيات أكثر كثيرا مما يعتقد المرء فى أوروبا . ففى كل من العالمين ، تضطلع المرأة بأدوار الزوجة ، والأم ، والمحبوبة ، والفنانة ، والممثلة ، والمطربة ، والراقصة ، والسياسية ، والصحفية ، والشاعرة ، والطبيبة ، والممرضة ، والجدة ، والشيخة ، والجارية ، والساحرة ، والمتصوفة ، والقديسة . . وغير ذلك كثير .

٢ ـ تسعى الغالبية العظمى من النساء فى الشرق ، كما هو الحال فى الغرب ، إلى التكامل مع الرجال ، وليس إلى محاكاتهم أو تقليدهم .

٣ ـ يختلف المثال (النموذج) الإسلامى عن الممارسة فيما يختص بتطبيق حقوق المرأة ، على النحو الذى أورده القرآن ، مثلما يختلف فى أمور أخرى كثيرة . وهذه ظاهرة معروفة فى حضارات أخرى ، وبصفة خاصة ، فيما يتعلق بالواقع الفعلى للمرأة .

٤ ـ على الرغم من أن هناك نساء مهمشات ومحجبات فى العالم الإسلامى ، فإن الغالبية العظمى من أخواتى المسلمات لا يجدن أنفسهن فى الشخصيات التى تعرضها كتب مثل : « ليس بدون ابنتى » ، و « أنا ، أميرة من بيت آل سعود » .

* * *

نأتى بذلك إلى التفاصيل : (٤٧)

ونبدأ بـ « عقد الزواج » . فنادرا ماتجبر النساء فى بلاد المسلمين على الزواج ، وإن كان ذلك يحدث فى بعض الأحيان . ومع ذلك ، فكثيرا ما لا تتوافر لهن فرصة كافية لاختيار شركاء حياتهن ، لأن التقاليد تحول دون ذلك . ولذا تتم الكثير من الزيجات حتى الآن عن طريق ترتيبات الأهل فى جميع بلدان العالم الإسلامى ، من باكستان مرورا بإسطنبول والمغرب إلى موريتانيا . ففى هذه الأجزاء من العالم ، يسود اعتقاد بأن خبرة الأهل توفر ضمانة لزواج ناجح وسعيد أكثر مما يوفره الحب بين الشباب . ولقد ثبت بالفعل ، أن الزيجات التى ترتب على هذا النحو ليست أقل استقرارا من الزيجات التى تتم عن طريق الحب . ولكن الاستقرار ليس دليلا مؤكدا على زواج ناجح ، إلا فى حالة ما إذا كانت الزوجة مستقلة اقتصاديا عن زوجها ، بحيث تستطيع أن تتركه إذا أرادت .

غالبا، ما يجرى اكتشاف عروس المستقبل بواسطة حماة المستقبل . وليس هناك مكان أفضل لذلك من الحمام (الحمام التركى) ، حيث لا يرتدى المرء ملابس على الإطلاق ، بما فى ذلك لباس البحر (المايوه) . ومن ثم ، لا تستطيع فتاة شابة أن تخفى ما قد يكون بجسدها من عيوب، بينما هى تلتقى فى هدوء ومودة بعدد كبير من الحموات المحتملات .

على أى حال ، يحرص الوالدان ، أو الأوصياءعلى أن يتم الزواج الإسلامى التقليدى على أساس «عقد زواج» يصاغ بدقة وعناية،على نحو يجعل من غير الممكن أن يتزوج الرجل زواجا ثانيا ،ويؤمن الزوجة ماليا عند حدوث طلاق بالنص على مؤخر صداق كبير. وثمة أسلوب ، يتسم بالدهاء ، لتحقيق الاستقرار للزواج ، يتمثل فى النص على أن يؤدى الصداق (المهر) كاملا أو جزئيا فى حالة وقوع الطلاق . ومن ثم يصير الطلاق بالنسبة للزوج ،كما هو الحال فى القانون الألمانى الجديد ، مخاطرة مالية لا يستطيع أن يتحملها .

يؤدى ارتفاع قيمة المهر فى مجتمع ما ، كما هو الحال فى السعودية ، إلى اضطرار الشباب إلى البحث عن زوجات أجنبيات ، وبصفة خاصة من مصر وتركيا . فلقد صارت النساء السعوديات بعيدات المنال ، بالنسبة لكثيرين من الشباب ، لأسباب مالية . وهذا المَخْرج غير متاح فى الإمارات العربية المتحدة ، حيث لا يسمح ، بسبب الخوف الشديد من خطر غلبة السكان الأجانب ، لابن البلد إلا بالزواج من ابنة بلده . وحتى يكون ذلك ممكنا من الناحية المالية ، يمنح أمير (أبو ظبى) إعانة لكل زيجة من هذه الزيجات ، بلغت فى عام ١٩٩٣ خمسين ألف دولار .

وكانت مشكلة المغالاة فى المهور قد ظهرت فى عهد الخليفة الثانى (عمر بين الخطاب)

وأراد عمر لذلك أن يضع حدا أقصى للمهر . ولكنه مـا لبث أن تراجع عن عزمه ، عندما جادلته امرأة فى المسجد بأن القرآن يمنع استرداد ما أخذته المرأة مهرا .

والزواج فى الإسلام ليس سرا من الأسرار ، وإنما هو عقد . ولكن يفصل بين عقد القران وحفل الزفاف ، فى بعض الأحيان ، عام أوعامان . ولقد دُعينا فى المغرب إلى حضور حفل عقد قران ، وبعده بعام كامل دُعينا إلى حضور حفل زفاف العروسين .

لقد تزوجت فى إسطنبول عام ١٩٧٧ حسب الشريعة الإسلامية ، مع تقديم شهادة «الأهلية للزواج » الألمانية ، كأساس لتوثيق الزواج المدنى ، وفقا للقوانين التركية . وكانت الطقوس شديدة البساطة ، واقتصرت فى الواقع على الصلوات . واستطعنا أن نتغلب على مشكله المهر المرتفع ، حيث إن زوجتى أصبحت ، بموجب عقد القران ، مستحقة لمعاش من إدارة المعاش فى بون .

كانت حفلات الزفاف فى العالم الإسلامى ، ومـا تزال ، تتسم بالبذخ الشديد ، ولكنها تختلف فى طقوسها من منطقة إلى أخرى . ومع ذلك ، فهناك ، على أساس الحقوق العائلية الإسلامية ، خصائص مهمة مشتركة . مثال ذلك : ماهو معتاد فى كل مكان من احتفال كل من الرجال والنساء على حدة بليلة الحناء ، ومن تأمين الرجل لعروسه فى مواجهة الشيخوخة بإهدائها حليّا ومشغولات ذهبية عالية القيمة . (ومن المعروف ، أن الزوجة ، وفقا للشريعة الإسلامية ، تتمتع بذمة مالية مستقلة منذ ١٤٠٠ عام). وكثيرا ماخشيت فى تركيا من أن تسقط العروس تحت وطأة ثقل ما تحمله ليلة زفافها من خواتم وسلاسل ذهبية وساعات مذهبة .

تشترك الأفراح من تركيا إلى المغرب فى ذلك الاتجاه المتزايد نحو إشاعة الضوضاء باستخدام أجهزة صوت إليكترونية أكبر فأكبر . فمن الأمور المستحدثة ، عندما يحتفل بالزفاف فى أحد الفنادق الكبيرة بإسطنبول ، إطلاق صاروخ ألعاب نارية عند بدء الاحتفال ، على نحو يثير الذعر فى المدينة كلها . وفى المغرب ، بلغت هذه المساوئ مستوى غير مسبوق . فلقد صارت حفلات الزفاف هناك منذ ما يقرب من ١٥ عاما عذابا سمعيا للمشاركين فيها ولغير المشاركين على السواء ، ممن يضع حظهم العاثر مساكنهم فى محيط يبعد كيلومترين عن مكان الاحتفال بالزفاف .

والأمر يبدو كما لو أن الناس ترفع شعار « لا ينبغى لأحد أن ينام يوم عرس ابنتى » ! ويبلغ ضجيج الاحتفال حدا يعجز المرء عنده عن سماع من يجلس إلى جواره حول منضدة

واحدة . . بل إن المرء يظل يشعر فى اليوم التالى كما لو كان نصف أصم ! لذلك ، فقد عقدت العزم بكل الجدية على أن أستخدم فى حفل الزفاف التالى غطاء الأذن الذى كنت أستخدمه أثناء مرانى على الرماية .

من المعتاد فى المغرب ، أن تطلع العروس على ضيوفها أثناء الاحتفال بسبعة أثواب متتالية ، بما يناسب كلاًمنها من حلى ـ على نحو ما تصف شهر زاد فى الليلة الثانية والعشرين من ألف ليلة وليلة ـ ويشبه الثوب الأخير (للأسف) ثوب زفاف أوربى . أما الأثواب السابقة عليه ، فأثواب رائعة الألوان ، تمثل المناطق المختلفة للمملكة .

جرت العادة فى المغرب على وجه الخصوص ، كما هو الحال عند المسلمين الهنود ، أن تحمل العروس ، جالسة فى قفص من أسلاك الفضة على أكتاف شيخات قويات يؤرجحنها يمنة ويسرة . بينما يدخل (العريس) إلى القاعة محاطا بموسيقيين سمر البشرة من مراكش ، يعلنون عن وصوله بأصوات بآلات النفخ والإيقاع شديدة الارتفاع بدون أجهزة صوت إليكترونية .

يجلس العروسان الليلة بطولها فى (كوشة) ، لا يتحدثان ولا ينظر بعضهما إلى بعض امتثالا لما تفرضه التقاليد العريقة فى ريف الأناضول حتى اليوم . أما فى المدن التركية ، فالأمر يختلف إلى حد ما ، إذ يجلس العروسان فى بادئ الأمر فى مواجهة المدعوين ، غير أنه يجوز لهما التحدث معا ، كما يجوز لهما الاختلاط مع المدعوين أثناء الحفل .

شهدنا هذا البذخ الشديد نفسه ، والطقوس ذاتها ، والطعام ذاته ، والمشروبات غير الكحولية نفسها ، فى حفلات زفاف عند علية القوم وعند بسطائهم على السواء . . . عند سائق سيارتى الحاج محمد جنيها فى مدينة صاله ، ومرشدنا الصغير غير الرسمى إدريس فى فاس . . . وفى حفلات زفاف بنات وزراء فى الرباط . والاختلاف الوحيد بين أولئك وهؤلاء ، هو أنه كلما كان الناس أشدبساطة كان المضيف أكثر ودا وترحيبا بالضيوف ، وكان الحفل أكثر بهجة .

* * *

ليس ثمة ما ينعش الخيال الجنسى عند مواطن أوربى أكثر من تصوراته الحاسدة لشهوانية الحريم الشرقى . فإذا كان يظن أنه يعرف شيئا واحدا عن الإسلام ، فهو أن المسلمين ـ هؤلاء الشهوانيين ـ لهم الحق فى أن يتخذوا «أربع زوجات» . وهنا يسيل لعابه . لكن حتى هذه المعرفة الزهيدة خاطئة ، ولا تطابق الحقيقة .

وهى خطأ ، لأن القرآن يشترط لممارسة هذه الإباحة شرطا يكاد يكون من المستحيل

الوفاء به ، وهو تحقيق العدل بين الزوجات ، بحسب نص الآية ١٢٩ من سورة النساء :
﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرَصتم فلا تميلوا كلَّ الميل فتذروها كالمعلَّقة وإن تُصلحوا وتتقُّوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾ .

وهى ليست حقيقة أيضا ، لأن الزواج بواحدة فى واقع الأمر ليس أقل شيوعا فى العالم الإسلامى منه فى الغرب . والزواج بامرأة واحدة أكثر استقرارا فى العالم الإسلامى منه فى المتوسط فى أمريكا أو السويد أو ألمانيا ، بحسب ما تبينه الإحصاءات .

وعلى الرغم من أننى تجولت كثيرا ، ولفترات طويلة فى العالم الإسلامى ـ العربى ، فإننى لا أستطيع أن أتذكر سوى حالات قليلة جدا لتعدد الزوجات . ولعل مما يثير الدهشة ، أن رجل أعمال مصريا يعيش فى حى سُويْسى بالرباط متزوج من أربع زوجات جميعهن ألمانيات ، ويبدو عليهن جميعا أنهن أسعد كثيرا من النساء فى الغرب . ويمكن للمرء أيضا أن يرى فى إسطنبول فى فصل الصيف عربيا أو آخر يصطحب زوجتين أو ثلاث زوجات ، جاء معهن هربا من حر شبه الجزيرة العربية ، ليقيموا فى فندق طرابيه ـ البوسفور . ويستفيد من ذلك فى المقام الأول تجار الساعات وتجار الحلى والمجوهرات ، المنتشرون فى السوق ، إذ إنه ينبغى على مثل هذا الرجل متعدد الزوجات أن يهدى إليهن جميعا نفس الهدايا ، أو ألا يهدى لأى منهن شيئا ، إذا أراد أن يحقق شرط العدل بينهن .

ولقد شاهدت فى ديسمبر عام ١٩٩٣ فى (أبو ظبى) واقعة مرتبطة بتعدد الزوجات ، تشير إلى مدى مراعاة الإنصاف أو العدل الوارد فى القرآن بخصوصه . وكان ذلك عندما رأيت فى مطعم الأسماك على بحيرة فندق إنتركونتيننتال رجلا إماراتيا شابا بصحبة زوجاته الأربع الأصغر منه سنا ، وهن جميعا فى نفس العمر تقريبا وشديدات الشبه بعضهن ببعض ، ومعهن أربعة أطفال فى نفس العمر تقريبا .

لا يفوتنى أن أذكر أن أحد زملائى من سفراء إفريقيا السوداء ، كان يصطحب معه زوجة فى الرباط ، بينما يترك زوجة أخرى له فى وطنه ، تماما كما لو كان يعمل بمبدأ البحارة : « عروس فى كل ميناء » .

وينبغى أخيرا أن أذكر ماريام جميله ، وهى يهودية أمريكية مثقفة اعتنقت الإسلام . فلقد اختارت ، بعد بحث ، أن تكون واحدة من زوجات متعددات ، فى باكستان ، حيث تعيش الآن بوعى تام ، مثلما عاشت « أمهات المؤمنين » زوجات الرسول ﷺ .

يتبين من خبراتى ، التى قدمتها فى قائمة صغيرة مفصلة ، أن تعدد الزوجات بما يتفق

وهدف القرآن لا يمثل مشكلة للإسلام بصفة عامة . وإذا جاز لى كمسلم أن أراهن على شيء فإننى أراهن على أن تعدد العشيقات فى العالم الغربى أكثر من تعدد الزوجات فى العالم الإسلامى .

* * *

يعد الزواج الإسلامى شيئا سيئا وفقا للتصور الغربى ، حيث يتوهم كل امرئ هناك أن المسلمة تستعبد وتضرب . ولكننى أزعم ، بقدر ما يتاح لى من المعرفة ، أن غالبية النساء فى العالم الإسلامى يحيين مع أزواجهن فى علاقة مشاركة ، تحقق لهن ذواتهن ، حتى فى بعدها الجنسى . (ونحمد الله على أن عملية ختان الإناث التى تشوه المرأة مجرد عادة من العادات المنتشرة فى إفريقيا السوداء ، وأنه لا علاقة لها بالإسلام قط) .

صحيح أنه فى معظم الزيجات الإسلامية ، تسود نزعة« الأبوية »، حيث تؤخذ حماية المرأة مأخذ الجد من جانب زوجها وإخوتها على السواء ، حتى إنه ينظر إليه من منظور تحررى على أنه تضييق لنطاق حريتها . ومن الواضح أن مفهوم شرف العائلة يلعب دورا حاسما فى هذا الشأن . فالرغبة فى حماية المرأة ، وليس النزوع إلى امتلاكها ، هى التى تغذى الموقف الذى نفسره خطأ على أنه الغيرة . فالظاهرة ، إذا ما نظرنا إليها من قرب ، لا علاقة لها بالغيرة ، بل إنه على العكس من ذلك يسعى معظم الرجال المسلمين إلى إبعاد زوجاتهم عن مواقف حرجة ، حتى لا يضطروا إلى العراك مع أحد قد يشرنه بما يرتدين من ثياب مثيرة .

وتأتى عذرية الفتاة فى مقدمة ما يحرص الأب والأخوة فى العالم الإسلامى على حمايته . وفى بعض الأنحاء ، كما هو الحال فى مناطق الأكراد فى تركيا ، تنبذ الفتاة « الساقطة » بسبب ما جلبته للأسرة من عار ، بل إنها قد تقتل أيضا . ويعنى فقدان عذرية الفتاة ، على أى حال ، تضاؤل فرص زواجها زواجا كريما . ولا يندهش أحد من أن الجراحين، الذين يستطيعون إصلاح كل شيء بإبرة ماهرة، يربحون من هذا الوضع .

وفى بعض الأحيان ، يمكن أن يصل العمل من أجل حماية المرأة إلى حدود مبالغ فيها . ففى المغرب ، على سبيل المثال ، لا يسمح للمرأة ــ حتى وإن كانت تحمل جواز سفر خاصا بها ــ أن تسافر إلى خارج البلاد ، ما لم تقدم إلى السلطات المختصة فى المطار تصريحا لها بالسفر من زوجها .

تعود ظاهرة حماية الرجل للمرأة ، حتى وإن لم تر هى أنها فى حاجة إليها ، بجذورها إلى جملة استهلالية فى آية من آيات القرآن ، فسرت منذ قرون من الزمن بما يفيد تفوق الرجل

على المرأة ، لأسباب تتعلق بالجينات أو ببنية الجسم ، وهو ما كان له عواقب مأساوية على المرأة . هذه الآية هى الآية ٣٤ من سورة النساء ، وهى فى ترجمة ألمانية مهمة ، وفيها نقلته أنا من الترجمة الفرنسية والترجمة الإنجليزية للقرآن إلى الألمانية ، تبدأ على النحو التالى [٤٨] :

١ ـ « الرجال متفوقون على النساء » . (م . سافارى M . Savary) .

٢ ـ « للرجال أفضلية على النساء » . (بلزا اتيجانى Pelse Tidjani).

٣ ـ « الرجال قادة النساء » . (حميدو الله) Hamidullah) .

٤ ـ « للرجال سلطة على النساء » . (بوباكيور ، وماسون ، Boubakeur & Masson وترجمة سودانية رسمية) .

٥ ـ « للرجال حق الرقابة على النساء» . (ماتسيه Mazigh) .

٦ ـ « يتقدم الرجال النساء فى المسئولية » . (رسول Rassaul) .

٧ ـ « للرجال منزلة أعلى من منزلة النساء » . (جولد سميث Goldschmidt) .

٨ ـ « الرجال أعلى من النساء » . (باريت Paret) .

٩ ـ « الرجال متفوقون على النساء » . (هيتنج Henning) .

١٠ ـ « الرجال مسئولون عن النساء » . (م . على M. Ali) .

تؤدى كل هذه المعانى والتفسيرات فى نهاية الأمر إلى نتيجة مفادها أن الرجل رئيس زوجته .

وحمدًا لله ، أن النص العربى ﴿الرجال قوّامون على النساء﴾ لا يحمل المعنى المشار إليه ، ولا الدلالات التى سبق لى أن أوردتها . فهذه الكلمات الأربع تعنى ، بموضوعية وبدون انحياز للرجال ، أن الرجال مسئولون عن رعاية النساء والقيام بشئونهن . وهى تعنى ذلك ، كما يتبين من بقية نص الآية ، لأن الرجل مسئول عن صيانة زوجته ، باعتبار أنه قد يكون الأقوى جسديا وماليا . فإذا كانت هى الأقوى جسديا أو ماليا ، لا يجوز له أن يفرض حمايته عليها .

هذه ليست الحالة الوحيدة التى يكيف فيها الرجال فهمهم للقرآن ، وفقا لممارساتهم وسلوكهم فى الواقع ، بدلا من تكييفه لأحكام القرآن الودودة تجاه النساء والرفيقة بهن .

استلفت عبد الله بوريك ، رئيس جمعية المسلمين الألمان ، وفتحى عثمان عالم

الإسلاميـات المصرى (لوس أنجلـوس) ، الانتباه إلى أننى لسـت الوحيـد الذى يـدعو إلى تغيير الفهم الخاطـئ لهذه الفقرة القـرآنية المثيرة للجـدل . ولقد بـدأ المرء فى العالم الأنجلـو ساكسونى بالفعل فى تغيير مفهومها على النحو التالى :

١ ـ « ينبغى على الرجال أن يعنوا عناية كاملة بالنساء» . (أسد Asad) .

٢ ـ « ينبغى على الرجال أن يدعموا ويسندوا النساء » (إرفينج Irving) .

٣ ـ « الرجال حماة وكفلاء النساء » . (ى . على Y .Ali) .

٤ ـ «الرجال يعولون النساء» . (بيرك Bergue) .

٥ ـ « الرجال وكلاء ومسئولون عن النساء» . (خورى Khoury) .

إن علينا إذن أن نضع حدا لتصور أن الرجل يتمتع من حيث المبدأ بوضع متميز بالنسبة لوضع المرأة . ومع ذلك ، تبقـى هناك حالة واحدة لا غنى للمرأة فيها عـن حماية رجل ، وهى الحج . إذ ينبغى عليها فى جميع الأحوال أن تكـون مصحوبة بـ « مَحْرَم» زوجها ، أو أى مـن الأشخاص الـذكور « المُحَـرَّم» عليهـا الزواج بهم . فليـس من الضرورى أن يصحبهـا زوجها فحسب ، وإنما يمكن أن يصحبها والدها أو أحد أشقائها ، طالما أنهم مسلمون .

وهذا أمر يسبب متـاعب كثيرة للسلطات السعودية ، لأنه يوجـد فى القرن العشرين ما كان من النادر أن يوجد فى القرن السابع ، وهو وجود مسلمات وحيدات (غير متزوجات) ، لا يوجـد بين أفراد أسرهـن مسلم آخر غيرهـن . ومن بين هـؤلاء ، مسلمات ألمانيات عـرفن الطريق إلى الإسلام بمفردهن ، ويسعين إلى أداء فـريضة الحج سنة بعد أخرى ، غير أنهن لا يستطعن بلوغ غايتهن بسبب عدم وجود محرم . (تغـاضت السفارة السعودية فى بون مرة واحدة عن شرط مصـاحبة محرم فى حالة مسلمة حـديثة الدخول فى الإسلام ، كـانت أرملة عمرها ٨٠ عاما) .

وهناك بطبيعـة الحال من يلجـأن ، فى سبيل أداء فريضـة الحج ، إلى عقد قـران حسب الشريعة الإسلامية ، كمخرج من مشكلة المحرم ، ولكنه قد لا يكون مسبوقا بزواج رسمى ، فيترتب على ذلك تعـارض مع القانون ، لا يلبـث أن ينهى الزواج الوهمى (الشرعـى) ما لم يسبقه زواج رسـمى .

وعلى الرغم من هذه الحماية المقامـة على المرأة ، أو لعله بسببها ، فإن حياة الأسر المسلمة ليست أقل هدوءا ووداعة من حياة الأسر الألمانية . وكثيرا ما يكون للنساء ، وبـصفة خاصة

لأم الزوج ، الكلمة العليا (والكلمة الأخيرة) . فظاهرة خضوع الرجال لزوجاتهم ظاهرة عالمية .

هناك بطبيعة الحال حالات اعتداء بالضرب على النساء ، وبصفة خاصة من أزواج مخمورين ، ولكنها لاتزيد على حالات ضرب الأزواج لزوجاتهم فى أوربا ، إن لم تكن أقل منها بسبب الاختلاف بين أوربا والعالم الإسلامى فيما يختص بمدى انتشار تناول الخمور . فالعنف الذى يمارس ضد المرأة فى الأسرة الإسلامية لا يرجع إذن إلى أصول فى الشريعة الإسلامية ، تماما كما أن دُور إيواء النساء ، اللائى يتعرضن للإيذاء البدنى من جانب أزواجهن ، ومعهن أطفالهن ، لا تستند إلى أصول فى الديانة المسيحية .

يؤسفنى أننى اضطررت إلى هدم هذا الحكم المسبق على الإسلام من جانب الأوربيين ، خصوصا وأننى أدرك مدى ما نشعر به من ارتياح عندما نستنكر أخلاقيات قوم آخرين . ولكن لماذا ينبغى أن يكون الإسلام هو كبش الفداء؟! أليس هناك غيره ؟!

إذا نظرنا إلى تحقيق المرأة لذاتها فى مجال العمل المهنى ، فسنرى أن الوضع فى معظم البلدان الإسلامية يبعث على التفاؤل . فعملية محو الأمية بين الفتيات تتقدم بخطى واثقة وناجحة ، وإن تكن بطيئة إلى حد ما بسبب ما تلقاه من معارضة من جانب بعض الأسر . وترتفع نسبة الأكاديميات فى بلدان مثل تركيا ، والمغرب ، ولبنان ، وسوريا ، ومصر بالمقارنة بنسبتهن فى السعودية ، واليمن وبلدان الخليج . وتتساوى أعداد الطبيبات ، والمحاميات ، والصحفيات ، والكاتبات ، و أستاذات الجامعات فى تركيا مع مثيلاتها فى كل من مصر والمغرب . وتسمح هذه البلدان ، ومعها أيضا الإمارات العربية المتحدة ، بانضمام الفتيات بها إلى قواتها المسلحة .

وتتولى المرأة فى البلدان الإسلامية رئاسة الحكومة . فهناك تانسو تشيلر ، وبناظير بوتو. وفى اعتقادى أنه ما يزال أمام ألمانيا المتحررة طريق طويل قبل أن تصل المرأة فيها إلى رئاسة الحكومة . ولكن تتشابه أوربا والعالم الإسلامى فى الانخفاض الشديد فى أعداد النائبات البرلمانيات . ويرجع ذلك إلى ضعف إقبال النساء على انتخاب نساء لعضوية البرلمان . ومن ثم ، فإنهن يساعدن على استمرار توزيع الأدوار فى هذا المجال على حاله (لم تدخل المرأة البرلمان فى المغرب حتى عام ١٩٩٣ الذى انتخبت فيه امرأتان لعضويته) .

فيما عدا محكمة الأحداث ، ما يزال شغل منصب القاضى مجالا مغلقا فى وجه المرأة . وتقتصر على الرجال ممارسة النشاطات المتصلة بتنفيذ أحكام دينية ، مثل النشاطات التى

يمارسها الخليفة والإمام والمؤذن والقاضي . وهذا أمر لا تختلف فيه وجهة النظر الإسلامية عن كل من وجهة النظر الكاثوليكية والأرثوذوكسية ، واليهودية . وليس ثمة أمل فى أن يتغير هذا الوضع قريبا .

لا تقوم المرأة بدور فى الحياة العامة ، فى البلاد الإسلامية كلها . ففى السعودية ، لا يجوز للمرأة أن تقود سيارة ، ولا أن تعمل مذيعة تلفزيونية ، ناهيك عن أن طالبات الجامعة يتابعن أساتذتهن من خلال شاشة تلفزيونية . وتختلف هذه الطريقة فى حجب المرأة عن الطريقة المتبعة للفصل بين الجنسين عقب انتهاء حفلات العشاء الرسمية المختلطة ، على نحو ما يجرى فى العالم الإسلامى وفى بريطانيا . فعادة ما يتجه الرجال إلى صالون (يسمى فى التركية سلملك) ، بينما يتجه النساء إلى صالون آخر (حرملك) . ولا يجرى هذا الفصل بدوافع دينية ، وإنما لأسباب عملية ، إذ غالبا ما تكون الموضوعات التى يدور حولها حديث أحد الجنسين غير شائقة للجنس الآخر .

إننى لا أوافق بحال من الأحوال على معاملة الرجل لزوجته كما لو أنها طفلة ، كما هو الحال عند البوظابتيين بالجزائر الذين يرون أن اهتمامات المرأة تنحصر فى المطبخ ، والأطفال ، والمستشفى ، والملابس ، والمجوهرات . ولقد تناقشت فى هذا الأمر مع مثقفين ، ذوى ثقافة عالية ، متسائلا : كيف يرضى الرجل بزوجة مثل الطفلة؟! وكانت الإجابة التى تلقيتها مذهلة ، إذ قالوا : إن المرء منا لا يقضى فى نهاية الأمر أوقاتا طويلة مع زوجته!

ويستند السعوديون فى الفصل بين الجنسين إلى تفسير فيه غلو لبعض من آيات القرآن ، من بينها آيات الحجاب أرقام ٣١ و٣٣ و٥٣ و٥٩ من سورة النور . لكن يتبين من القراءة الصحيحة لهذه الآيات أن بعض أحكامها لا تخص نساء المسلمين عامة ، وإنما تخص نساء النبى ﷺ فقط . وفى الأحوال كافة ، لا تدعو هذه الآيات إلى الفصل التام بين الجنسين ، أو إلى حجب المرأة حجبا تاما[٤٩] . ومن ثم ، فإنه يترتب على الاختلافات المذهبية ، إلى جانب اختلاف المقومات الحضارية ، اختلافات فى ملبس المرأة المسلمة من بلد إسلامى إلى آخر ، ومن جماعة مسلمة إلى أخرى . فملابس المرأة المسلمة تختلف فى إندونيسيا عنها فى باكستان ، وفى الأناضول ، وفى جنوبى الجزائر.

تستطيع العين المجردة أن تميز خطين فاصلين فى العالم الإسلامى . يفصل الخط الأول منهما بين المرأة التى تغطى شعرها ، والمرأة التى تكشف عنه . وبناء على طلب من الملك محمد الخامس ، خلعت إحدى قريباته غطاء رأسها على نحو يكاد يكون استعراضيا . ومنذ ذلك الحين ، تكشف النساء فى المغرب شعورهن فى معظم الأحوال . وترتفع نسبة النساء اللائى يكشفن رءوسهن فى المدن الكبرى بالجزائر ومصر والأردن وسوريا وتركيا .

ويفصل الخط الثانى بين المرأة التى تغطى رأسها فقط ، وتلك التى تغطى وجهها بالإضافة إلى رأسها . فما يزال المرء يصادف حتى الآن فى بعض البلدان الإسلامية حجاب الوجه ، فيراه بشكل فردى ، وعلى نحو متراجع ، فى المغرب ، وإسطنبول ، ودبى ، وغيرها . وليس لحجب الوجه من سند فى القرآن . بل إنه من غير المسموح للمرأة أن تغطى وجهها فى الحج .

بعد أن أدّينا العمرة فى عام ١٩٨٢ ، اضطرت زوجتى إلى حجب وجهها خلف أربع طبقات من نسيج شفاف . وعلى الرغم مما يترتب على ذلك من إعاقة لحركة السير ، فإن زوجتى قد وجدته أمرا عمليا ، حيث إنه يمكنها من الخروج فى أى وقت دون أن تكون فى حاجة إلى تصفيف شعرها ، أو إلى وضع مساحيق على وجهها . (لهذا السبب ، يفضل بعض النساء فى الغرب أيضا تغطية الرأس بإيشارب ، ووضع نظارة شمس داكنة على العينين) .

لم يعد وضع الحجاب فى السعودية ، بعد ما يعرف بحرب الخليج الثانية ، كما كان قبلها . فلقد أدى وجود الآلاف من الكويتيات السافرات ، اللائى فررن من الحرب ، فى جدة إلى تحول فى موقف النساء السعوديات بها من الحجاب ، حيث أقلعن عن ارتدائه .

إن من يرغب الآن فى رؤية حجاب مبالغ فيه ، عليه بالذهاب إلى اليمن ، حيث ما يزال بعض النساء يرتدين أقنعة مصنوعة من الجلد ، أو إلى جنوبى الجزائر فى ميزاب ، حيث لا يظهر من المرأة سوى عين واحدة ، وإذا رآها رجل أدارت وجهها نحو الحائط .

من الخطأ ، أن يتصور البعض أن ارتداء الملابس الإسلامية المحتشمة ، بما فى ذلك ارتداء غطاء للرأس ، أمر يفرضه على النساء أزواج غيورون . . فمن ترتدى الحجاب ، إنما ترتديه ابتغاء مرضاة الله وفى طاعته ، ولكى يعرف عنها الاحتشام والوقار . والمسلمات الألمانيات خير دليل على ذلك . فالعديد منهن اهتدين إلى الإسلام بمفردهن ، ودون أن يكون فى أسرهن رجل واحدمسلم . ولكنهن يتعرضن مع ذلك لمضايقات فى الحياة العامة ، إذ يتندر عليهن البعض بسبب ما يرتدين من ثياب ، أو ينظر إليهن بعين ملؤها الشك .

وعلى الرغم مما تجلبه الملابس الإسلامية من مضايقات للمسلمات الألمانيات ، فإن لها مزايا أو إيجابيات ، إذ إنها ترشد إلى دينهن ، فيتعرف عليهن من يريد أن يحاورهن حول الإسلام ، وهو ما يرحبن به لتأكيد إيمانهن . ناهيك عن أن الكثيرات منهن يرتحن إلى حماية ملابسهن لهن من الظهور كسلعة فى سوق الشهوات .

ولقد أبدت الغالبية من أخواتى المسلمات إعجابهن بكتابى : « الإسلام كبديل » ، ولكن ساءهن فيه نقطة واحدة ، عبرت فيها عن انحيازى للرأى القائل بأن غطاء الرأس يصبح ضروريا فقط عندما يؤدى كشفه إلى إحداث إثارة جنسية (ص١٨٠) . وفى يوليو عام ١٩٩٣ ، تلقيت دعوة من بعض المسلمات الألمانيات ، فى بيت الإسلام ليتسيلباخ ، ليعبرن لى فى جو يسوده الود والصداقة عن خيبة أملهن بسبب ما أعلنته من انحياز للرأى المشار إليه . وعلى أى حال ، فإننى أتمنى ألا يجد القارئ صعوبة فى أن يعترف بأن الإسلام أغنى وأعمق من مجرد غطاء رأس المرأة .

* * *

من الأمور التى لا يجوز أن توجد فى العالم الإسلامى ، مسألة وجود أطفال غير شرعيين . ولا يمكن تبرير وجود هؤلاء الأطفال باستهجان الإسلام تنظيم النسل ، واستخدام وسائل منع الحمل ؛ فهناك كثير من خطباء المساجد يؤيدون تنظيم النسل ، ويدعون المؤمنين إلى مراعاة واجبهم نحو المجتمع ، مع أخذ خطر الانفجار السكانى فى العالم بعين الاعتبار . ولكن من المرجح ، أن كثيرين من المستمعين ، الذين ينظرون إلى الأطفال كضمان وعنصر أمان لهم فى شيخوختهم ، يحدّثون أنفسهم قائلين : دع الإمام يخطب ، ودعك منه . وهو على النقيض تماما مما يحدث فى الكنائس الكاثوليكية ، عندما يصب الكاهن جام غضبه على تنظيم النسل ، إذ يحدّث الكثيرون من المؤمنين أنفسهم قائلين : دع الكاهن يتحدث .

يمنع الإسلام التدخل لإنهاء حمل حدث بالفعل ، حتى لو كان الحمل سفاحا . فالغالبية من علماء المسلمين ، ينظرون إلى الإجهاض على أنه جريمة ضد الحياة . . جريمة قتل لإنسان لا يستطيع الدفاع عن نفسه . وكان البعض قد اعتنق الرأى الذى يقول بالسماح بالإجهاض حتى نهاية الشهر الرابع ، أى حتى تبعث الروح فى الجنين . ولكن هذا الرأى فقد حجيته تماما ، وهو ما أعلنه بصراحة وفى وضوح تامين المؤتمر الدولى للسكان والتنمية الذى عقد بالقاهرة فى سبتمبر عام ١٩٩٤ .

لا يعطى الإسلام اسما ولا حقوقا للأطفال غير الشرعيين ، لأنهم غير متوقعين بحسب مبادئه وقيمه . ولذلك ، يجد الطفل غير الشرعى نفسه فى موقف شديد السوء ، ما لم يعالج والده الأمر ويعترف به ، ويضمه إلى أسرته ، بدلا من التخلى عنه ونبذه .

وتعود مشكلة الأطفال غير الشرعيين فى الإسلام إلى نهيه عن التبنى . فليس من حق الوالدين ، أن يتنازلا نهائيا عن نسب طفلهما إليهما . وليس من حق الأم لطفل غير شرعى ،

أن تتنازل نهائيا عن حقها فى الأمومة . ومن ثم ، فإن أحدا لا يستطيع تبنى طفل غير شرعى ولكنه يستطيع رعايته فقط . وهذه الرعاية أمر يمكن الرجوع عنه فى أى وقت . وتؤكد واقعة زواج الرسول ﷺ من مُطَلَّقة ابنه بالتبنى على أن التبنى ليس أساسا أو ركيزة لعلاقة قربى .

ومن وجهة نظر إسلامية ، يتعرض الأطفال بالتبنى لصدمة لا داعى لها ، تسبب لهم جرحا لا يندمل ، عندما يكتشفون - وهو أمر لا مفر منه فى يوم من الأيام - أنهم ليسوا أبناء شرعيين حقيقيين لمن يدعونهم والديهم . ناهيك عن أن التبنى يضر بطرف ثالث ، هو من له الحق فى إرث المُتَبَنِّى ، إذ يأتى الابن بالتبنى ليشاركه إرثه ، دون الرجوع إليه ، والحصول على موافقته وأخيرا ، يعبر التبنى عن تدخل غير طبيعى فى شجرة عائلة ، فضلا عن أنه مظهر لتدخل فى مشيئة الله وقدره .

لا يأخذ الأزواج الألمان والفرنسيون والإيطاليون الذين لا ينجبون أطفالا ، ذلك كله فى الاعتبار ، عندما يأتون إلى المغرب لتبنى أحد الأطفال الأيتام . وإنما يتحولون لبضع ساعات إلى مسلمين بالاسم فقط ، حتى يستطيعوا الحصول على طفل لتبنيه . ولا يجد القضاة ، المسئولون عن عملية الوصاية ، حرجا فى تحويل عقد إسلامى ينص على رعاية الطفل إلى عقد تبن نافذ ، مع علمهم بأن هذا العقد الأخير غير مقبول ولا يعمل به فى موطن الطفل الأصلى . ويجرى فى هذه العملية تجاهل القانون الإسلامى تماما ، بدعوى « مصلحة الطفل» ! ويجرى تبنى طفل أجنبى فى ألمانيا حسب القانون الألمانى ، استنادا إلى المادة (٢٣) من القانون BGB . ولايشعر القضاة حيال ذلك بوازع من ضمير . توهماً منهم بأن صالح كل طفل يكمن فى إنقاذه من الإسلام !!

لست أجد لهذا الموقف من تسمية تناسبه غير « إمبريالية ثقافية» .

* * *

لا يقع الطلاق بسبب وجود علاقة لأحد الزوجين خارج إطار العلاقة الزوجية فقط . فأحيانا ما يكون سوء حظ الزوجة متمثلا فى عدم إنجابها أطفالا بصفة عامة ، أو عدم إنجابها أطفالا ذكورا بصفة خاصة ، مما يعدّ سببا كافيا لوقوع الطلاق . ويمكن أن يقع الطلاق من جانب واحد وبدون سبب جوهرى . ولا يمنع من حدوث ذلك ضرورة أن يُلْقَى يمين الطلاق ثلاث مرات متفرقات . ولقد رأيت مسلمات يشغلن وظائف مرموقة يعشن لهذا السبب فى خوف دائم من أن يستيقظن يوما ليجدن أنفسهن مطلقات ، وربما لا يعلمن بطلاقهن إلا من خلال طرف ثالث (ولقد ألغى قانون الأسرة المغاربى لعام ١٩٩٣ إعلان المرأة بالطلاق من خلال طرف ثالث ، لعدم وجود سند له فى القرآن) .

لم يقترب القانون الألماني التقدمي من هذه النقطة، وهي إمكانية إنهاء الزواج، أي الطلاق، من طرف واحد، وذلك دون أسباب قطعية. فوفقا للمادة ١٥٦٥ من القانون BGB، يكفي أن يرفض أحد أطراف العلاقة الزوجية الفقرة ١٥٦٧، وإن امتدت مهلة إنهاء الزواج إلى ٣٦٥ يوما.

ويستطيع الرجل إنهاء الزواج من جانبه وتسجيله فقط. أما إذا أرادت المرأة الطلاق، فإنها تتقدم إلى المحكمة بطلب الطلاق، إذا لم يوافق الزوج على الطلاق من تلقاء نفسه، ولا تطلق نفسها لأسباب مالية. فالزوج الذي يطلق زوجته يفقد كل حقوقه في استرداد المهر الذي يكون قد دفعه لها، بل ويؤدي إليها مؤخر الصداق. ومن ثم، إذا أعطيت المرأة حق تطليق نفسها دون الرجوع إلى قاض، فإن ذلك قد يؤدي إلى إغراء النساء بإقامة علاقات زواج بنية إنهائها بعد فترة لأغراض مالية.

التقيت رجلا مسلما من البوسنة في أحد لقاءات المسلمين الناطقين بالألمانية، فوجدته شديد التعاسة والاكتئاب، لأن زوجته الكرواتية تخلت عن إيمانها بالله، ومن ثم فعليه طلاقها. وتتعرض الزوجات الكتابيات لأزواج مسلمين إلى ضرر بالغ إذا طُلِّقن، إذ لا حق لهن في إرث أزواجهن، ناهيك عن فقدانهن الحق في رعاية أطفالهن. ولا يدري أحد كم من الزوجات الألمانيات لأزواج مسلمين اعتنقن الإسلام لهذه الأسباب. ولقد تحول بعضهن إلى مسلمات حقيقيات بفضل الحياة في أسرة مسلمة، وما تتركه من آثار فيهن، بينما بقي بعضهن الآخر مسلمات بالاسم فقط.

لم أصادف حتى الآن حالة انتهى فيها زواج إسلامي بسبب الشذوذ الجنسي لأي من الزوج أو الزوجة، وإن كنت قد صادفت حالة امتنعت فيها امرأة ذات مكانة مرموقة عن الزواج لهذا السبب. ويستلفت الامتناع عن الزواج الأنظار، لأن الزواج واجب ديني على كل قادر عليه. ولقد نهى القرآن عن العلاقات الجنسية الشاذة، ومع ذلك فإن لهذه العلاقات وجودًا لايستهان به في العالم الإسلامي. ولست مبالغا إذا قلت: إنه لا يوجد مكان آخر به ذلك القدر من التسامح حيال الشذوذ الجنسي الذي يوجد بالمغرب. وربما يفسر ذلك حضور كثير من الفنانين الشواذ أو المخنثين الأمريكيين، أمثال: تنسي ويليامز، وترومان كابوت، وويليام بوردز إلى طنجة والعيش فيها - عندما كانت ما تزال منطقة دولية - أو الذين قضوا بقية حياتهم فيها مثل شارلز وجين بولس. وتجذب طنجة حتى اليوم الكثير من السياح الشواذ جنسيا.

في ختام هذا الفصل، يثور السؤال حول تحرر المرأة. والإجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر اليسير، خاصة وأن الظروف تختلف من بلد إلى آخر. لكن لا ينبغي أن ينخدع المرء

بنماذج تقدم نفسها للعالم الغربى على أنها ممثلة للاتجاه النسائى فى بلادها ، من أمثال فاطمة مرنيس التى تحظى فى الغرب بالترحيب ، وبمكانـة وقيمة كبيرتين ، فى حين أنها لا تعنى فى بلدها ، المغرب ، شيئا . فالمرأة المسلمة ليست فى حـاجة إلى حركة تحرر. فهى ، بالنظر إلى موقفها من الله ، متسـاوية مع الرجل . . . عليها ما عليه مـن واجبات وفروض : الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ولها نفس ما له من وعـد فى حياة ما بعد الموت . وإلى جانب ذلك ، تتساوى المرأة المسلمة فى حقيقة الأمر مع الرجل المسلم فى الحقوق المدنية والإنسانية . وليس لزوجها على وجـه الخصوص الحق فى التصرف فى أملاكها الخاصـة . ولا تفقد المرأة المسلمة بعـد زواجها اسـم أسرتها لصالـح اسم أسرة الـزوج ، وإنما تحتفظ بـه حتى نهايـة عمرهـا . واحتفاظ المرأة المسلمة بهذا الحق على وجـه الخصوص ، يوقعها فى مشكلة عندمـا تسافر إلى بلد أوربـى ، حيث يصعـب على رجال الحدود فيـه إدراك كيف أن طفلهـا الشرعى الـذى بصحبتها يحمل اسما غير اسمها .

إلى جانب ذلك ، فهناك بعض الاختلافـات بين المرأة المسلمة والرجل المسلم ، لا تشعر حيالها بالتمييـز ضدها ، أو بظلم يقع عليهـا ، لأنها اختلافات ترجـع إلى معطيات معينة . فهى حين تـرث أقل مـن أخيها ، لا يكـون واقعا عليها ظلـم ، ولا يكون ذلـك خرقـا لمبدأ المساواة بينهما ، لأن هذا الأخ هو وحده المسئول عن رعاية أسرته ، بينما لا تتكفل هى بشىء من الإنفاق على أسرتها ، بل ولا بنفقتها الشخصية عندما تتزوج . وترضى المسلمة بأن تكون لها الكلمة العليا فيما يتعلق بشئون الأطفال صغار السـن ، بينما يكون لزوجها الكلمة العليا فيما يختص بشئون أطفالها الأكبر سنا .

هكذا ، يضيق نطاق تساؤلنا لنصل إلى السؤال الذى طرحناه فى بادئ الأمر ، وهو : هل تتساوى فرص عمل المرأة مع فرص عمل الرجل (فى غير ما يتعلق بالأعمال الدينية) ؟

وإجابتى عـن هذا السـؤال هى : لا أعلـم . وأنـا لا أستطيع أن أعلـم ، لأن غالبيـة المسلمات لا يبحثن عن سعادتهن فى محاكاة الرجال . فهن ، مثلهن فى ذلك مثل كثيرات من الأوربيات ، لايرغبن فى العمل كسائقات شاحنات أو سيارات أجرة ، أو كقائدات طائرات أو شرطيات ، وإنما يتمسكن بدورهن المحدد فى الأسرة . ولا يرجع ذلك إلى غياب « الوعى السليـم » ، وإنما إلى اقتناعهـن بأن النسـاء اللائى يقـدمن أمثلـة ونماذج للمرأة المتحـررة فى الغرب يشعرن بالندم ، لأنهن تجاهلن الأسرة والأمومة ، ومـا يعنيه ذلك من أنه قد فاتهن أن يحققن بالكامل حقيقة وجوهر المرأة .

مجمل القول ، إنه ليس هناك الكثير مما يمكن قـوله بصدد فرص العمل للمرأة المسلمة ،

لأنها ترى أن مستقبلهـا يكمن فى كونها امرأة توظف كل مقـوماتها وخصائصهـا (ولا أقول أسلحتها) فى تحقيق أهدافها ، فى ظل الاعتراف بوجود علاقة قطباها : المرأة والرجل .

ويبقى أننـى عندمـا أحدث زوجتى عـن نشاطـات وإنجازات إحـدى بطلات الاتجاه النسائى (المغالى فى دعوته إلى المساواة بين الرجل والمرأة) البارزات ، فإن رد فعلها يجيء عبر سؤال ساخر مستفز: هل هى جميلة ؟!

الفصل العاشر

إنسانية باردة كالجليد

لماذا إسطنبول بالذات؟!

ألا يصل إلى هذه المدينة سنويا حوالى نصف مليون مهاجر من الأناضول ، والبوسنة ، وبلغاريا ، ومقدونيا وألبانيا؟! إن هذا العدد يفوق ما استقبلته ألمانيا عام ١٩٩٢ من لاجئين سياسيين و مهاجرين . ومع ذلك ، فإنه لا يتسبب فى إحداث أزمة دستورية ، أو أزمة وزارية فى تركيا ، ولا تندلع بسببه حرب أهلية فى إسطنبول .

ألا تصل نسبة تلوث الهواء فى هذه المدينة إلى ١٠٠٠ مجم من ثانى أكسيد الكربون فى كل متر مكعب ، حتى إنها تتسبب فى التهاب العيون والرقاب؟!

ألم يحاول المرء مرارا أن يقنع المواطنين المتشككين فى جدوى إدخال الغاز الطبيعى بدلا من اللجوء إلى الجهات الحكومية ؟!

ماذا عن هجمات الانفصاليين الأكراد؟ وماذا عن التضخم المطرد؟ ألا يزداد التأييد الذى يحظى به الحزب الإسلامى يوما بعد يوم؟!

ألا ينقطع التيار الكهربائى يوميا لفترة ؟

ألا تنقطع المياه باستمرار؟

نعم . . إنها بالقطع مدينة غير محتملة . . ولكن ذلك كله لا يعنى شيئا بالنظر إلى نبضها بالحياة ، وإلى جمالها الذى يخلب الألباب ، بموقعها الساحر، وتراثها المعمارى الجميل الممتد إلى ١٧٠٠ عام مضت ، والذى لم يُشَوَّه بعد. إنه جمال لا يباريها فيه أى من هونج كونج ، وسان فرانسيسكو، وباريس ، وكوبنهاجن ، وروما ، ولشبونة . ناهيك عن أنها كانت حاضرة الخلافة لمدة ٤٠٠ عام من عام ١٥١٧ إلى عام ١٩٢٤ .

وهى ، إلى جانب ذلك كله ، مدينة دافئة ، حتى وإن وصلت درجة حرارة الجو فيها إلى ما دون الصفر، لأن سكانها متعاونون مترابطون ، يشعرون دفئا إنسانيا بالغا . فالمرء يلقى الآخر إما بحب وإما بعداء ولكن ليس بأدب جم فقط . و الجيران إما أصدقاء وإما أعداء ، إلا أنهم يبالون بعضهم ببعض ، ويعرفون بعضهم بعضا ، خلافا لما عليه الحال فى ألمانيا ، حيث لا يبالى الجيران بعضهم ببعض ، بل ولا يعرفون بعضهم بعضا . وفى إسطنبول لا يكتشف الناس وفاة أحدهم من خلال الرائحة المنبعثة من جثته .

الأتراك شعب محب للعلاقات الإنسانية ، بدافع من إحساس بأن الجميع فى حقيقة الأمر أسرة واحدة كبيرة . فالناس هنا يجلون علاقة الدم التى يعودون بها إلى آدم وحواء . ولقد استفدنا ، زوجتى وأنا ، من مفهوم الأسرة الواحدة الكبيرة المشار إليه ، وبصفة خاصة ، فى الفترة التى كانت زوجتى تعمل فيها بالأوركسترا السيمفونى لدار الأوبرا ، كعازفة لآلة « الهارب» ، وإلى جانب ذلك تعمل بالتدريس فى الكونسرفاتوار. بينما كنت أنا أشغل آنذاك منصبا دبلوماسيا فى بلجراد . وكانت رحلة القطار، المار ببلغاريا ، تستغرق حوالى ٢٧ ساعة . وحينما كنت أبوح لها بقلقى من قضائها الليل بمفردها فى القطار، كانت تجيبنى مبتسمة : « إنك تنسى أن لى أخوة وأخوات فى كل مكان» . وكنت أعترض على ذلك قائلا : إن هؤلاء الأخوة لا يسافرون بالدرجة الأولى .

كانت زوجتى على الرغم من ذلك ، يتكرر معها دائما ذات الموقف : يدخل أحد العمال ــ عند مروره بمقصورتها ــ فينظر إليها قليلا ، ثم يقول لها : أختاه! إذا أردت طعاما أو احتجت إلى أى شىء ، فأنا بالمقصورة المجاورة . . . منتهى التعاون!

وإسطنبول أيضا مدينة نابضة بالحياة . ففى الحى الذى نسكنه ، لا يسمع المرء صوت المؤذن فقط ، وإنما يسمع أيضا العشرات من الأصوات القوية التى تنطلق بها حناجر البائعين . ولكل منهم لحنه المميز. والشراء هنا مصدر متعة لزوجتى . فهى لا تشعر هنا بأنها مجرد حرم سيادة السفير، وإنما تشعر كما لو أنها أميرة . فما من بائع يتركها تنتظر إلى أن يلبى طلبها ، أو يتركها تحمل بنفسها ولو كيلوجرام واحد من العنب إلى المنزل ، حتى وإن اشترت شيئا يومى السبت أو الأحد ، (إذ يحمل عنها صبى صغير جميع مشترياتها ، ويوصلها حتى باب المسكن مقابل بقشيش) . وإذا ما صادفت الجزار وهو فى طريق عودته إلى منزله ، فإنه يعرض عليها بتلقائية شديدة أن يعود أدراجه إلى الحانوت ويفتحه إذا كانت ترغب فى شراء شىء ما .

فى يوم من أيام عام ١٩٨٠ ، رحنا نبحث دون جدوى عن أرز باكستانى (بَسْمَاتى) ، وهو

ألذ أنواع الأرز على الإطلاق . وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر، اتصل بنا فى بون أحد الأتراك المقيمين فى كولونيا، ولم يكن معروفا لنا، ليبلغنا أنه صديق لمالك الحانوت الذى نتعامل معه فى إسطنبول، وأنه قد أحضر لنا كيلوجرامين من الأرز، فمتى يستطيع أن يحضرهما إلينا؟ أى تعاون هذا الذى نرى ؟!

بدلا من البوابين مقطبى الجبين فى باريس، يعمل فى حراسة المنازل بتركيا نساء يجلسن أمام المنازل، يتجاذبن أطراف الحديث، ويشاهدن الأطفال وهم يلهون على غرار ما يجرى فى قرية أناضولية . . . أى دفء إنسانى هذا الذى يجرى ؟!

تستمتع زوجتى بعملية الشراء هنا، بسبب شفافية السوق أمامها، وقربه من مسكننا . فلا يكاد المرء يسير لمدة ٤ دقائق، حتى يجد أمامه سبعة من محلات تصفيف الشعر، وسبعة من محلات البقالة، وسبعة من محلات الأجهزة والأدوات الكهربائية، وستة بنوك، وأربعة محلات جزارة . ولا يستطيع أحد أن يغامر برفع الأسعار أو بعرض البضائع أو أن يتلاعب بالأسعار دون أن يفلت من العقاب . والفيصل هنا، هو جودة الخدمات المقدمة للمشترى .

ولقد شهدت بنفسى فى ٢٢ من يولية عام ١٩٨٠ دليلا، كأبلغ ما يكون الدليل، على علاقة الإخاء التى تحكم نظام المنافسة هنا فى البازار المعلق فى إسطنبول . فلقد وقفنا أمام واجهة عرض (فاترينة) أحد المحلات المعلقة، وقد بدا علينا إعجابنا الشديد بالمعروضات بها، وإذا بمالك المحل المجاور يأتى إلينا مثنيا على معروضات جاره المنافس له، بدلا من أن يدعونا إلى محله هو . . . أى فارق بين هذا السلوك، والسلوك أو المنهج الأمريكى فى المنافسة، الذى يبيح بلوغ المنافسة حد العنف أو حتى القتل ؟!

أصابتنى الدهشة أيضا عندما كنت عائدا يوم ٢ من أكتوبر عام ١٩٩٥ من المطار إلى منزلى، مستقلا سيارة أجرة . فعندما دفعت إلى سائق السيارة بمقدار من النقود، يساوى ما يشير إليه مؤشر العداد، وكان يزيد قليلا عما هو معتاد لهذه المسافة، وجدته يرد إلىّ جزءا من النقود قائلا : إنه يشعر أن العداد لا يعمل بصورة سليمة . . . أى إخاء هذا الذى يعبر عنه سلوك السائق؟!

ويسرى مبدأ شفافية السوق حتى فى المحلات التى تتعامل فى مستلزمات الزفاف . فهناك شارع متخصص فى التعامل فى هذه المستلزمات، يقع فى أحد الأحياء المتطرفة Begilar، تصطف به محلات تصفيف الشعر وملابس الزفاف ومستلزماته الأخرى . وبه أيضا مبان مكونة من عدة طوابق، بكل طابق منها قاعة احتفالات . وفى حالات كثيرة،

يأخـذ الاحتفال طابعا جماعيـا ، ويجرى فى أكثر من قاعـة . فالناس هنا لا ينعـزلون ، لا فى الفرح ، ولا فى الحزن ، (فمن الطبيعـى هنا أن يوجد أفراد الأسرة والأصدقـاء فى منزل المتوفى لمدة أربعين يوما بعد وفاته للصلاة على روحه ولتقديم واجب العزاء لأسرته) .

عرفنا طريقنا إلى سوق الزفاف الغريب المشار إليه ، تلبية لدعوات لحضور حفلات زفاف بعض الأقارب الفقراء ، الذين تربطنا بهم صلة قربى من بعيد . وكانت الدعوة توجه إلينا ، لما تفرضه صلة القربى فى العالم الإسلامى من التزامات . وكنا نلبى الدعوة ، لأنه لا ترفض فى العالم الإسـلامى دعـوة إلى حضور حفـل زفاف ، حتـى إذا ما كـانت الرحلة إلى مكـان الاحتفال تستغرق ساعة ونصف الساعة ، وحتى إذا ما كان على المرء أن يصعد سبعة طوابق بصحبة حماة تبلغ من العمر ٨٠ عاما . . فأى ترابط عائلى هذا الذى يربط الناس هنا؟!

لكل ما سلفت الإشارة إليه ، لا بد للمرء من أن يدرك لماذا تقشعر أبداننا ، زوجتى وأنا ، من برودة العلاقـات الإنسانية فى ألمانيا ، حتى لو كان الجو صيفا شـديد الحرارة . ويشاركنا آخرون هذا الشعور نفسه .

فقد أعـرب المستشار هيلموت كـول ، فى حديث له إلى التليفـزيون الألمانى يـوم ١٦ من أكتوبر عام ١٩٩٤ ، عـن مخاوفه وهمومه الشديدة ، لأن الألمان صاروا اليوم أقـل تعاونا عن ذى قبل . وبعد عـام من ذلك التاريـخ ، حذر المستشار هيلموت كـول أثناء مؤتمر الحزب الديمقـراطى المسيحى المنعقد فى كارلسروهـه يوم ١٦ من أكتـوبر عـام ١٩٩٥ من « الجو البارد غير الإنسانـى على نحو لا يحتمل ، والذى ينشـأ عن كثرة وسائل الاتصـال التى تمنع الناس من أن يتبادلوا الحوار فى مواجهة بعضهم بعضا» .

والظاهـرة معروفـة . . فكلّ شىء يسير بـالكاد فى صمت ، على نحـو نزيـه وفعال ، فى المجالات كافة . . الإدارة ، والإنتاج ، والمواصلات ، ووسـائل الاتصال ، ورعاية المرضى ، والفقراء . فنحن دولة يخضع فيها كل شىء للنظام ، حتى تصنيف المخلفات .

وفى هذا المجتمع المبرمج ، الخاضع لنظام (روتين) يتسم بالرتابة ومن ثم بالملل الشديد ، لن يجد المرء سـوى عنصر واحد لا يخضـع لسيطرة أو تحكم كـاملين ، ومن ثـم فإنـه يمثل مصدر إزعاج . هذا العنصر هو الإنسان الذى لا بد من أن يقمع ، ومن أن تتوفر إمكانات للاستغناء عنه ، عن طريق ميكنة كل شـىء ، وإخضاع كل شىءللتحكم الآلى عن طريق الكومبيوتر . ولذلك ، فالويل كـل الويل لمن يتورط من الأفراد « المزعجين » فى خلاف مع الإدارة أو الشرطة أو القانون . . ففى ألمانيا تخضع علاقة المواطن بالمسئولين لأحكام القانون

أكثر منها لاعتبارات العدل . وعلى الرغم من وجود ظروف مخففة للعقوبات ، فإن خلاف الفرد مع النظام يتحول فى الغالب إلى شكل من أشكال الصراع التى يحفل بها أدب كافكا . فالظروف المخففة للعقوبات ، والتى يتضمنها القانون ، ليست بديلا للقلوب المتحجرة . ولقد صاغ قدماء الرومان هذه الظاهرة فى قولهم : « إن المغالاة فى العدل تتحول فى بعض الأحيان إلى ظلم شديد» .

إننى أبالغ فى وصف عملية ، تتصف بالأنانية المفرطة ، وبالانعزالية الواضحة ، تتسلل ببطء لتأخذ لها مكانا فى حياة المجتمع الألمانى . فبينما تعنى كلمة تركى جمعا من الناس يعيش الفرد بينهم ، تعنى كلمة ألمانى فردا يعيش وحيدا فى عزلة عن الناس . فهنا يجرى الفصل بين الجدود والأحفاد ، وإيداع الأوَّل دارًا لرعاية المسنين . ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل إن الأمهات اللائى يجدن فى أنفسهن القدرة على رعاية أطفالهن بمفردهن ، ينظرن إلى والد الأطفال على أنه « شىء » لا ضرورة له ، ويمكن الاستغناء عنه . فهل يدرى أحد كيف سيواجه الشعب الألمانى جيلا من الأطفال حرم عمدا من الوالد والأسرة ؟!

فى العالم الإسلامى ، كما فى غيره ، يحكم القانون الموظفين الذين يخشون المفتش ، مثلهم فى ذلك مثل أقرانهم فى العالم أجمع . ومع ذلك ، فهناك دائما أمل فى أن تحل مشكلة ما من منطلق إنسانى ، حتى وإن كان ذلك بمخالفة اللوائح . وهذا هو ما أعنيه ، عندما أقول : إن «الفساد» أداة تخفف من قسوة القوانين فى الشرق . وأسوق هنا كمثال لذلك واقعة فى أغسطس عام ١٩٩٤ :

فبعد الانتهاء من صلاة الجنازة فى مسجد سليمية ، توجهنا إلى المقابر لحضور عملية الدفن . ولكننا تأخرنا حتى انتهى الموعد المحدد لعبور الطريق السريع المؤدى إلى معبر البوسفور على الجانب الآسيوى من إسطنبول . وكان أن توقفنا عند الشرطة طالبين مساعدتها فى تمكيننا من تغيير مسارنا ، حتى نستطيع أن نلحق بموعد الدفن . ويعلم القارئ بطبيعة الحال ما حدث . وخلاصة القول إننا لحقنا بعملية الدفن فى موعدها . وفى المقابل ، ما الذى كان يمكن للمرء أن يفعله ، لو أنه واجه موقفا مماثلا على طريق سريع فى ألمانيا؟! وماذا كان يمكن أن يسمع من الشرطة ، لو أنه طلب منها ما طلبناه من الشرطة فى إسطنبول؟! غالب الظن أنه ما كان ليسمع شيئا على الإطلاق ، لأنه ما كان ليجرؤ على أن يطلب طلبا كالذى طلبناه!!

يبدو لى ، بالقياس على ذلك ، أن بعضا من أنشطتنا وأعمالنا « الإنسانية» لا مضمون لها . ويبدو لى أيضا أن بعضا مما يوصف بأنه اهتمامات والتزامات إنسانية ليس إلا ثرثرة بلا

مضمون . ذلك ، لأننى لا أستطيع أن أتخلص من الإحساس بأن كل هذا ليس أكثر من تلطيف وتخفيف إعلامى عن ضمائرنا المعذبة .

أفلم يكن رفع الحظر عن توريد السلاح إلى مسلمى البوسنة ، ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم فى الحرب ، أكثر إنسانية من مجرد مساعدتهم على ألا يواجهوا العدو جياعا؟ إننا نحميهم من أن يموتوا جوعا ، بدلا من أن نحميهم من التطهير العرقى ، ومن المذابح الجماعية .

هل أبالغ فى ذلك ؟! كل صورة ترسم باللونين الأبيض والأسود ، إنما هى أشبه بالملصق . فالعالم لا ينقسم إلى أخيار وأشرار فحسب . فالاتجاه السائد الذى تعرضت له اتجاه حقيقى ، وغير مبالغ فيه . وهو اتجاه يمثل ، من ناحية ، سببا ، ومن الناحية الأخرى ، نتيجة لما وصفه أولريخ فيكارد فى كتابه « ضياع القيم » (١٩٩٤) .

إننى أود أن أتعرض بالحديث لظاهرة السلوك الإنسانى للمسئولين فى الشرق ، قبل أن يتهمنى أحد بأننى أزيف صورة هذا السلوك « الإنسانى » ، الذى أعتبره مؤشرا لفساد منظم . فلقد رأيت ، أكثر من مرة ، مسئولين فى الشرق يتخطون اللوائح بدافع من الشفقة فقط ، وليس بغرض الحصول على مقابل مادى . وإنه لمن القسوة بمكان ، أن ينظر إلى قبول « البقشيش» باعتباره فسادا ، فى ظل تدنى دخل المواطن إلى مستوى لا يكفى لإعاشته هو وأسرته . فالموظف الحكومى ، الذى يتقاضى راتبا شهريا يتراوح بين ٢٥٠ ماركا و٤٠٠ مارك ، يعلم أن رئيسه يدرك ـ فى صمت ـ أنه يحسّن دخله من خلال الحصول على شىء ما ، لكى يستطيع أن يفى بالحاجات الضرورية لأسرته ، وأن يوفر لها الحد الأدنى من مستوى المعيشة .

لن أحاول شرح هذا الأمر نظريا ، لأن قصة زواجى من « بولبين» تشرحه على نحو أفضل . . . كانت جميع ترتيبات وإجراءات الزواج تتم تحت ضغط شديد من عنصر الوقت . فلم يكن أمامنا من الوقت متسع يتيح لكل شىء أن يسير على نحو روتينى . فلقد كنت أعمل حينذاك فى بلجراد . وكان من المقرر أن يعقد مؤتمر الأمن والتعاون فى أوربا فى بلجراد يوم الثلاثاء ٣ من مايو عام ١٩٧٧ ، بعد انتهاء أعماله فى هلسنكى . وكُلِّفْتُ بأن أكون نائبا لرئيس الوفد الألمانى إلى هذا المؤتمر .

وكان لا بد ، لإتمام زواجى ، من الحصول على شهادة أهلية (صلاحية) للزواج من بون . وتبين لى أن حصولى على هذه الشهادة سيستغرق وقتا طويلاجدا ، مما يترتب عليه أن زواجنا لا يمكن أن يتم قبل يوم الاثنين ٢ من مايو ، أى اليوم الذى يسبق بدء عقد المؤتمر.

وصلت إلى إسطنبول فى عطلة نهاية الأسبوع ، وكانت بولبين قد حصلت من السجل المدنى فى ميزانداز ، بعد دفع المطلوب ، على كل الأوراق الضرورية اللازمة لإتمام زواجنا يوم الاثنين ، فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة والربع ظهرا . وكان ـ وهنا تكمن المشكلة ـ من الضرورى أن يتم قبل هذا الموعد ترجمة شهادة الأهلية للزواج من الألمانية إلى التركية ، والتصديق على الترجمة من القنصلية الألمانية فى إسطنبول ، وتصديق حاكم إسطنبول . وإلى جانب ذلك ، كان لا بد من إجراء تحليل بشأن الأمراض التناسلية فى المستشفى الألمانى (حيث لا تقبل الرشوة) والتصديق على شهادة المستشفى بنتائج التحليل من السلطات الصحية فى إسطنبول . وكان لا بد من أن يتم ذلك كله فى ثلاث ساعات !

تضاءلت فرص نجاحنا فى إتمام كل ما سلف ذكره ، عندما رأينا ، يوم الأحد أول مايو ، ميدان تقسيم وقد تحول إلى ساحة حرب من جراء المصادمات الدامية التى نشبت إثر تظاهرات سياسية . فما كان المرء ليرى فى هذا الميدان سوى سيارات محترقة وبقع من دماء تلطخ أسفلت الشوارع ، ونوافذ محطمة ، وغير ذلك من الآثار التى تنجم عن مثل هذه المصادمات . وفى هذا الميدان ، تقع مكاتب المسئولين الذين كان علينا أن نقصدهم لاستخراج جميع الأوراق آنفة الذكر .

وكان ثمة شك فى أن يذهب المسئولون إلى مكاتبهم فى اليوم التالى ليوم عاصف عصيب كذلك اليوم . ومع ذلك ، رحنا صباح يوم الاثنين نلهث وراء استكمال الأوراق الناقصة . ولقد عوملت فى القنصلية الألمانية كزميل ، حيث بدءوا فى اتخاذ الإجراءات المطلوبة قبل موعد بدء العمل الرسمى . ولكننا اضطررنا فى مقر بلدية إسطنبول على الطرف الآخر من القرن الذهبى إلى أن ندفع خمسة من الموظفين إلى العمل بدفع المطلوب إليهم . وقام أولهم بإثبات أوراقنا فى دفتر اليومية ، وحصلنا من الثانى على دمغة ختمها الثالث ، وراجع الرابع كل هذا . أما الموظف الخامس ، الذى يقبع فى طابق يعلوالطابق الذى يعمل فيه هؤلاء الأربعة بطابقين ، فقام بالتوقيع اعتمادا لما قاموا به من إجراءات .

تسرب اليأس إلى نفوسنا بسبب إصرار المستشفى الألمانى على أن يسلمنا نتائج الفحوص بعد ساعتين ، وليس قبل ذلك . وفقدنا الأمل تماما فى إمكانية إتمام الزواج فى الموعد المحدد ، حتى إننا لم نجرؤ على تحديد موعد الزفاف فى إعلان الزواج .

تسلمنا شهادة المستشفى فى الساعة الحادية عشرة ، وبدأنا على الفور سباقا لاستكمال بقية الأوراق المطلوبة ، فتوجهنا إلى مكتب الصحة التركى للتصديق على هذه الشهادة . وهناك كان علينا أن نلهث مرتين صعودا إلى الطابق الخامس ، حيث استطعنا بعد دفع

المطلوب أن نحمل إحدى السكرتيرات على أن تترك العناية بأظافرها ، وأن نقنع سكرتيرا أن يختم لنا الشهادة . وبسبب ضيق الوقت ، تحتم علينا أن ننتقل من مكتب الصحة إلى مكتب السجل المدنى بسيارة أجرة ، على الرغم من أن المسافة بينهما لا تزيد على ٧٠٠ متر.

وعندما وقفت أمام موظف السجل المدنى ، ذلك الرجل الذى بيده كل شىء ، كنا منهكى القوى ، وقد ابتلت ثيابنا من العرق . وكان من المفترض أن يتعاطف معنا بالنظر إلى وضعنا ، وبسبب توصيات كثير من الأصدقاء . ولكنه ، عندما راح يتصفح الأوراق ، توقف أكثر من مرة أمام تناقضات ومخالفات . فنحن لم نراع ، فى أكثر من حالة ، الفترة التى ينبغى أن تفصل بين إجراء وإجراء آخر ، كما لم يتوفر الإعلان عن رغبة الطرفين فى الزواج . وإلى جانب ذلك ، تغيب عن مراسم الزواج المترجم الذى تنص اللوائح على وجوده فى حالة زواج الأجانب .

بدأت الدموع تترقرق فى عينى زوجة المستقبل . واعتقدت أنا ، بغباء الرجال ، أننا قد فشلنا فى بلوغ غايتنا اليوم . ولم يخطر ببالى على الإطلاق أن هذه الدموع هى دموع الفرح ، إذ كان الموظف قد أخبرها بالفعل بأن المراسم سيجرى إتمامها الآن وعلى الفور ، ثم أردف قائلا : « لو أنكما وقفتما أمام غيرى ، لكان عليكما أن تنتظرا لمدة ستة شهور أخرى » ! !

هكذا تزوجنا ونحن نرتدى « الجينز والبلوفر » ، وشهدت سكرتيرات السجل المدنى على عقد قراننا . وكنت أجيب عن أسئلة الموظف بالإيجاب أو النفى (نعم أولا) ، بفضل اتباع إشارات سبق الاتفاق عليها بيننا ، زوجتى وأنا ، وليس بفضل فهمى لما يقول . وانقضى ما تبقى من اليوم بعد ذلك بسرعة شديدة . فذهبت زوجتى إلى مصفف الشعر ، بينما تولت أخواتها دعوة الضيوف إلى حفل استقبال صغير .

وكانت ليلة الزفاف قصيرة ، إذ كان علىّ أن أتوجه إلى المطار فى الساعة الخامسة صباحا ، حيث أقلعت طائرة ال JAT التى أستقلها فى تمام الساعة السابعة والربع ، لتصل إلى مطار بلجراد فى تمام الساعة السابعةوالربع أيضا ، بسبب فرق فى التوقيت مقداره ساعة واحدة بين تركياويوغسلافيا . واستطعت بذلك أن أصل بسيارتى البورش الصغيرة إلى مقر المؤتمر فى نوفى بيوجراد فى الساعة الثامنة والربع ، لأشترك فى محادثات الوفد الألمانى ، التى كان ، من المقرر أن تجرى ، فى الموعد الذى وصلت فيه ، قبل بدء المؤتمر . وفى نهاية المباحثات ، سأل السفير د . فيشر عما إذا كانت هناك إضافات تحت بند« ما يستجد من أعمال » ، فأجبته : نعم . . لقد تزوجت أمس فى إسطنبول !

يستطيع المرء أن يستنتج من هذه القصة أن الشرق مهيأ لانتشار الرشوة على نحو غير قابل للعلاج . . . ألم أعترف بأننا ما كنا لنتزوج لولا ما دفعناه من بقشيش كثير ؟ ! ومع ذلك ، فهذه القصة تكشف عن بعد آخر مختلف . . إنها تبرز الصفة الإنسانية التى يتمتع بها فى الشرق حتى البيروقراطية ذاتها ، كما تبرز أيضا ذلك الدفء الذى يتعامل به الناس بعضهم مع بعض . وأيًا ما كان الأمر ، فإننا نأمل ألا تضل ألمانيا الطريق إلى هذا الدفء على نحو قاطع لا رجعة فيه . وأعتقد أن الإسلام يستطيع أن يساهم بدور لتصحيح السبيل .

الفصل الحادى عشر

الإسلام فى ألمانيا .. إسلام ألمانى ؟

أقيم فى برلين فى الفترة بين ٢٨ من مايو - ٢٧ من أغسطس عام ١٩٨٩ معرض بعنوان « أوربا والشرق ٨٠٠ - ١٩٠٠ » . ولقد أبرز هذا المعرض وأكد حقيقة التأثير العربى الإسلامى فى جميع فروع الفنون فى الغرب ، بما فيها فن العمارة ، والرسم ، والحرف الفنية ، والموسيقى ، وأصول اللياقة وقواعد السلوك ، واللغة ، والزى السائد[٥٠] . ومع ذلك ، كان التأثير الدينى للإسلام فى أوربا ضئيلا جدا فى تلك الفترة ، وبصفة خاصة فى ألمانيا التى لم تتعرض - على العكس من إسبانيا وفرنسا والنمسا - لاحتلال إسلامى أو لحصار عسكرى . فلم يصل العرب فى عام ٧٣٢ إلى أبعد من Tours Potiers ، كما فشل العثمانيون أكثر من مرة فى عامى ١٥٢٩ ، ١٦٨٣ فى دخول فينا .

من الثابت ، أنه كانت هناك اتصالات دبلوماسية بين شارلمان الأكبر والخليفة هارون الرشيد ببغداد . ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن علاقات ثنائية حقيقية بين ألمانيا والعالم الإسلامى ، إلا ابتداء من عام ١٧٣١ . ففى هذا العام ، جند فريدريك فيلهيلم ملك بروسيا عشرين من الجنود الأتراك لأجل حراسته الشخصية . ومن أجل هؤلاء الجنود ، أقيم فى بوتسدام عام ١٧٣٢ أول مسجد فى ألمانيا . وفى عهد خليفته فريدريك الأكبر ، ازداد عدد الجنود المسلمين فى الجيش البروسى ، حتى بلغ حوالى ألف جندى ، معظمهم من التتار الفارين ، ومن الألبان ، ومن البوسنة . . وأصبحت هناك بذلك حاجة ملحة إلى وجود إمام (واعظ) لهم . وإلى هذه الفترة ، أى حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، يرجع تاريخ وجود أقدم مقابر للمسلمين بألمانيا ، وتقع هذه المقابر عند برلين [٥١] .

توثقت العلاقات بين العالم الإسلامى وألمانيا فى القرن التاسع عشر . ففى الفترة

١٨٣٥ - ١٨٣٩ أدى القائد هيلموت فون مولكه خدمات جليلة للسلطان العثمانى ، بينما اعتنق د . إدوارد شنتش ، وهو مستشار مدنى ، الإسلام ، وحمل اسم محمد أمين باشا ، وصار فيما بعد حاكما لإقليم مصر الجنوبى ، حيث قام بأعمال متميزة . كذلك ، صار الكاثوليكى كارل ديتروات ، من براندنبرج ، بعد اعتناقه الإسلام ، قائداً برتبة فيلد مارشال فى القوات التركية باسم محمد على . أما القيصر فيلهيلم الثانى ، فقد أحرز قصب السبق ، وأصاب الهدف فيما يختص بالعلاقات الإسلامية - الألمانية من خلال ما بذله من جهود للظهور كمحام للعالم الإسلامى (فى مواجهة إنجلترا وفرنسا وروسيا) . فلقد تركت رحلاته إلى إسطنبول فى عام ١٨٩٥ ، وإلى دمشق والقدس فى عام ١٨٩٨ ، وإلى طنجة فى عام ١٩٠٥ بصماتها وآثارها الطيبة فى هذه البلاد .

لم يكن من قبيل الصدفة أن تحارب تركيا إلى جانب دول المحور (الوسط) فى الحرب العالمية الأولى ؛ فلقد عمل إنفر باشا ، المحرك الرئيسى للشباب التركى لفترة من الوقت ملحقا عسكريا لتركيا فى برلين . وكان من الضرورى أن يقام مسجد آخر بالقرب من برلين لأسرى الحرب المسلمين ، الذين كانوا يبلغون ١٥ ألف أسير معظمهم من روسيا وشمالى إفريقيا والسنغال . ولقد أقيم هذا المسجد ، الذى افتتح فى حضور السفير التركى عام ١٩١٥ ، عند زوسن ، ويعرف بمسجد فو ند سدورف .

ليس هناك مجال للحديث عن جماعة إسلامية من أصل ألمانى قبل عام ١٩٢٢ ، حيث التفت هذه الجماعة منذ ذلك التاريخ حول الهندى مولاى صدر الدين ، الذى تمكن فى عام ١٩٢٥ من استلام مسجد القبة فى برلين - فيلمر سدورف .

كان الأمر أثناء الحرب العالمية الثانية مختلفا ، إذ اتخذت مشكلة رعاية ٦٠ ألفا من أسرى الحرب المسلمين من الاتحاد السوفيتى والبوسنة بعدا مختلفا ، من حيث الحجم والشكل ، عما كان عليه الحال أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . فلقد أدت تحريضات المفتى أمين الحسينى ، الذى كان قد اتخذ برلين مقرا له منذ عام ١٩٤١ ، إلى رغبة الكثيرين من الأسرى المسلمين فى محاربة القوى الاستعمارية والإلحاد السوفيتى ، ومن ثم فقد انضموا إلى قوات الرايخ الألمانى (٥٢) . ولم تكتف القوات المسلحة الألمانية والقوات الخاصة بالسماح بإنشاء « معهد إسلامى » فى برلين فحسب ، بل لم يتركوا أيضا فرصة تفلت منهم لا ستخدام التتار والتركمان والبوسنيين والألبان لتحقيق أغراضهم . وفى سبيل ذلك ، أنشأت القوات المسلحة فى عام ١٩٤٤ مدرسة

عسكرية خاصة ، لتخريج رجال دين مسلمين على وجه الخصوص .

كانت الوحدات المسلمة ترتدي الزي العسكري الألماني ، مع شارة كتف بألوان العلم الفلسطيني ، وبشعار « أرض عربية حرة » مكتوبا باللغتين العربية والألمانية . (ومرة أخرى ، تصور ألمانيا نفسها على أنها « حامية » العالم الإسلامي) . ولقد انتهت هذه المغامرة بكثير من المسلمين إلى نهاية مأساوية ، في عام ١٩٤٥ . ولكن مسلما ألمانيا ، هو محمود هايتمان ، استطاع على أي حال أن يعيد المفتي الحسيني إلى القدس مرة أخرى .

احتلت الدراسات الإسلامية الألمانية مكانة مرموقة بين دراسات الاستشراق منذ القرن العشرين ، إلى جانب تمتعها بسمعة طيبة ، ما تزال تحتفظ بها إلى اليوم ، في العالم الإسلامي . ويعود ذلك إلى اتباع العلماء الألمان للمنهج الوضعي الذي كان يمثل روح وجوهر العلم في ذاك القرن . وهو ما يشكل نقيضا تاما لسلوكيات لورنس العرب ، الذي كان عميلا لقوات الاحتلال . وتظل محاولات ثيودور نولدكه (المتوفى في عام ١٩٣٠) ، لإثبات وتحقيق كل آية من آيات القرآن والتأريخ لها ، مثالا حيا على جدية البحث العلمي ، وقيمة باقية من قيمه حتى بالنسبة لعلماء المسلمين . وكذلك أفنى الأستاذ Rudi Paret من تينيجن حياته في دراسة القرآن ، وتوصل بدراسته إلى إثبات أنه خلف ووريث صالح ، في القرن العشرين ، لهذا الاتجاه العلمي المتأصل .

كان الألمان في تلك الأثناء ، قد دخلوا في « حوارات علمية » مع القرآن . وتعود أولى ترجمات القرآن إلى الألمانية إلى عام ١٦١٦ ، حيث ترجمها سالومون شفايجر[٥٣] ،ونشرت في نورنبرج تحت عنوان : قرآن الأتراك . . دينهم وخرافاتهم . ومن الممكن أن يتصور المرء كيف كانت هذه الترجمة ، إذا ما علم أن النص الذي نقلت منه لم يكن القرآن باللغة العربية ، وإنما كان منقولا عن ترجمة إيطالية منقولة بدورها عن ترجمة لاتينية سابقة لها .

ولقد تم تدارك هذا الخطأ وتصحيحه ـ منهجيا على الأقل ـ في عام ١٧٧٢ ، حين قام دافيد فريدريش ميجرلين David Friedrich Megerlin بترجمة القرآن من اللغة العربية ، ونشر الترجمة بعنوان «الكتاب المقدس للأتراك» . وهذه الترجمة هي التي قربت الشاعر جوته من الإسلام ، بعد أن دفعه هيردر إلى قراءتها ، حتى إن البعض يتصور إلى الآن أنه تحول إلى الإسلام في صمت تام . ومن المعروف عن جوته ، أنه كان يعتقد في الله كعلة أولى لكل شيء . ولقد ترك جوته في عمله الشعري (الديوان

الغربي ـ الشرقي » ملاحظة تفيد أن «الشاعر لا يستبعد هو نفسه أن يكون مسلما »(٥٤) . ولك أن تتخيل مدى سعادة جوته ، لو كان قد قدر له أن يقرأ المحاولة ، الوحيدة من نوعها حتى الآن ، التى قام بها الشاعر المستشرق فريدريك روكيرت Friedrich Ruckert من ترجمة القرآن إلى شعر ألماني (٥٥) . ومنذ ذلك التاريخ ، ظهرت حوالى ٢٠ ترجمة ألمانية للقرآن ، منها ست ترجمات متداولة الآن فى المكتبات ، من بينها ترجمتان فقط لكتاب مسلمين (٥٦) .

تتضاءل كل الاتصالات الألمانية ـ الإسلامية السابقة ، وتكاد تفقد بريقها ورونقها وأهميتها ، بل ربما يكون عليها أن تتوارى ، بالقياس إلى الاتصالات الجارية فى الوقت الحاضر ، من حيث نوعها وكثافتها . فالمرء لا يلتقى اليوم بالإسلام فى ألمانيا من قبيل الصدفة من حين إلى آخر ، على نحو ما حدث لجوته عام ١٨١٤ فى صورة جنود روس من باشكريستان ، وإنما يكاد يلتقى به فى كل خطوة يخطوها . فاليوم ، يعيش بيننا حوالى مليونى مسلم . ونفس الوضع يجده المرء فى إنجلترا ، وفى فرنسا ، وفى بلجيكا ، وفى هولندا . ويجرى اليوم بناء مساجد هائلة فى كل مكان : فى باريس ، ولندن ، وروما ، وفينا ، وزغرب ، وقرطبة ، وحتى فى مانهايم وفورتهايم .

تعتنق الإسلام اليوم أعداد متزايدة من الأوربيين فى جميع بلدان أوربا . وأصبح اعتناق الإسلام يمثل فى الآونة الأخيرة ظاهرة ، بعد أن كان من قبل حالات فردية ، كما فى حالة محمد أسد (ليوبولد فايس) ، أو الصوفى فريزوف شون . واليوم يجتذب الإسلام شخصيات من كل المجالات ، فتعتنقه وتتحول إليه . ففى مجال موسيقى البوب : يوسف إسلام (كات ستيفنس Cat Stevens) ، وفى مجال الرقص : موريس بيجار ، وفى مجال الرياضة محمد على كلاى (كاسيوس كلاى) ، وفى مجال السياسة : رجاء (روجيه) جارودى . وفى ألمانيا اعتنق الإسلام ٥٠ ألفا من السكان من أصول ألمانية .

يطرح هذا التطور مجموعة من الأسئلة ، هى :

- إلى أى من الطبقات ، ينتمى هؤلاء الذين تحولوا إلى الدين الإسلامى ؟
- ما دوافعهم ؟
- ما صورة تنظيمهم ؟
- ما موقف الحكومة من الاعتراف بهم ؟
- ما المشكلات التى تواجههم فيما يختص بالمدارس ، والطعام ، والعطلات ،

والصوم، وبناء المساجد ، ومراسم الدفن ؟

ـ هل يستطيع المرء أن يعيش كمسلم فى ألمانيا ، ويمارس حياته بشكل طبيعى ؟

ـ سأحاول الإجابة عن هذه التساؤلات فى السطور التالية :

يتوفر حتى الآن مرجعان عن الأسباب والطرق التى تؤدى بالأوربيين إلى اعتناق الإسلام . أحد هذه المراجع ألمانى ، أما الآخر فهو دولى .

فلقد قامت الكاتبتان : فاطيما شرقاوى Fatima Cherquawi وليزابث روشيه Lisabeth Rocher بتوجيه سؤال إلى عديد من المسلمين الأوربيين والأمريكيين ـ من خلال نموذج ثابت ـ عن الطرق التى أدت بهم إلى اعتناق الإسلام . ومن بين الألمان الذين وجه إليهم هذا السؤال :

Eva El Shabassy' Mohammad Hobohm' Arifa Gaspa

وضمنت الكاتبتان تحليلهما للإجابات التى تلقتاها عن سؤالهما كتابا أنيقا ذكيا هو : "D' une foi L' autre" أى « من دين إلى آخر »(٥٧) .

أما الكتاب الثانى ، وعنوانه« ألمان هداهم الله » ، الذى أشرف على إعداده محمد أحمد رسول ، فما هو إلا جمع مادة ، وصف شخصى للتحول إلى الإسلام . ومن بين من وصفوا تجربتهم هذه Hassan Natayisenga' Frank Abdullah Bubenheim و (Grimm.) Fatima Heeren(٥٨) .

وبالرجوع إلى الكتابين ، تبين عدم وجود طرق بعينها تدفع الإنسان وتؤدى به إلى الإسلام ، وإنما هناك دروب شخصية عديدة لا حصر لها تدفع إليه .

وبالرجوع إلى كلمات Rocher' Cherquawi ، يتبين أن المسلمين الأوربيين يلبون اليوم نداء داخليا ، كما حدث مع أسلافهم العظام ، أمثال الشيخ رينيه جينو Rene Guenon (١٨٨٦ ـ ١٩٥١) ، ومحمد أسد (١٩٠٠ ـ ١٩٩٢) الذى فسر اعتناقه الدين الإسلامى بأنه نتاج عملية نضج .

ويمكننا ، بالرغم من ذلك ، تقسيم الألمان الذين اعتنقوا الإسلام إلى أربع مجموعات سأسميها بغرض التيسير : « ألمان أجانب » ، و« أزواج » و« أعضاء جماعات الخضر» ، و« علماء الإسلام » .

أعنى «بالألمان الأجانب » ألمانا يعملون فى تونس أو فى أى بلد إسلامى آخر .

وهؤلاء وجدوا طريقهم إلى الإسلام من خلال إقامتهم فى هذه البلدان . وتضم هذه المجموعة مهندسين وفنيين وعمال صيانة وتركيب وخبراء فى مختلف المجالات والتخصصات ، وهم هؤلاء الذين تدفع بهم ال (GTZ) هيئة التعاون الفنى الألمانية إلى مختلف أرجاء العالم . ويشاركهم هذه الحال أعضاء السلك الدبلوماسى العاملون فى سفاراتنا بالخارج والملحقون العسكريون .

والمجموعة الثانية ، وهى «الأزواج» تضم الألمان الذين أحبوا مسلمات ، ولم يكن يجوز لهم الزواج منهن إلا بعد إسلامهم . ولقد قبل البعض منهم اعتناق الإسلام ليظفر بزوجته فقط لا غير . ولكن من يمد لله إصبعا ، فسيأخذ الله بيده إلى الطريق المستقيم .

أما المجموعة الثالثة ، فغالبا ما تضم شبابا يعترض على انحرافات المجتمع الصناعى الحديث ، ويريدأن يهرب من هذا المجتمع ، ويبحث بالتالى عن مخرج أيديولوجى . فهؤلاء يبحثون عن مجتمع عالمى أكثر عدلا ، تسوده أخلاقيات رفيعة . . مجتمع يخلو من تقسيمات وتدرجات هرمية معقدة . . مجتمع يبعث وينشر الدفء الإنسانى . . . مجتمع يوفر للإنسان السند ، ويمنح الحياة معنى عميقا . . . تلك الحياة التى فقدت قيمتها وأهميتها . وينحاز «الخضر» ممن اعتنقوا الإسلام إلى الجماعة الإسلامية بألمانيا ، ويميلون إليها ، لأنهم يجدون فيها البيئة الدولية ـ خاصة مع أناس من العالم الثالث ـ التى يقدرونها كثيرا .

تمر رحلة الوصول إلى الإسلام أحيانا عبر طرق ودروب غير مباشرة . . ليس هذا فحسب ، بل وعبر طرق تثير الدهشة والعجب . فالانضمام لعضوية جماعة اشتراكية ، أو مغازلة البوذية ، تعتبر إحدى الخطوات المعتادة ، بل التقليدية ، التى تصل بهؤلاء الناس عاجلا أو آجلا إلى المحطة النهائية . . إلى الإسلام .

والمجموعة الرابعة والأخيرة ، وهى « علماء الإسلام » المتخصصون فى الدراسات الإسلامية ، تتكون من طلبة حوالى ١٩ جامعة ألمانية ، تضم كل واحدة منها قسما للدراسات الإسلامية .

هؤلاء الطلبة يقدمون على دراسة الاستشراق لانجذابهم وشعورهم بميل للمنطقة العربية ـ الإسلامية . وما تلبث الدراسة أن تصبح أكثر من مجرد مواد تدرس ، أو تصبح تلبيةلنداء داخلى .

يستيقظ كثير من المسلمين الجدد ذات يوم ، ليجدوا أنفسهم وقد اعتنقوا هذا الدين . . . الإسلام .

وقد علقت المسلمة الفرنسية ، إيفا ميروفيتش ، التى تحظى بمكانة مرموقة ، على هذه العملية ، ووصفتها بقولها : « لا يعتنق المرء الإسلام ، بل يتخذ دينا يضم جميع الأديان الأخرى » . (٥٩)

ويبدو على مظهر معظم المسلمين الألمان ، أنهم اعتنقوا هذا الدين من خلال صلة أو علاقة ربطتهم ببلد عربى أو بتركيا أوبباكستان ، حيث يتكون لدى البعض منهم إعجاب بل انبهار بالشرق ، يظهر من خلال ملبسه . فالبعض منهم يرتدى الجلباب الواسع ، رغبة منه فى التشبه والاقتداء بالرسول ﷺ حتى فى المظهر الخارجى . ويغالى بعض آخر فى هذا الأمر ، فيرتدى عمامة .

ولقد لاحظ أحمد شميده أن البعض منهم يتعامل مع اللغة الألمانية بشكل يمثل ظاهرة « تطفل حضارى » ، فيقحم عليها الكثير من الكلمات العربية (٦٠) .

وإنى أتفهم بطبيعة الحال رغبة المسلم حديث الإسلام فى أن يظهر للعالم حوله ، خصوصا العالم المختلف عنه فى الاعتقاد ، أن تغييرا ما قد أصابه أو لحق به . ويرغب أيضا فى أن يتعرف عليه المسلمون الآخرون كأخ لهم فى جماعتهم . ولكننى أرى أنه من غير المجدى أن يسلك الألمانى ، الذى يعيش فى وسط أوربا فى القرن العشرين مسلك عرب منطقة الحجاز فى القرن السابع ، سواء أكان ذلك فى ملبسهم ، أم فى مأكلهم ، أم فى غيرهما ، لأنه بذلك يصبح « غريبا داخل وطنه » (عبيد الله بوريك) . وهذا النهج ، يحول الإسلام إلى ثقافة فرعية ، بل إلى أحد أشكال الفولكلور الدينى . وهذا يصيب الإسلام بلا شك بأضرار بالغة .

يحيا المسلم هنا دائما مهددا بأن يلقى معاملة العمال الأجانب . وبالتالى ، يتعرض للتفرقة والتمييز فى المعاملة . ويدفعه هذا إلى الانزلاق إلى حياة الجيتو . وهذا الوضع لا يليق ألبتة بالإسلام . فربما يحيا الإسلام كدين سرى فى الخفاء ، فى ظل نظام ديكتاتورى ، ولكن ليس فى ظل نظام ديمقراطى .

وتشكل هذه الإشكالية موضوعا لمناقشات عارمة ومستمرة بين المسلمين الألمان . والسؤال الذى يطرح نفسه دائما : ما وطن المسلم الألمانى ؟ هل يجب عليه أن يهاجر من أرض لا تعرف الله ، إلى أرض يعبد فيها الله ، كما فعل الرسول ﷺ عام ٦٢٠ ؟ ولكن إذا كانت ألمانيا وطنه - وهى كذلك فعلا - ألا يستطيع أن يبدو كألمانى فى ملبسه دون الشعور بالذنب ؟ (وإذا أطلق لحيته سنّة عن الرسول يكون ذلك أفضل) .

ولقد أثرى عبد الله بوريك Abdulla Borek المناقشة بالورقة التى قدمها فى اللقاء الثانى والأربعين للمسلمين المتحدثين بالألمانية ، فى ليتزلباخ ، يوم ٨ من يونية عام ١٩٩١ [٦١] وكان عنوانها : « فى وضع المسلمين الألمان ». ولقد أطلق تحذيرا - وبحق - من أن يصير الإسلام ، ذلك الدين العالمى ، بمعتقديه المليار ذَنَبًا للثقافة والسياسة التركيتين (ومن ثم نكون كمن يغذى الفكرة السابقة ، والتى تبناها يوما ما مترجما القرآن : ميزلين وشفايجر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حينما اعتبرا القرآن « كتاب الأتراك المقدس »). ويعتقد بوريك بضرورة أن يحمل مسلمون ألمان شعلة الإسلام فى ألمانيا ، حتى لا يستمر النظر إليه بوصفه« دينا أجنبيا »، ويذكر بحقيقة أن الإسلام قد تزاوج على مر التاريخ مع مختلف الحضارات : العربية ، والفارسية ، والهندية ، والإندونيسية ، والتركية ، وحضارة البربر . فلماذا لايكون لدينا « إسلام ذو ملامح أوربية » ؟

ولقد أثارت هذه المحاضرة جدلا كبيرا بصدد نقطتين وردتا فيها . إننى أتفق مع بوريك Borek فى مدخله النظرى ومنطلقات أفكاره . فلماذا لا يكتسب الإسلام صبغة أوربية ، من خلال تداخله وجدله مع الحضارة الأوربية ، طالما أنه لن يتحول إلى إسلام أوربى إصلاحى ؟! أى طالما أن وحدة الإيمان والدين لن تمس ؟ فمسلمو أمريكا وأوربا لديهم الكثير ليضيفوه للإسلام ، ويثروا به هذا الدين ، لأنهم لا يخفون فضولهم وشكوكهم . فهم لا يضخون إلى الإسلام دماءً جديدة فحسب ، بل ينظرون إليه بعيون جديدة أيضا . ونظرا لعدم تعرضهم للتربية التى تُخضع المرء للسلطة الدينية المنتشرة فى البلاد الإسلامية ، فإننى أراهم بلا شك مهيئين - إن لم يكن علميا ، فعلى الأقل نفسيا - لا لطرق أبواب الاجتهاد التى ظلت مغلقة لفترات طويلة فحسب ، بل لا جتيازها أيضا .

وإننى أصل إلى هذه النتيجة دون أن أدعى - كما فعل غيرى - أن الإسلام الحقيقى لا يوجد الآن فيما يسمى بالعالم الإسلامى ، وإنما يوجد فى أوربا والولايات المتحدة . ولقد عبر المسلم الفرنسى جون كارتيجنى Johen Cartigny عن هذا الرأى ، بمقولة قصيرة تحمل قدرا غير ضئيل من الاستفزاز ، «هى : الإسلام الحقيقى تجده فى المنفى » . وتنطلق وجهة النظر الصوفية الأوربية هذه من حقيقة مفادها : أن الإسلام ليس شأنا فرديا فحسب ، بل لابد أيضا من أن يعاود المرء دائما الرجوع إلى الإسلام ، « ومن أن يعاود اعتناق الإسلام » .

ولكن ، مما يدفع المرء إلى التفكير ، أن يصرح لى رجل يتسم تفكيره بالواقعية

الشديدة ، مثل محمد أسد ، في أخريات حياته ، بشكه في أنه ـ إذا ما عاد إلى شبابه ـ سيجد طريقه إلى اعتناق الإسلام في العالم الإسلامي اليوم . ولقد عبر في مرارة شديدة عن الرأى ، الذى تردد أخيرا بشكل مستلفت للنظر ، والقائل بأن الشرق يعج بأعداد غفيرة من المسلمين ، ولكن بالقليل جدا من الإسلام ، وأن بالغرب الكثير من الإسلام ، ولكن بالقليل جدا من المسلمين .

وبالنظر إلى هذا الموقف ، أتوقع أن تؤتى حركة الإحياء الدينى ، التى بدأت فى القرن التاسع عشر ثمارها فى القرن الحادى والعشرين ، من خلال تعاون علماء أوربيين وأمريكيين مع علماء عرب مستنيرين لا تنقصهم الجرأة والشجاعة ، وبصفة خاصة من المصريين ، إلى جانب علماء باكستانيين وماليزيين . ولقد هاجر بالفعل الكثير من هؤلاء من أوطانهم ، واستقروا فى الغرب . . . فى لندن ، و واشنطن ، ولوس أنجيلوس ، لأنهم يجدون هنا وهنا فقط العوامل والشروط الضرورية لنجاح العمل ، دون أن يتعرضوا لرقابة ما أو خطر يهدد حياتهم .

إننا ، إذا أردنا تقديم الإسلام كبديل حيوى وحديث فى عصرنا هذا ، فعلينا ـ لتحقيق هذا الهدف ـ أن نجرى عملية إصلاح هائلة ، تتلخص فى عدة نقاط :

١ ـ مراجعة الأحاديث النبوية ، وتنقيتها مما ألصق بها بدون وجه حق ، وهذا ما فعله في وقتهم عباقرة المحدِّثين ، مثل : مالك والبخارى ومسلم .

٢ ـ فصل الشريعة ـ وهي جوهر حق الله غير القابل للتغيير ـ عن أعمال الفقهاء .

٣ ـ توضيح وتحديد العلاقة بين القرآن والسنّة .

٤ ـ فصل العناصر الثقافية والحضارية للتقاليد والعادات الإسلامية ، عن جوهر الإسلام .

وهذه مهام ، يصاب المرء بدوارشديد إذا ما فكر فيها مجتمعة . [٦٢] ومع ذلك ، فإننى أجد اقتراح بوريك الثانى مثيرا للمشكلات . فهو يقترح أن ينظم المسلمون من أصل ألمانى أنفسهم فى مجموعة ذات مصالح خاصة ، تتمتع بتنظيم خاص ، يعبر عن مصالحها فى شكل « مجلس مركزى للمسلمين الألمان » .

فأنا أرى أن هذا الاقتراح يتنافى تماما مع مبدأ إسلامى أساسى وأصيل ، هو عدم التفرقة بين المسلمين وفق أجناسهم ، وألسنتهم ، وقومياتهم . ونظرا لأن ٩٧٪ من المسلمين فى ألمانيا من غير الألمان ـ وهو ما يشكل إزعاجا شديدا من الناحية التنظيمية ـ

فإن المسئولين يستخدمون هذه النسبة - بترحاب شديد - لرفض قيام أى تنظيم على هذه الصورة المقترحة .

وبطبيعة الحال ، فإن من الخطر إسقاط العداء للأجانب على الإسلام ، كما أن شق وحدة الصف ، وإشاعة الفرقة بين الأمة إلى ألمان وأجانب ، لهو عمل قاتل وغير مثمر . فهل من المعقول أن نطلب من الأتراك الذين يشكلون أكثر من ٨٠٪ من المسلمين فى ألمانيا ، ويتحملون القسم الأعظم من تمويل الأنشطة الخاصة بالمسلمين بها ، أن يمثلهم عامة الألمان ؟ !

إن على المسلمين الألمان أن يعملو على الإعلاء من شأن الإسلام، وعلى الحصول على اعتراف به ، متعاونين فى ذلك مع إخوانهم وأخواتهم من الأجانب .

تقودنا هذه المناقشة إلى خلفيتها الحزينة ، أى الانقسام المزعج الذى يعانى منه مسلمو ألمانيا . فالعمال الأجانب ، ينظمون أنفسهم بطبيعة الحال وفق معايير قومية ، إذ إن من الصعب أن يشعر المرء بأنه غريب . و إلى جانب ذلك ، تقوم بعض الدول ، التي تخشى الهجرة المضادة بتمويل الاتحادات الوطنية لمهاجريها . ولكن مما يؤسف له ، أن هذه التنظيمات تشهد انقسامات عرقية ، وسياسية ، ودينية . فالمرء ليس تركيا فحسب ، بل هو أيضا إما سنى ، وإما علوى . . . إما تركى من أصل كردى ، وإما تركى من أصل شركسى . . . إما صوفى ، وإما متشدد .

وكل هذا فى جانب ، والأسئلة التالية فى جانب آخر : ما موقفك من مصطفى كمال أتاتورك ؟ ما موقفك من حزب «الرفاه الإسلامى » ، ومن منظمة «رؤية العالم القومية : أوربا» التابعة لـ (AMGT) فى كولونيا ؟

ولهذا السبب ، نشأت فى أواسط الثمانينيات فى برلين مظلة تجمع تحتها ٢٧ جماعة إسلامية . وأبلغ مثال تلحظه العين المجردة على الانقسامات داخل نسيج العمال الأجانب ، هو تجاور مسجدين تركيين ، أحدهما تموله الوحدة التركية الإسلامية (DITIB) ، وهى مكتب خارجى لوزارة الأوقاف التركية ، ولا يتردد عليه كثير من المصلين . أما المسجد الآخر ، فيرعاه العمال الأجانب من الأتراك ، أو على وجه الدقة (AMGT) ، وهذا المسجد غالبا ما يمتلوء عن آخره بالمصلين والرواد .

ويكمن السبب الرئيسى لهذه المأساة التنظيمية ، فى أن جميع الانقسامات التى يعانى منها العالم الإسلامى تنتقل مع المهاجرين إلى ألمانيا . فالخلافات بين أتباع المذهب

السنى وأتباع المذهب الشيعى ، أو بين المتشددين والمتصوفة ، والخلافات المشتعلة بين الحكومات ، وبين الحكومات والمعارضات تجد طريقها إلى الأراضى الألمانية . ناهيك عن محاولات التأثير السياسية التى يمارسها كل من ليبيا ، وإيران ، والسعودية ، والسودان .

هل ترغب فى رؤية مسجد للشيعة ؟ إنك لست فى حاجة إلى الذهاب إلى النجف . . فالطريق إلى هامبورج يفى بالغرض . هل ترغب فى عقد مقارنة بين متصوفة طريقة النقشبندية السنّية ، وطريقة بكتاظى (الملفقة من مدعى المسيحية ومدعى الشيعية) ؟ . . . لا تسافر إلى الأناضول ، فألمانيا تفى بالغرض . هل تريد إجراء حوار مع العلويين المميزين بعواطفهم الخفيفة ؟ . . هيا ، لنقم بذلك هنا فى الحال . هل ترغب فى مقابلة ممثلين لمنظمة المؤتمر الإسلامى (OIC) - طائفة الأحمدية الباكستانية سابقا ؟ . يكفيك لتحقيق ذلك أن تقوم بزيارة قصيرة إلى فرانكفورت .

ينشأ المسلمون على فكرة أن التنوع - التعدد فى الإسلام - تراث فيتبعونه . ولكن حتى هذا التراث يأخذ أحيانا أشكالا مبالغا فيها تصل إلى حد المغالاة . ولا تبدو صورة المسلمين من أصل ألمانى أفضل من ذلك . فالمرء منا يعتقد أننا جميعا فطرنا على الانعزال وإعلاء قيمة الفرد . ولكن أيا كانت قيمة وثراء مساهمات الأفراد . فإن الجماعة والفعل المشترك يعتبران من أهم مقومات الحياة الإسلامية .

من الجائز أن يقوم سكرتير عام منظمة المسلمين الألمان بأعمال مفيدة ، وأن يؤدى القائم على أعمال أرشيف الإسلام [٦٣] أعمالا جليلة للإسلام من خلف مكتبه فى Soest ، ولكن المشاركة فى حياة الجماعة تأخذ صورة أخرى ، وتكتسب كذلك قيمة عظمى .

غير أنه لا يجوز بطبيعة الحال أن نأخذ على الشيعة الألمان إدارتهم لمركز خاص بهم ، وإصدارهم صحيفة ناطقة بلسانهم فى هامبورج [٦٤] . ومن الطبيعى كذلك أن يكون للمتصوفة مركز ودار نشر خاصة بهم [٦٥] ، على الرغم من أن دورهم محدود جدا إذا ما قورن بالدور الذى يقوم به المتصوفة فى بلد الجوار فرنسا ، حيث يتبع معظم معتنقى الإسلام نهج ابن عربى (ولد فى مرسية عام ١١٦٥ ، وتوفى بدمشق عام ١٢٤٠) الملقب بـ« الشيخ الأكبر » . (تعود بدايات هذه الظاهرة إلى رينيه جينون الذى عرف فيما بعد بالشيخ عبد الواحد يحيى شيخ الطريقة الشاذلية) . ويتحرك المتصوفة الفرنسيون المحدثون من أمثال Eva de Oitray Michel Chodkiewicz

Meyerovitch و Charles Andre Gtelis مثل معلمهم ابن عربى فى منطقة الحدود التأملية بين الغنوصية الضاربة بجذورها فى أعماق الفلسفة الإغريقية (أى معرفة الله) ومذهب وحدة الوجود .

وتختلف الصورة كلية إذا ما انتقلنا إلى ألمانيا . فبفضل التأثيرات التركية ، غالبا ما يتبع المتصوفة مذهب دراويش النقشبندية المتشددين ، الذين ترجع نشأتهم إلى منطقة وسط آسيا . ولذلك ، فليس من قبيل الصدفة أن تكتب المتصوفة الألمانية Michaela Mihibran Ozelsel أكثر الكتب علمية وعقلانية عن التصوف الإسلامى (٦٦) .

إننا نعتقد أن هناك ٨ أو ٩ مجلات إسلامية تصدر فى ألمانيا ، من بينها « المجلة المسلمة » التى صدرت عام ١٩٢٤ فى حجمها الصغير ، وكذلك المجلة النسائية الإسلامية « هدى » التى تصدر فى مدينة بريمن ، و « الجريدة الإسلامية » التى تصدر فى مدينة فايمار .

وعلى الجانب الآخر ، هناك إصدارات متفرقة ، يتخطى توزيعها منطقة طباعتها ، مثل : « الإسلام » ، و « الإسلام الآن » . وهذه الإصدارات تطبع فى ميونخ وتعد أكثر المطبوعات الإسلامية انتشارا وأكثرها حيوية ، وأعظمها أهمية فى ألمانيا (٦٧)

أما وجود دور نشر ، مثل « المكتبة الإسلامية » Raln Dwinwald (٦٨) و « S.K.D - بافاريا » (٦٩) بميونخ ، فهو أبلغ دليل على وجود دور نشر يدير كلا منها رجل واحد ، وتعانى من ضآلة رأس المال والتخلف التكنولوجى ، بدلا من وجود دار نشر إسلامية كبرى حديثة ، قادرة على تحقيق إنجازات كبيرة .

وثمة سلبية أخرى للعمل الفردى ، تتمثل فى اللجوء إلى بعض « الخداع المهذب » ، أو « الكذب الدبلوماسى » . فلك أن تتخيل وضعك كمتحدث عن القسم الألمانى بالمؤتمر الإسلامى العالمى (الذى فقد أهميته) ، أو رابطة المسلمين الألمان . (٧٠) فلقد كانت المنظمتان وما تزالان حتى الآن ذواتى نفع كبير ، ولكنهما أقرب إلى دائرة أصدقاء صغيرة ذات اسم كبير ، وبالتالى فقدنا الكثير من فاعليتهما .

أما مبادرة محيى الدين لودن ، التى قام بها عام ١٩٨٩ ، لإنشاء حزب إسلامى (٧١) على مستوى ألمانيا كلها ، فقد ماتت فى مهدها ولم تر النور . ولقد كانت فى حقيقة الأمر أكبر بكثير مما يتحمله واقع الحياة فى ألمانيا ، حيث يوجد ٥٠ ألف مسلم فقط يتمتعون بحق الانتخاب . ففى مقاطعة Nararhein Westfalen ، حيث يتركز غالبية

المسلمين الألمان (١٤ ألفا تقريبا) ، يكون حزب كهذا بلا فاعلية أو فائدة تذكر .

إذا أراد المسلمون في ألمانيا أن ينالوا الاعتراف بهم ، فإن عليهم إقناع الناس بأن يأخذوهم مأخذ الجد . وإذا رغب المسلمون في تحقيق هذا ، وجب عليهم في المقام الأول أن يحذروا من أدنى شبهات الدجل والاحتيال والنفاق في عملهم .

أما أهدافهم السياسية ، فلا يمكن تحقيقها ـ في المستقبل القريب ـ إلا من خلال الأحزاب السياسية الموجودة بالفعل على الخريطة السياسية الألمانية ، حتى وإن لم يتفقوا مع كل ما تتضمنه برامجها السياسية ، وأن يتم مع ذلك العمل بشكل ثابت على أن يكون هناك تفهم للإسلام ، وعلى الاعتراف به ، والعمل على نشره . وتقوم جماعة من النساء والرجال بالعمل بجد ونشاط على تحقيق هذه الأهداف من أمثال :
Ahmad von Denffer , Muhammad Siddiq ,Harun Bahr Fatima Grimm , Dr Mehmed , Amina Erbekan Hobhom ; Hassan Haacke Abdul karim Grimm Muhammad ~Amen Dr Ayulb kohler وكذلك بعض المؤسسات مثل : « بيت الإسلام » في Odenwold VC ونزل دار السلام التابع له ، والذي يتمتع بإدارة إسلامية والعديد والعديد من المراكز الإسلامية الأخرى المنتشرة في ألمانيامن آخن شمالا إلى ميونيخ جنوبا ، ومن كارلسروهه إلى برلين .

يتسم مناخ العمل في هذه المؤسسات والمراكز بالإصرار والعزم على إعلاء كلمة الله ، وذلك دون مزايدات أو صراع . فهي تعقد مؤتمرا تلو الآخر ، وتقيم معسكرات للشباب ، وتنظم أسابيع إعلامية بشكل مكثف ، إلى جانب تنظيم رحلة حج تلو الأخرى . وفي كل ذلك ، يجري العمل بإيمان عميق ، وتفان منقطع النظير ، ولا ينقصه الإخلاص ولا الأمانة والأخوة . ويطلق على هذا الأسلوب من أساليب العمل : العمل من القاعدة ، أي رعاية جذور الشجرة بصبر وتأن ، بدلا من الرغبة في جني ثمارها حتى من قبل أن تنمو .

إنني أشيد بنشاط الجماعة الإسلامية بميونخ ، التي تتأثر كثيرا في عملها بالكاريزما التي تتمتع بها شخصية أحمد فون دنفر . وليس من قبيل الصدفة ، أن تقام أولى دور الحضانة الإسلاميةوأول مدرسة ابتدائية إسلامية في ألمانيا بميونخ . وتضم المدينة ، بالإضافة إلى ذلك ، أول مركز للخدمة العامة بصيغتها الإسلامية ، كما تتخذ منها هيئة تحرير مجلة «لإسلام» مقرا لها . وهي إلى جانب ذلك ، تضم المركز الرئيس للكشافة الإسلامية (٧٣) ، والمركز الرئيس لمنظمة المعونة والإغاثة : « المسلمون يتعاونون» . كل هذه المؤسسات توجد في ميونخ ، أو بالقرب منها (٧٤) .

لم يكن من قبيل الصدفة إذن أن يكون للمركز الإسلامي بميونخ ، وكذلك للجماعة الإسلامية في جنوبي ألمانيا ، الحق بل السلطة - أثناء مسألة سلمان رشدي - في إدانة واستنكار التهديد بالقتل ، الذي أطلقته السلطات الإيرانية الشيعية ، ضد الكاتب المجدف سلمان رشدي . ولقد قامت الجماعة باتخاذ الموقف اللائق ، والرد قولا وفعلا على هذا الأمر (٧٥) .

وفيما يختص بالأشكال التنظيمية للمسلمين في ألمانيا ، تمثل (TDM) «اللقاءات المسلمين الناطقين بالألمانية » ، التي أخذت شكل المؤسسة ، تطورا إيجابيا ، ليس فقط من المنظور التنظيمي ، بل وأيضا بما تحققه بالفعل من أهداف .

ولا يمكن ذكر هذه اللقاءات ، دون الإشارة إلى الإسهامات القيمة لكل من أحمد فون دنفر ومحمد صديق . وتعقد هذه اللقاءات سنويا منذ عام ١٩٧٦ ، ثم صارت تعقد منذ عام ١٩٨١ ثلاث مرات في العام الواحد . ولقد كثر عقد هذه اللقاءات ، حتى إنه تعقد الآن - بالإضافة إلى اللقاءات المركزية - عدة لقاءات محلية في العام الواحد .

هذه اللقاءات مُدت فيها ، منذ وقت مبكر ، الجسور بين المسلمين بعضهم وبعض . ووضعت هذه اللقاءات نصب عينيها محاولة إيجاد حلول للمشكلات الملحة التي تواجه المسلمين في ألمانيا ، مثل : الدروس الدينية بالمدارس ، ومراجعة الكتب المدرسية وإعادة النظر فيها ، وإقامة مظلة تضم مسلمي ألمانيا كافة (٧٦) .

ولقد كنت أشارك في الفترة من (١٩٨٠ - ١٩٨٧) في اللقاءات الشتوية بمسجد بلال في مدينة آخن . ولقد عادت هذه اللقاءات عليّ بمكاسب طائلة ، خصوصا تلك اللقاءات التي تعقد في عطلة نهاية الأسبوع . ولا يعود ذلك إلى المحاضرات ومجموعات العمل ومعارض الكتب فقط ، بل وأيضا إلى لقائي بمسلمين جدد ، وكذلك لمتعة الأحاديث المتجددة والشائقة ، والتي نتجاذب أطرافها حين تضمنا مائدة طعام واحدة ، حيث كان كل منا يضيف للآخر شيئا جديداً .

وتمتاز هذه اللقاءات بالتنويع ، لأن معظم المشاركين فيها مسلمون أجانب ، ينتهزون هذه الفرصة لارتداء أزيائهم الوطنية . وتستطيع أيضا أن تتبين من هيئة بعض المسلمين الألمان ما إذا كان الذين عاونوهم في التعرف على الإسلام عربا ، أم أتراكا ، أم باكستانين (٧٧) ، حيث يتأثرون بهم حتى في ملبسهم .

كانت هذه اللقاءات تضم ، بالإضافة إلى المسلمين ، ملاحظين ومراقبين من المكتب

الاتحادى لحماية الدستور . وكان هؤلاء يستمتعون بهذه اللقاءات ، ويجدون فيها قدرا غير قليل من السعادة .

يواجه المسلم فى ألمانيا دائما خطر الدخول فى صراع مع العالم المحيط به ، والصدام مع من يقاسمونه الحياة في هذا البلد . فهو يسبح ضد التيار السائد ، ويحيا وفق منظومة قيم مغايرة لمنظومة القيم التى يتبناها السواد الأعظم من مواطنى هذا البلد. ومن مظاهر هذه المشكلات ، عدم السماح للعامل بأداء الصلاة فى مكان عمله وأثناء مواعيد العمل ، وعدم توفر مواد غذائية يحل للمسلم تناولها بمحلات بيع الطعام ، وصعوبة الحصول على لحوم ذبحت وفق الشريعة الإسلامية لتناولها بالمنزل .

أما النصيب الأوفر من هذه المشكلات ، والقدر الأكبر من الأضرار الناجمة عنها ، فينا لهما الأطفال . فالفتيات ، يتعرضن للسخرية ، بسبب ارتدائهن الحجاب ، أو لامتناعهن عن دروس السباحة المشتركة مع الفتيان ، أو لرفضهن ارتداء ملابس بحر مكونة من قطعتين ، وهو الأمر الذى يعرضهن للمساءلة أمام محكمة القضاء الإدارى ومن دواعى سرورى ، أن محكمة القضاء الإدارى بميونخ ، أقرت فى عام ١٩٩٠ أنه فيما يخص دروس السباحة المختلطة ، فإن حق التربية الذى يتمتع به الوالدان يمكن أن يحد من واجبات وتكاليف التربية التى تتمتع بها الحكومة ، وبصفة خاصة إذا ما استند الوالدان إلى أسباب دينية . هذه الواقعة ، تلتها حادثةأخرى عام ١٩٩١ ، حيث أعفت محكمة القضاء الإدارى فى مدينة بريمن تلميذة تركية من حضور دروس الألعاب الرياضية المشتركة للسبب ذاته : أسباب دينية . أما أكثر ما أسعدنى ، فهو قرار المحكمة بأن تفسير القرآن شأن يخص الوالدين ، وليس المسئولين أو المحكمة ، أى أنه ليس من حق أحد من غير المسلمين أن يفرض على الوالدين التركيين تفسيرا للقرآن .

يعانى الأطفال المسلمون أكثر مايعانون أثناء دروس التاريخ ، بسبب التشويه والافتراءات التى يتعرض لها الإسلام وتاريخه على صفحات كتبهم المدرسية . ولقد تكونت فى اللقاء الخامس للمسلمين الألمان عام ١٩٧٧ مجموعة عمل لتصحيح هذا الوضع . وتحمل هذه المجموعة اسم «كتاب مدرسى» وانبثق عنها فى كولونيا مشروع بحثى عن الإسلام فى الكتب المدرسية فى ألمانيا الاتحادية . ويقوم عبد الجواد الفلاتورى بدفع هذا المشروع وتدعيمه ، ويشاركه فى هذا بعض الشخصيات غير المسلمة مثل : Peter Hans Oalking و Udo Tworuschka .

ولقد قامت هذه المجموعة بتحليل حوالى ٦٠٠ كتاب مدرسى مصرح بها فى الفترة

ما بين ١٩٧٩ و ١٩٨٦ ، فى مواد التاريخ ، والجغرافيا ، والمذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى [٧٨] . وجاءت النتائج لتثير إزعاجا كبيرا ومخاوف هائلة ، إذ أعادت إلى أذهاننا مدى قدرة الفرد على ارتكاب جرائم مروعة وهو جالس خلف مكتبه ، من خلال ممارسات بيروقراطية وإصدار أوامر ، دون أن تمس يده إحدى ضحاياه (نسبة إلى إيخمان وتسببه فى قتل أعداد كبيرة من اليهود ، من خلال إصداره قرارات بعينها ، وذلك دون أن يمس إنسانا واحدا بيديه) . فهل نستطيع ، بعد مراجعة الكتب ، أن نستبعد من مضمونها ومحتوياتها ما ينطوى على تصوير سلبى للإسلام ، يُعدّ أحد دوافع العنف ضد المسلمين ، أو أحد أسباب كراهية الألمان المستمرة للإسلام ، والتى ترتب عليها محاولة إحراق المركز الإسلامى بميونخ عام ١٩٩٤ ؟

قام فلاتورى ، استنادا إلى هذا التحليل ، بنشر عدة اقتراحات محددة ، بغرض تحقيق تناول الإسلام وتاريخه تناولا موضوعيا فى كتبنا المدرسية [٧٩] .

وعلى الرغم من هذه المحاولات ، فإن معاناة حوالى ٥٠٠ ألف طفل مسلم فى المدارس الألمانية ما تزال مستمرة ، وذلك لأن تدريس مادة الدين الإسلامى بالمدارس الحكومية لم يصبح بعد أمرا طبيعيا مسلما به ، وذلك على الرغم مما أعلنه وزير التعليم Krollmann بمقاطعة هيسن فى عام ١٩٨٤ من أن مساواة الإسلام بالكنائس المسيحية أمر دستورى [٨٠] .

ويدعى بعض البلدان الاتحادية أن تدريس مادة الدين الإسلامى بالمدارس ، يتطلب الاعتراف أولا بالدين الإسلامى كدين لجماعة ما ، متمتعة بالحقوق العامة .

وتعرب بلدان أخرى مثل Nordrhein Westfalen عن استعدادها لتدريس الدين الإسلامى ، ولكن وفق منهج تحدده هى . وتقوم بلدان أخرى بتوفير فصول خاصة بالمدارس ، لتدريس الدين الإسلامى . ولقد سمحت مقاطعة بايرن ، فى أول بادرة من نوعها ، بإنشاء مدرسة خاصة للمسلمين تدعمها المقاطعة .

أما صيام العمال والأطفال خلال شهر رمضان ، فيقابل بشىء غير قليل من التوجس وعدم الترحيب . ويسعد الأطفال أيما سعادة ، إذا ما أعفوا يوما واحدا من المدرسة أثناء عيد الفطر .

أما مسألة المساجد وبنائها ، فتثير الحزن فى النفس ، لما يتم من وضع العراقيل كافة فى سبيل تحقيق ذلك ، سواء تم ذلك بطرق مشروعة أو غير مشروعة ، ويتم هذا فى حين تتعاون الجماعات الإسلامية لبناء الجوامع .

تتشابه البوسنة إلى حد كبير مع منطقة جبال الألب ، بمقاطعة بايرن ، من حيث طبيعة كل منهما . ولكن فى حين تنسجم مئذنة جامع مع طبيعة البوسنة ، فإنها على ما يبدو تتنافر بل تشوه طبيعة بايرن المسيحية . فأهل المقاطعة ، يرون فى مرأى مدخنة مصنع ينبعث منها الدخان بكثافة قيمة جمالية أكبر وأرقى من مرأى مئذنة .

وغالبا ما يضطر المرء لخوض غمار حرب فى المحاكم ، للحصول على تصريح البناء . ولقد شن أحد مواطنى مدينة Kahl عام ١٩٨٩ حربا صليبية شعواء لوقف بناء جامع ، حتى إن حربه هذه وصلت آخر الأمر إلى المحكمة الإدارية الاتحادية . وقد طالب هذا المواطن المحكمة بحمايته من الإزعاج الذى سيصيبه ليلاً ، عندما يرتفع صوت الأذان ليدعو لصلاة الفجر . ولكن لسوء حظه ، فإن الحى الذى يقطنه يعج بأماكن تنبعث منها الضوضاء ، وبه كذلك كنيسة تدق أجراسها .

أما الشيء المخزى ، فهو عملية المساومة بشأن ارتفاع المئذنة . حتى إذا ما استصدرت تصريحا لبناء جامع ، فلا يجب أن يتعدى ارتفاع المئذنة ارتفاع برج الكنيسة المجاور . ويعتبر نجاح المسلمين فى مدينة Pforzheim فى بناء مئذنة يصل ارتفاعها إلى ٢٦ مترا إحدى معجزات التسامح . أما إخوانهم فى Bobingen ، فقد أرغموا على الحد من ارتفاع المئذنة ، والوصول به من ٢٦ مترا إلى ١٢ مترا ، وما زالت قضيتهم محل خلاف ومتداولة فى المحاكم . أما فى مدينة آخن ، حيث يواجه المسلمون صعوبات هائلة لتوسيع الجامع الذى ضاق برواده ، فى هذه المدينة لا يحاول حزب الخضر إخفاء أسبابه الحقيقية ، أو حتى التعبير عنها بشكل دبلوماسى ، فى وضع العراقيل أمام المسلمين لتحقيق هذا الغرض . وأسبابهم تلك إنما هى أسباب سياسية بحتة (٨١) . وهم بذلك إنما يحرمون فى واقع الأمر ٢٠ ألف مسلم يعيشون فى آخن وماحولها من ممارسة حرياتهم الدينية ، بالمعنى العميق والدقيق للكلمة ، وهذا بمثابة إعلان الحرب على الإسلام .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى صور أخرى من التعسف . فبعض المصالح ، تسمح ببناء مئذنة ، ولكن مع الالتزام والتعهد بعدم استخدامها فى غرضها الأساسى ، أى لرفع الأذان !! ويكون هذا الشرط مقبولاً ، إذا ما منعت هذه المصالح دق نواقيس الكنائس ، ولكنهم بالطبع لا يفعلون ، لأن الكنائس تتمتع بحماية يكفلها لها « الحق العرفى » ، وكأن مادة الدستور التى تنص على المساواة لا قيمة لها مقارنة «بالحق العرفى » .

ولقد لجأ مسلمو إسبانيا إلى هذه الحجة القانونية ، ونجحوا من خلالها فى رفع الأذان مرة أخرى فى قرطبة عام ١٩٩٤ ، بعد انقطاع دام خمسة قرون .

وأتساءل أحيانا متهكما : هل تصبح الجوامع فى ألمانيا محتملة ، إذا ما دقت الناقوس إيذانا بموعد الصلاة بدلاً من رفع الأذان ؟!! (٨٢) أو أن ينطلق المؤذن مرددا «بِم بَم - بِم بَم» بدلاً من « الله أكبر » ؟!!

وإنه لمن المثير للتفكير وللدهشة فى آن واحد ، أن يضطر المسلمون إلى اللجوء للقضاء ، حتى يحصلوا على حقوقهم ، ويتمكنوا من ممارسة حرياتهم . ويدل هذا بطبيعة الحال على أننا نحيا فى دولة يحكمها الدستور ، لكنها لا تعمل فى حقيقة الأمر بروح هذا الدستور !

وربما يعتقد المرء أن مشكلات المسلم فى ألمانيا ، والتى يواجهها فى حياته ، قد تنتهى بوفاته ، ولكن هيهات !! فإجراءات الدفن وفق الشريعة الإسلامية تلقى اعتراضات هائلة ، وتُقاوَم بشدة !! فالمسلم يرغب فى أن يدفن راقدا على جانبه الأيمن ، موليا وجهه شطر مكة . ولكن هذا الشرط لا توفره إلا مقابر محدودة جدا . ويجب أن يدفن المسلم فى ثلاثة أكفان بيضاء ، ولا يتم وضعه فى نعش . والمدافن الألمانية لا تجيز ذلك بطبيعة الحال . (وهم يطيلون بذلك فى الفترة الزمنية ، مما يزيد من احتمال التعفن) (٨٣)

ولا ينتهى الأمر عند حد الوفاة ، بل يتعداه إلى مسألة الميراث . فالمسلمون يتمسكون بقوانين الميراث المنصوص عليها فى القرآن ، والتى تنظم وتحدد جميع الموضوعات المتعلقة بالإرث فى أدق تفصيلاتها ، مثلها مثل القوانين المدنية ، إن لم تتفوق عليها فى الدقة والعدل . ولذلك لا يجد المسلم فى ألمانيا مخرجا إلا توزيع ثروته فى حياته على المستحقين من الورثة وفق النص القرآنى . أما إذا اعترض أحد الورثة ، ولم يقبل بهذا ، فإن محاولة المسلم تطبيق شريعته تلقى الفشل .

ويعتقد البعض أن جانبا من المشكلات التى استعرضتها ، قد تخف وطأتها ، وتجد لها طريقا للحل ، إذا ما توفر لمسلمى ألمانيا جهة واحدة تمثلهم ، وتكون شريك حوار مع المسئولين الألمان والبرلمان . وهذه القضية موضع نقاش منذ اللقاء الثانى للمسلمين الناطقين بالألمانية ، والذى انعقد يومى ٨، ٩ من أكتوبر عام ١٩٧٦ بميونيخ . وطرح السؤال التالى نفسه : هل تتم خدمة الإسلام والعمل على رفعة شأنه فى هذا البلد عن طريق تشجيعه وتنميته ، سالكين الطريق من « القمة هبوطا » أو من « السفح صعودا » ؟

وتمثلت إجابتى دائما فى تصريحى بأن الطريقتين لا تمثلان خيارين ، بل هما عمليتان متزامنتان تكملان بعضهما البعض . ونصل بذلك إلى نتيجة مفادها : لا بد من المحاولة فى الاتجاهين .

ويشير مفهوم من « القمة ـ هبوطا » ، فى المقام الأول ، إلى المجهودات التى تبذل حتى ينال الإسلام اعترافا حكوميا ، حتى تتاح لممثليه إمكانات العمل على نشره فى الحياة العامة فى ألمانيا ، وبشكل علنى يتمتع بحماية الحكومة . . تلك الإمكانات التى تتمتع بها كل من الكنيسة الكاثوليكية ، والكنيسة البروتستانتية، وكنيسة الإصلاح ، وكذلك الجماعات اليهودية . ومن البديهى ، أن تنعكس آثار مثل هذا الاعتراف على مجالات عدة ، هى على سبيل المثال وليس الحصر : المدرسة ، الدخل المالى ، ضريبة الكنائس ، تنظيم الأعياد ، التعامل مع وسائل الإعلام، وغيرها من المجالات .

ولقد أدرت مؤتمرا حول شروط وفروض تحقيق هذا الاعتراف . وقد عقد هذا المؤتمر فى « بيت الإسلام » بـ Lutzelbach فى يومى ٧ ، ٨ من مارس عام ١٩٨٧ . وقد ارتكز هذا المؤتمر على مذكرة كنت قد نشرتها من قبل ، موضوعها : تأسيس « جماعة إسلامية » . ولقد أوضحت للمشاركين أن المادة الرابعة من الدستور تشكل نقطة الانطلاق والبداية التى يستند إليها اعتراف قانونى وشامل بالإسلام فى ألمانيا الاتحادية ، وذلك لأنه بناءً على هذه المادة ، فإن الدستور يكفل لكل جماعة دينية مبدأ « ممارسة الدين بدون إزعاج » . أما تفسير هذا ، فنجده فى المادة الخاصة بالدين ، الواردة فى دستور فايمار ، والذى انتقل عبر المادة ١٤٠ إلى الدستور الحالى .

ولقد نبهت إلى وجود نقطة أساسية فى المادة ١٣٧ ، والتى تنص على أن المسئولين فى كل مقاطعة لهم الحق فى منح أى جماعة دينية مشكلة ومنظمة وفق قانون الاتحادات وضع الهيئة المتمتعة بالحق العلنى .

ويتطلب هذا ، وفق المادة ١٣٧ ، ضرورة أن تثبت الجماعة الدينية « من خلال دستورها وعدد أعضائها إمكانية استمرارها » .

ولقد اتفقت الآراء على وجود عدد وفير من المسلمين فى ألمانيا ، ولكنهم غير «دستوريين » ، بمعنى أنهم ليسوا أعضاء فى منظمة إسلامية واسعة تضمهم جميعا . ولذلك ، فإننا نرى أن نولى أهمية قصوى لتأسيس جماعة إسلامية فى ألمانيا ، بل نجعل لهذا الهدف الأولوية المطلقة .

ولكننا نتوقع مع ذلك ، حتى بعد تحقيق هذا الشرط ، أى بعد أن يتم تنظيم المسلمين فى شكل « دستورى » ، أن تواجهنا عقبات وعراقيل أخرى ، لمنع قيام تنظيم إسلامى . وسيكون شرط « ضمان الاستمرار » العقبة التى سيضعونها فى طريقنا ، وستتمثل حجتهم فى أن العمالة الأجنبية تشكل الغالبية العظمى من مسلمى ألمانيا ، وهؤلاء تمنح لهم تصاريح إقامة محدودة المدة . وهم يتبعون مبدأ يرفعونه : « ألمانيا ليست بلدا أو موطنا للمهاجرين » .

ولقد بدأ المسلمون ، بالرغم من ذلك ، فى العمل على توفير الشروط اللازمة لاعتراف كامل بالاسلام ، وذلك من خلال تحقيق شكل تنظيمى أفضل للتجمعات المسلمة ، الموجودة حاليا فى ألمانيا . ولقد أدرك المسلمون - فى حرج بالغ - فى السنوات الأخيرة عدم وجود منظمة تمثلهم (٨٤) .

ولقد حاول ابنى ألكسندر - وهو غير مسلم - أن يصوغ فى عدة نقاط ما يمكن أن يحققه « اتحاد المسلمين » من إنجازات هائلة :

١ - تمثيل المسلمين فى المجالات الخارجية كافة .

٢ - انتخاب الإمام الأكبر للمسلمين فى ألمانيا .

٣ - العمل على الاعتراف بالإسلام ، كهيئة ، أو جمعية دينية .

٤ - إدارة مكتبة مركزية ، وأرشيف للرجوع إليه لأغراض وثائقية .

٥ - إصدار مرجع للمسلمين فى ألمانيا .

٦ - تنظيم لقاءات ، معارض ، رحلات حج ، وغيرها من الرحلات الجماعية .

٧ - إصدار نشرة تتضمن إعلانات ، بما فيها إعلانات زواج .

٨ - تشجيع بناء المساجد .

٩ - توزيع منح دراسية لغير القادرين من الطلبة المسلمين .

ووضع مشروع مثالى كهذا ، ربما يتطلب فعلاً شابا عمره ٢٣ عاما ، كما كان ابنى عندما صاغ هذه النقاط .

ولكن ، تكون اليوتوبيا ذات فائدة هائلة إذا ما استطاعت أن تمهد الطريق لرؤية ما .

ولقد أدت محاولات وضع خطة عمل إلى تعاون بين المسلمين فى ألمانيا . . تعاون

يتخطى الحدود المحلية ، ويضم جميع مسلمى ألمانيا . ولقد تحقق ذلك عام ١٩٨٨ ، ونتج عنه تكوين «مجموعة عمل دائمة للجمعيات الإسلامية فى ألمانيا» ، فى تاريخ ٣/ ١٢/ ١٩٨٨ ، فى مدينة كولونيا . وتمثل هذه المجموعة مظلة للجمعيات الإسلامية فى ألمانيا ، وقد لجأت إلى استخدام العنوان البريدى لاتحاد المراكز الثقافية الإسلامية .

وانبثق عن مجموعة العمل هذه ، « المجلس المركزى لمسلمى ألمانيا » (LMD) والذى يعود تاريخ تأسيسه إلى ٢٧/ ١١/ ١٩٩٤ فى مدينة كولونيا . ويرأس هذا المجلس الطبيب السعودى / الألمانى نديم إلياس [٨٥] . ولقد رحبت جريدة فرانكفورتر ألجمانيه Frankfurter Allgemeine ترحيبا حارا بهذا المجلس .

ويعتبر المجلس نفسه بطبيعة الحال - قياسًا على وضع وواجبات المجلس المركزى ليهود ألمانيا - شريك حوار ، وجهة تخاطب مع الدولة الألمانية ، و الإدارات وجماعات المجتمع المختلفة .

وتستند هذه المطالب إلى أن هذا المجلس المركزى قد ضم عند تكوينه ١٥ منظمة مركزية ، تشمل حوالى ١٢٠٠ جمعية إسلامية . . أى أن المجلس يمثل منذ البداية حوالى ٧٠٪ من مسلمى ألمانيا .

ولا يضم هذا المجلس المركزى مجموعات يديرها ألمان فقط ، مثل جمعية مسلمى بون ، أو « بيت الإسلام » ، بل وأيضا منظمات يرأسها أجانب ، مثل : « اتحاد الطلبة المسلمين » ، و « المجمع الإسلامى » فى ألمانيا ، و « اتحاد المراكز الألبانية الإسلامية » فى ألمانيا . ولا يثير عدم انضمام جمعية المشاركة التركية ومجلسها الإسلامى إلى هذا المجلس المركزى أى دهشة ، ويعود ذلك إلى ارتباطهما الوثيق بوضع الإسلام وتطوره فى دولة تركيا . [٨٦] .

أما المنظمة المنافسة لهذا المجلس ، وهى (DITIB) ، فهى منظمة تابعة للحكومة التركية ، وهى تواجه - بصفتها غرس الحكومة التركية فى الخارج - المشكلة التالية : لا يحق لها الانضمام لعضوية أى اتحاد مدنى .

ولقد حقق هذا المجلس المركزى ما ينشده لنفسه من مكانة رفيعة ، حينما عبر عن موقفه المبنى على النهج الإسلامى أمام لجنة الصحة بالمجلس النيابى الألمانى يوم ٢٨/ ٦/ ١٩٩٥ ، وذلك فى إطار مناقشة اللجنة لمسألة زرع الأعضاء ، والموت بالسكتة الدماغية (موت المخ) .

ولقد أعلن د. نديم إلياس أنه يعارض التباطؤ فى إقرار الموت ، عندما تتوقف الوظائف الحيوية ، وينتهى نشاط المخ بشكل قاطع ، لأن ذلك يتعارض مع كرامة الإنسان ورُقيِّه ، سواء فى الحياة أو الموت. وقد أيد عمليات زرع الأعضاء ، إذا ما تمثلت هذه العملية للأطباء كوسيلة العلاج الوحيدة المتاحة أمامهم ، وأن يتوفر لها فرصة نجاح كبيرة . ويشترط موافقة المتطوع ، والتأكد من عدم إلحاق أى ضرر به . وفى حالة استئصال أحد أعضاء متوفى ، فيشترط موافقة ذويه .

ولذلك ، فليس من المثير للدهشة أن يرى الرئيس الألمانى فى شخص رئيس المجلس شريك حوار رفيع المستوى. ولقد عبر الرئيس رومان هرتزوج عن هذا فى ١١/ ١٢/ ١٩٩٥ ، عندما استقبل ممثلى المسلمين فى ألمانيا ، فى قصر Bellevue . ومن الجدير بالذكر ، أنه أول رئيس يبادر بمثل هذا اللقاء .

وتظل مسألة انفراد المجلس بتمثيل الإسلام فى ألمانيا ، فى السنوات القادمة ، غير محسومة ، لأنها ستعتمد أساسا على النجاح فى تخطى بعض الخلافات داخل الجماعة الإسلامية . وربما نستطيع التوصل إلى اتفاق ، إذا ما أخذنا فى الاعتبار شهادتى كل من الأشعرى (توفى ٩٣٥) والغزالى (توفى ١١١١) (٨٧) .

ونحن بصدد تكوين إجماع دينى ، لا بد لنا أن نتوقف عند عدة قضايا ملحة ، ونصوغ الموقف الإسلامى منها ، مثل : سياسات السوق ذات الأبعاد الاجتماعية ، حقوق المرأة ، مفهوم الديمقراطية . . . ولا بد أن يأتى موقفنا فى شكل يخدم عملية الاعتراف بالإسلام .

ولكن الاعتراف قريبا بالإسلام أمر يحيط به الكثير من الشكوك ، حيث يتطلب الأمر وقتا طويلاً حتى تتعامل غالبية الألمان بروح يسودها الود مع الحقيقة البينة والمتمثلة فى الإسلام . . هذا الإسلام الذى أصبح ظاهرة ألمانية حيوية ومتنوعة ، ويمكن بالطبع التعايش معها فى سلام ، خصوصا وأن تمنى زوالها لن يفيد كثيرا . ولكن ما زال الدرب طويلاً وشاقا ، حتى نصل إلى تلك النقطة ، أى حتى يلقى الإسلام استحسانا وقبولاً لدى الشعب الألمانى .

ولقد تنبأ جوته بهذا ، حين قال ما معناه : التسامح خلق يجب أن نتخطاه ونجتازه ، فهو يصل بنا إلى الاعتراف . أما مجرد التقبل ، فهو أمر مهين . (٨٨)

ولكننا لم نصل لشيء من هذا بعد . ولذلك ، فإننى أؤيد أحمد فون دنفر ، حين قال قبل عدة سنوات : « نحن لا نؤخذ على محمل الجد ، ونحن نستمتع فى ثقافتنا الفرعية بحرية المجنون » . [٨٩] هذا هو وضعنا ، هذا فقط ، وليس أفضل منه .

وإننى لأخشى أن يكون هذا التسامح المحدود قد تضاءل ، خاصة بعد مسألة سلمان رشدى ، وحرب الخليج الثانية ، والتى أدت إلى شكوك حول مدى تمسك المسلمين بالدستور ، واحترام حقوق الإنسان ، وقدرتهم على ممارسةالديمقراطية . وبهذا ، توضع عراقيل جديدة فى سبيل الاعتراف بالإسلام . ويأتى الفصل الأخير ليتعرض لهذا الأمر .

الفصل الثاني عشر

العـــدو : الإســـلام

لقد بينت الصفحات السابقة بما لا يدع مجالا للشك ، أن المرء حديث الإسلام تطرأ عليه تغيرات عديدة لا تشمل داخله فحسب ، بل أيضا تنعكس هذه التغيرات على علاقته بمجتمعه وموقفه منه . ويشير هذا إلى عملية جدلية تؤدى أحيانا فى حالات فردية إلى الهجرة .

ويعتمد رد فعل العائلة والأصدقاء والجيران وزملاء العمل تجاه مقولة « الحمد لله ، إننى مسلم » ، على مستواهم الثقافى ، وطبيعتهم ودرجة تدينهم . (ويأتى إصدار بعض الكنائس الإنجيلية فى منطقة الرورر لأجندة توضيح أعياد اليهودوالمسيحين والمسلمين لعام ١٩٩٦ ، دليلا على تأثير درجة تمسك الفرد بدينه ، سلبا أو إيجابيا ، فى تقبله للآخرين) .

ولم يمثل ـ لى شخصيا ـ اعتناقى الإسلام مشكلات بين عائلتى و أصدقائى أو زملائى . فلم أتعرض للمعاملة كمخرف يمر بأزمة منتصف العمر ، بل على النقيض . فبعد اطلاعهم على أولى كتاباتى الإسلامية ، التى نشرت ، مثل : « الطريق الفلسفى إلى الإسلام» و « دور الفلسفة الإسلامية » ، [٩٠] انفتح مجال حوار ومناقشة واسع النطاق حول موضوعات ، مثل : الله فى الإسلام ومقارنته بمفهوم الثالوث فى المسيحية . ولكن قليلا منهم من يتذكر أن يهنئنى بحلول شهر رمضان المعظم ، أو عيد الأضحى ، بدلا من التهنئة بأعياد الميلاد .

ولقد كان تقبل أمر إسلامى شاقا وعسيرا جدا على أمى ، هذه المرأة شديدة التمسك بالمبادئ الكاثوليكية ، لأنها شعرت بمسئولية أمام الله من جراء اعتناقى الإسلام ، تلك «الزلة » . ولقد حاولت ، فى رسالة أرسلتها لها ، أن أوضح الأمر قائلا : يرى المسلم أن المسيح أحد الرسل اليهود ، وهو أعظمهم ، المعجزة التى ولدتها العذراء ، ولذلك فالفارق بين الديانتين : المسيحية والإسلام ـ كيفما يختار المرء ـ ضئيل جدا أو عظيم جدا . ولقد اختارت أمى أن تراه عظيما جدا[٩١] .

لم أتعرض كذلك فى عملى لأى مضايقات ، ولم يلحق بى أذى، بسبب اعتناقى الإسلام . فلقد قلدنى رئيس ألمانيا، د . كارل كارستن ، فى فبراير عام ١٩٨٤ ـ أى بعد ٣ سنوات ونصف سنة من اعتناقى الإسلام ـ وسام الاستحقاق . كما قامت وزارة الخارجية بتوزيع كتابى « يوميات ألمانى مسلم »(٩٢) على سفاراتها فى البلدان الإسلامية ، ليكون بمثابة الدليل والمرشد لأعضائها. كما تناول Walfgang Gunter Lerch الكتاب بالمناقشة فى جريدة فرانكفورتر ألجماينه ، فى العدد الصادر بتاريخ ١٣ من فبراير عام ١٩٨٦ ، فى مقال يحمل عنوان : « ألمانى مسلم ـ مذكرات دبلوماسى حول تحوله من ديانة إلى أخرى» .

ولم يثر ذلك أي زوابع ، مثله مثل تحقيق مصور من عدة صفحات تناول شخصى وزوجتى ، ونشر بتاريخ ١٧ من فبراير عام ١٩٩١ فى مجلة بيلد . ولم يجادل أحد حتى تلك اللحظة فى الفائدة التى تعود على ألمانيا إذ يمثلها مسلم فى بلد إسلامى . كما كانت علاقتى بممثلى الكنائس مرضية جدا ، بل تشكل لى مصدرا للسعادة . فكثير منهم يدرك أن المسيحيين والمسلمين على حد سواء يستقلون الزورق ذاته فى عالم يجنح أكثر فأكثر إلى المادية واللاأدرية . ولقد وجدت من بعض أعضاء الكنيسة إعجابا يشوبه بعض الحقد ، بدلا من الإعراض عنى الذى توقعه الكثيرون . ولقد أعلن ممثل على مستوى رفيع للكنيسة الإنجيلية فى ألمانيا ، أثناء الاحتفال الذى أقيم بمناسبة اليوبيل العشرين لإنشاء جامع ميونيخ أنه يشعر بسعادة بالغة وراحة بين المسلمين ، لأنهم يتحدثون عن الله بشكل طبيعى غير قابل للشك ، وهذا ما لا يجده للأسف الشديد فى بعض الدوائر الإنجيلية .

وهذا هو الجو الذى ساد ملتقى الحوار المسيحى ـ الإسلامى ، الذى انعقد فى هانوفر فى الفترة بين ١٣ ـ ١٥ من نوفمبر عام ١٩٩٥ . ولقد شاركت الكنيسة الإنجيلية ، والأكاديمية الملكية الأردنية لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة أهل البيت) ، فى ذلك الحوار . ولقد شاركتُ فى هذا الحوار البناء ، كعضو ضمن الوفد الأردنى .

ولقد أثمرت هذه الحوارات حتى الآن نجاحا ملحوظا فى مجال العلاقات الإنسانية ، وليس على مستوى المناقشات الدينية(٩٣) .

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعلنت فى ختام المجلس الملى الثانى بالفاتيكان عام ١٩٦٥ ، أنها تتخلى عن تفردها وحدها «بخلاص الأرواح من الذنوب» ، وأنها تعترف بالإسلام كطريق للخلاص ، إلا أنها ، أى روما ، لم تتقدم إلى الخطوة المنطقية التى تتبع هذا الاعتراف ، وهى الإعتراف بمحمدكقائد لهذا الطريق ومرشد له ، وبالقرآن كوحى

إلهي. وجاء عدم اعترافها ذلك ، بالرغم من المجهودات العظيمة التي يبذلها عالم الدين هانز كونج بمدينة Tubingen ، لتحقيق تقدم بهذا الصدد .

وعلى الجانب الآخر ، تبين لي أن مثل هذه الحوارات المسيحية ـ الإسلامية يمكن أن تكون في بعض الأحيان غير مثمرة أو مجدية ، بل قد تكون بالأحرى محبطة ، ويمكنها أن تأتي بنتائج عكسية . ولقد كنت شاهدا على شيء من هذا القبيل يوم ١٩ من نوفمبرعام ١٩٨٨ بالجزائر ، وذلك من خلال محاضرة ألقاها العالم كونج . فبعد أن استعرض بحرص ودقة رؤيته للمسيحية وللإسلام ، جاء السؤال الأول سريعا جدا : « إذا كنت تؤمن بما سمعناه الآن ، فلماذا تظل حتى هذه اللحظة مسيحيا ؟ ! » . وجاءت إجابة كونج في صورة كتيب كان قد أعده ، ويحمل عنوان : (لماذا أظل مسيحيا ؟)[٩٤] .

واتخذت الندوة فيما بعد مسارا خاطئا ، فلا شيء يجهض الحوار بين الأديان أكثر من محاولة استحواذ طرف على الطرف الآخر .

وتلوح في الأفق إمكانات تقارب ، حتى على المستوى الفقهي . ويعود ذلك إلى أن علماء الدين المسيحيين في الكنيستين يعيدون النظر والتفكير في مفهوم طبيعة وماهية المسيح كما رآها المسيحيون الأوائل ، أي اليهود المسيحيون ، وبعدهم المسيحيون الأريسيون . وكان Adolf Von Harnach (المتوفى عام ١٩٣٠) قد استلفت الأنظار إلى أن حواريي المسيح لم يؤلهوه ، أي أن شهادة الإيمان بالمسيح إلهًا ، والمنسوبة إلى الحواريين ، لم تصدر عنهم ، ولا تعكس حقيقة إيمانهم وجوهر عقيدتهم .

ولقد استمر هذا الاتجاه الناقد والفاحص للمصادر ، والذي يتخذ من نصوص العهد الجديد موضوع بحث ودراسة ، منذ القرن التاسع عشر . بل إن هذا الاتجاه زعزع اليقين في أكثر معتقدات المسيحيين رسوخا ، حيث أثبت أن الموضع الوحيد ، الذي يشير إلى فكرة التالوث الواردة في خطاب يوحنا الأول ـ الإصحاح الخامس الآية السابعة ـ تزوير يعود تاريخه إلى عام ٣٨٠ تقريبا بعد المسيح ! !

أما الأمر الأكثر إزعاجا في الأوساط المسيحية فهو متابعة سياق ومجريات المجلس الملي الموحد الأول ، والمنعقد في نيقية عام ٣٢٥ ميلاديا ، حيث تمكنت أقلية من المسيحيين في هذا المجمع من القطع بأن المسيح لم يخلق بل وُلد ، وأنه يتساوى في ماهيته مع الرب ، وهذه القلة قد فرضت رأيها على الحاضرين [٩٥] . أما الأمر المثير للإزعاج حقا ، فهو أن الداعي لعقد هذا المجمع ورئيسه ، كان الإمبراطور الوثني قسطنطين . ولقد اقترح

الإمبراطور هذه الصيغة الدينية الحاسمة. وفرضها لأغراض سياسية ، ألا وهى حفظ السلام الداخلى بالبلا د .

ويمكننا فى مجمل القول أن نقر بوجود مجهودات عظيمة ، يبذلها علماء الدين بالكنيستين المسيحيتين للوصول إلى ما قبل مجمع نيقية ، والوقوف على حقيقة الأمر، خصوصا ماهية المسيح الذى يرون فيه إنسانا اختاره الله فقط لا غير، كما ينادى بذلك كل من Rudolf Bultmann ؛ Karl Rahmer ؛ Hans Kung ؛ Paul Schwarzenau و John Hick . وهذا الرأى ، يتوافق تماما مع ما جاء فى القرآن بشأن المسيح : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسلُ وأمّه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنّى يُؤفكون ﴾ (سورة المائدة : آية ٧٥) .

وهناك Matthew Fox ، الذى يرى المسيح « رؤية روحانية عالمية » . ويتحدث عالم الدين الإنجيلى Schwarzenau عن دخولنا فجأة « عصر ما بعد المسيحية » ، المصاحب « لعناصر دين عالمى » .

وإذا تمكن هذا الاتجاه من فرض نفسه ، فلن تقف أى عوائق فقهية فى طريق التعاون المسيحى ـ الإسلامى .

أما بالنسبة للادينيين ، فلم تواجهنى أى مشكلات معهم ، بعد اعتناقى الإسلام . فلقد اقتنع هؤلاء الناس فى أعماقهم بأن الدين مسألة شخصية ، ومن أدق خصوصيات المرء . وأعتقد أن موقف التسامح هذا على قدر هائل من اللامبالاة . ولقد واجهت موقفا شبيها ـ بشكل مثير للضحك ـ يوم الرابع من يونيو عام ١٩٦٠ . توجهت فى هذا اليوم إلى كنيسة إنجيلية صغيرة (تدعو إلى رفض فكرة الثالوث) بجامعة هارفارد ، لإتمام مراسم زواجى الأول .

لم يوجه لنا رجل الدين أى أسئلة عن ديانتنا ، بل أراد فقط أن يعلم أننا لسنا شواذ جنسيًا . أما فوق الهيكل ، فكتب بترتيب أبجدى : بوذا ، كونفوشيوس ، عيسى ، موسى ، محمد . هذا الحياد يصل إلى حد الاستسلام . أسلوب الحياة الأمريكى الذى يتلخص فى العبارة التالية : لكل شأنه !

ولكن هناك ظاهرة أخرى تلحظها بسهولة . فالعالم الغربى لا يقدم المسلمين مشيرا إلى ديانتهم ، حتى لا يثار شك حول ذكائهم ! ! ولقد صادفت تلك المواقف كثيرا ، أثناء رحلاتى لإلقاء محاضرات بصفتى مدير قسم المعلومات بحلف شمالى الأطلنطى ، سواء كانت هذه الرحلات داخل الولايات المتحدة أو أوربا . ودائما ما يتم إغفال ذكر إسلامى عند استعراض سيرة حياتى .

وتلحظ ، بالإضافة إلى ذلك ، عدم ذكر أوحتى التعرض لتأثيرات الإسلام ومساهماته فى التطور الثقافى للحضارة الغربية . ويسود هذا الاتجاه معظم كتب تاريخ الفلسفة . ولا يمثل الجهل بالإسلام حتى الآن ثغرة فى ثقافة الفرد ومعلوماته !

ولكن للأسف ، لم تكن جميع ردود الفعل إزاء اعتناقى الإسلام بريئة ومسالمة ، كالتى وردت فى السطور السابقة . ويعود ذلك إلى فزع يسكن قلوب الألمان ، ورعب متمكن من أعماق الشعب الألمانى من كل ماهو إسلامى . هذا الفزع التاريخى ، يصل إلى درجة اللامعقول ، وسرعان ما يتحول وبسهولة شديدة إلى عداء سافر .

ويتغذى هذا الفزع على ذكريات جماعية مشتركة ، يتقاسمها الألمان ، بل تتوارثها الأجيال عن المنازعات الحربية المريرة بين العالمين المسيحى والإسلامى فى العصور الوسطى . لم تغب أبدا عن ذاكرة الألمان ـ حتى بشكل غير واع ـ حقيقة وجود المسلمين لعدة قرون فى إسبانيا وصقلية والمجر .

ولعبت الحروب الصليبية ، بطبيعة الحال ، دورًا أساسيا فى إزكاء هذا الفزع وروح العداء تجاه الإسلام والمسلمين . فلقد أصابت هذه الحروب ـ برغم نجاحها العسكرى ـ الأوربيين بصدمة ثقافية هائلة ومروعة ، لأنهم تيقنوا أن هؤلاء « الكفرة » الحقراء ، الذين يقطنون بلاد الشام ، أصحاب حضارة كبرى مزدهرة ، بل إنها تتفوق على الحضارة المسيحية ـ الأوربية فى مختلف الأوجه والمجالات .

ولقد أدرك بعض الأوربيين ، فى ذلك الوقت ، حقيقة أثارت حرجهم ، بل أزعجتهم ، حقيقة مفادها أن الغرب هو غروب صباح أشرق فى بلاد الشرق .

وتأتى صحوة الإسلام ، وعودة الحياة والروح إليه التى شهدها فى العقود القليلة الماضية ، لتضيف أسبابا جديدة لفزع الغرب من الإسلام ، خصوصا وأن هذه الصحوة تتعارض تماما مع تكهنات المحللين المتخصصين فى دراسة الشرق .

عندما نشرت فى عام ١٩٠١ للمرة الأولى ترجمة القرآن بقلم Max Henning[٩٦] (ظهرت منها عشرات الطبعات الجديدة) ، كتب المترجم فى مقدمتها : « إن الإسلام على ما يبدو قد استنفد دوره السياسى » . وكانت هذه العبارة فى ذلك الوقت تحمل الكثير من الصحة ، نظرا لوقوع العالم الإسلامى بنسبة تصل إلى ١٠٠ ٪ تحت وطأة الاستعمار الأوربى .

وكان دارسو الإسلام ، إبان فترة الاستعمار وحتى خمسينيات هذا القرن ، على يقين تام من موت وفناء موضوع بحثهم ، حتى إنهم انطلقوا يبحثون عن الإسلام قبل زواله وأفول

نجمه ، ليتمكنوا من وصفه وتصويره ، مثلهم مثل علماء الأنثروبولوجيا ، وعلماء النبات . فلقد كـان واضحا بما لا يدع مجالا للشك ، أن ديـانة السكان الأصليين البدائيـة ستذوب أمام شمس الحداثة الغربية .

أما الصدمة الكبرى ، والأمر المثير لاستفزاز دول الغرب وحكـوماته ، فهو ذلك التطور فى مسيرة الإسلام وصحـوته ، والـذى بلغ قمته عنـدما ألحقت دولـة شيعية ، هـى إيران ، إهانات بالغة ومتتالية لأمريكا ، بدأت منذ عام ١٩٧٩ . وأن هذه الإيران تصمد لكل ردود فعل الولايات المتحـدة وعقوباتها . وعلى الجانب الآخر ، أجبر المجاهـدون الأفغان الجيش السوفيتى ، وهو جيش قوة عظمى ، على الانسحاب من أراضيه .

ويعتبر الكثير من الغربيين صمود الإسلام ، ورفضه الانسحاب من مسرح الأحداث ، خروجا عن سياق الزمـن والتاريخ ، بل إنه يمثل إهانة بالغة للغـرب ، خاصة بعد انتصار النظام « الرأسمالى » على غـريمه الشيوعى . ومنـذ ذلك الوقت ، يلحـظ الكثيرون انتشار ظاهرة محددة يشخصونها ، تحت مسمى أعراض مرض زهو انتصار ثقافى إمبريالى غربى .

وأبلغ بيان لهذا الوضـع ، هو كتاب (ظهر أول الأمر فى شكل مقـال) «نهاية التاريخ » لكاتبه فرانسيس فوكوياما [٩٧] . وقد كان فـوكوياما يشغـل فى ذلك الوقت منصـب رئيس قسم التخطيط بوزارة الخارجية الأمـريكية . ونلحظ هذا التوجه فى نظريات بـرنارد لويس ، صمويـل هانتنجتـون Bernard Lewis و Samuel P.Huntington حـول « صـدام الحضارات» . [٩٨] . ويرى هذا الإرث الفكرى الأصولى للحداثة والمنتشر كذلك فيما بعد الحداثة ، أن الحضارة الغربيـة (أو على وجه الدقة أسلوب الحياة الأمـريكية) أفضل النماذج التى يمكن أن تصـل إليها الإنسانية . وتعمل الحضـارة الغربية على تشكيل منظـومة القيم المسيطرة على مجريات الأمور ، بل مستقبل الإنسانية كله .

فالغـرب بفلسفته الحيـاتية ، ونظـاميه الاقتصـادى والسياسـى ، وفرضيـاتة العلميـة ، وتكنولـوجياته ، ومفهومـه عن حق الشعوب ، وغيرهـا من معطيات الفكر والحيـاة ، يمثل نموذجا إلزاميا لما يسمـى بالعالم الثالث وشعوبه . وتجد الأخيرة هذه نفسهـا أمام خيارين : إما أن تتغـرب بلا أدنى قيود (يطلق المسلمـون على هذه العملية مصطلـح كوكلـة ، وهو مشتق من كوكاكولا) ، وإما أن تتهمـش إلى فقدانها لأى قيمة ، وأن تنسحب فى آخر الأمر من التاريخ .

ويتفق المحللون السابـق ذكرهـم على وجود حضارة واحدة فقط ـ بـالإضافة إلى الحضـارة

الكنفوشيوسية ـ ترغب، بل وتعمل على التنصل والانسلاخ عن هيمنة الثقافية الغربية على العالم، بل وتتصدى لمحاولتها القضاء على خصوصية الأقاليم المختلفة. تلك الحضارة هى الحضارة الإسلامية. فمن الواضح أن الإسلام يجرؤ على طرح نفسه كبديل للحضارة الغربية[٩٩]. ولذلك يتنبأ كل من Huntington , Lewis بوقوع صدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية. وقد دفع هذا السبب ذاته سكرتير عام حلف شمالى الأطلنطى فى ذلك الوقت، كلايس، إلى مطالبة المخططين العسكريين للحلف بالتأهب لصراع محتمل ومتوقع وقوعه بين الشمال والجنوب.

* * *

وتنطلق مجددًا صيحة « الأتراك قادمون »، لتعيد إلى الذاكرة الأوربية الصدمة التى حلت بفيينا بل أوربا كلها عندما طرق الأتراك أبواب العاصمة النمساوية. ويظهر العدو الجديد متمثلاً فى الإسلام والمسلمين.

كما تتأثر العقلية الغربية من ناحية أخرى حتى يومنا هذا، بما لحق بشخص محمد فى العصور الوسطى من مساواة صورته بصورة الشيطان. ولقد تعرض محمد لقذف وسب مريرين فى ذلك الوقت، فى أوربا حيث نُعِتَ بالدجال، والمخادع، والمحتال، والشهوانى. وبلغ هذا السب ذروته بنعته بكلب الجحيم. ويسميه رشدى فى روايته ماهوند (المقطع الثانى هوند يعنى بالألمانية كلب). وتقول أنا مارى شيميل بهذا الصدد: « أثارت شخصية محمد أكثر من أى شخصية تاريخية أخرى مشاعر الخوف والكراهية والاحتقار فى العالم المسيحى. وحين يلعنه دانتى فى عمله « الكوميديا الإلهية »، ويضعه فى أعمق بؤرة فى الجحيم، فإنه بذلك إنما يعبر عن مشاعر عدد لا يحصى من مسيحيى العصور الوسطى[١٠٠].

وفى واقع الأمر، فإن رسول الإسلام، الذى يحظى باحترام مليار إنسان، لا يتمتع حتى الآن فى الغرب بأى حماية قانونية. فالإساءة إليه وتشويه صورته لا يقعان تحت طائلة القانون، بل إنهما من الأمور المقبولة سياسيا.

ويشعر المسلم بآثار النظرة السلبية المتعمقة فى نفوس الغربيين، بل يتأكد منها يوميا، عندما يرى « الكيل بمكياليين» فى أى مشكلة يكون المسلمون طرفا فيها.

وإنه لمن أشد الأمور عجبا تسامح الغرب تجاه « السوبر ماركت الدينى »، والذى يباع فيه كل شىء لكل من شاء :

أتباع مذهب الأنثروبوسفيا لمؤسسه : Rudolf Steiner . بوذيون من أمثال : - Hare Krishna - Junger . وأتباع مذهب التكهنية الهندى ، مثل Carlos Casteneda . وعابدو آلهة أنثوية ، مثل Christer Mulack [101] . وعابدو الشيطان ، وهم أتباع بعض العبادات والطقوس التى تؤله الشيطان .

عندما أعلن النجم السينمائى ريتشارد جير اعتناقه للبوذية ، لم تثر أى تعليقات سلبية ، ولم يتعرض لأى قذف أو مضايقات . فكل شىء مسموح به ، إلا أن تكون مسلما . هذا إذا أردت أن تنأى بنفسك عن المضايقات والمشكلات .

تتحدث وسائل الإعلام ، من وقت إلى آخر ، بشكل لائق وفى احترام بالغ عن طقوس اليهودية المتشددة ، خصوصا طائفة Lubevitscher ، ويتابعون بحرص طقوس الفصل بين الجنسين ، تدابير الزيجات ، تصفيفات شعرهم ذات المغزى الدينى ، ملابسهم ، غطاء الرأس ، آداب الطعام ، النحر ورفض تناول لحم الخنزير . ولكن لا يتهمهم أحد بانتهاك حقوق المرأة ، أو أن هذه الطقوس رجعية أو متعصبة . ولكن هذه هى الصفات التى تلصق بالمسلمين ، إذا ما سلكوا نفس هذا المسلك .

و يظهر أكثر ما يظهر بوضوح نهج « الكيل بمكيالين » فى التقارير الإخبارية التى تبثها وسائل الإعلام ، والتى تتناول الإرهاب . فلم يتحدث أحد أبداً عن هتلر الكاثوليكى ، أو ستالين المسيحى الأرثوذكسى . كما تتجنب وسائل الإعلام وصف زعيم الصرب كارادتش بالمسيحى . ولكن فى اللحظة التى يمسك فيها عربى بسلاح فى يده ، يتم الإشارة إليه بصفته الإرهابى المسلم ، حتى إذا كان هذا العربى مسيحيا فلسطينيا ، أو بحثيا لا يؤمن بالله .

لم يخطر ببال أحد أن يصف الأسلحة الذرية التى أسقطت على نجازاكى وهيروشيما بـ« القنبلة المسيحية » . ولكن إذا ما تناثرت شائعات أو حامت شكوك حول قيام دولة إسلامية بصنع أسلحة ذرية ، يكثر الحديث فورا عن « القنبلة الإسلامية » . كما أننى ألحظ أن صفة « متعصب» حجزت مسبقا للمسلمين . فالقذافى ، وخومينى ، وصدام حسين متعصبون ، أما ميلوشفيتش فلا . الهجمات المسلحة فى كتالونيا وإقليم الباسك وأيرلندا الشمالية ، لا يقوم بها « باسكيون متعصبون » ، أو « كاثوليك متعصبون» ، بل أعضاء جماعة ETA وجماع RAI . .

ولقد تطور هذا السلوك ، حتى إنه اتخذ شكلا عبثيا . فالمسلم يصنف كمتعصب إذا

لم يصدر منه أى سلوك يؤخذ عليه سوى الصلاة والصيام . أما إذا كان ملتحيا ، فتلصق به فورًا صفة متهم ، ويلقى صعوبات هائلة من موظفى الجوازات . (هذه اللحية ذاتها كانت تعتبر تقدمية ، نسبة إلى شى جيفارا) .

أما أكثر الأمور خطورة ، فهو التصوير الخاطئ والتشويه الذى تعرض له الإسلام فى بعض وسائل الإعلام خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، وإضرام نار الخوف من هذا الدين وأتباعه . ولقد استهدف المسلمون من كتابات بأقلام : Gerhard Peter Scholl Latour و Konzelmann (التحدى الإسلامى عام ١٩٨١) ، Rolf stolz , Bassam tibi : (الملا على ضفاف الراين . الزحف الإسلامى نحو أوربا . ميونخ عام ١٩٩٤) . وبالإضافة إلى ذلك مجموعة من المقالات فى المجلات وفى برامج تليفزيونية .

فالناس تعلق بأذهانهم برامج حديثة مثل : « إرهاب باسم الله» (١٨/ ٩/ ١٩٩٤ على قناة RTL) ، و«حرب مقدسة باسم الله» (١٥/ ٩/ ١٩٩٤ على قناة ARD بافاريا٣)[١٠٢] .

ولقد مكنت هذه الكتابات مجلة Bunte من التساؤل فى العدد الصادر بتاريخ ١٩/ ١/ ١٩٩٥ عما « إذا ما كان مركز التهديد قد انتقل من موسكو إلى مكة» . ولقد كانت المجلة على ثقة تامة من عدم جرأة أحد من القراء على نفى ذلك أو معارضته .

أما أكثر أنواع الهجوم خطورة على السلام الدينى والتعايش السلمى بين الأديان فى ألمانيا ، فيقوده بسام طيبى ـ الدمشقى الأصل ـ أستاذ العلوم السياسية (فى مدينة Gottingen) . ولقد كان بسام يوما ما يعتنق الفكر الماركسى ، أما اليوم ، فهو ما يمكن أن نطلق عليه : «إسلامى الثقافة » . وبسام طيبى شديد الانبهار «بمشروع الحداثة الأوربى» ، الذى أخذ يشكك فى نفسه منذ فترة ليست بقصيرة . وهو يضع ـ إذا كانت قراءتى له صحيحة ـ الإسلام كنقيض تام لهذا المشروع الأوربى ، ويصفه باللامعقولية ، وأنه دين شمولى غير قادر على التعايش السلمى[١٠٣] .

وجاءت مقالته بمجلة شبيجل عام ١٩٩٤ ، شاهدة تماما على أسلوبه . وقد حملت المقالة عنوانا جارفا ، مثيرًا : « كالنار والماء» ، وتضمنت آيات مضللة من القرآن الكريم . وقد ادعى مجددا فى مقالته أنه « يستحيل التوفيق بين الإسلام وحقوق الإنسان الفردية » ، وأن «الشرع الإسلامى يفصل المسلمين عن الحضارة التى تعترف بحقوق الإنسان»[١٠٤] .
ويوحى طيبى المسلم المقيم فى أوربا بضرورة التوصل لـ «إسلام أوربى» ، يتماشى مع الحداثة ، به الكثير من أوربا والقليل من الإسلام .

ولقد شعر المسلمون فى أوربا بـامتنان شديـد، لأن غير المسلمين استاءوا من التشـويه الذى يلحق بالإسلام. ولقد عبر هؤلاء عن استيائهم هذا، فقام Gernot Rotter بكشف القناع عن Konzelmann ، وكشفه وأصـابه بشكل لم يتعرض لـه كاتب مـن قبل[١٠٥]. وتعرض Scholl - Latour فى عام (١٩٩٣) للشيء نفسه، بواسطة , Verona Klemm Karin Horner [١٠٦]. وفى العام ذاته، كشفت Dorothea Bolke حقيقة كل من سبق ذكرهم معا Konzelmann , Scholl Latour وبسام طيبى[١٠٧].

وقامت الناقدتان Marfa Heimbach , Goltschehre Jung فى عام ١٩٩٤، مـن خلال معالجة تهدم فكر طيبى، بتوجيه الأنظـار إلى تحذيره المستمر من تهديد يصيب أوربا من جـراء تحد إسلامـى أصولى. ولكنـه يعنى بالأصـوليين حتى كـل من يستخـدم كلمتى «قرآن» و«إسلامى» فقط. ولقد توصلت الناقـدتان إلى نتيجة، مفادها أن تصوير الأمر من جانب واحد سينشأ عنه فى نهاية الأمر جو عـام مشبع بالعداء والكراهية: « قدرة هائلة على العـداء والكراهيـة، أدت قبل خمسين عـامًا إلى حـرب إبادة لليهـود، كما يتعرض مسلمـو يوغوسلافيا السابقة اليوم لمثلها »[١٠٨].

ويعبر Marle Heller ـ ضمن آخرين ـ عن نظرية مفادهـا أن العالم الإسلامى يمثل استثناء سلبيـا فى إطار التطور العـالمى نحو الـديمقراطية واحترام حقـوق الإنسان[١٠٩]. وكـأن المسلمين بطبيعتهم غير قـادرين على ممارسـة الديمقـراطيـة. ويعتبر البعض هـذه النظرية شكـلا من أشكال العنصرية الثقافيـة، فى إطار ما بعد الحداثة. ولقـد تم دحض هذه النظرية فى مجموعة مقالات بعنوان: « ديمقراطية بلا ديمقراطين »؟ ولقد شاركت عالمة الإسلام الألمانية Gudrun Kramer (Bonn) بمجهودات عظيمة فى هذا العمل[١١٠].

ولقد توصلت هذه الدراسات بشكل واضح إلى نتيجة نهائية تشير إلى عدم وجود ارتباط بين الدين والاستبداد فى العالم الإسلامى، وكذلـك عدم وجود علاقة تناقض بين أن تكون مسلما وأن تكون ديمقـراطيا. بل على النقيـض، فنظم الحكـم غير الديمقراطيـة فى العالم الإسلامى لا تعـانى ضغطـا للتوجـه نحـو الديمقـراطيـة إلا ما تمارسـه عليها الحركـات الإسلامية، حتى إنهم لا يتعرضون لضغوط مماثلة من الغرب.

فى كلمات أخـرى: يشكل الإسـلام الخطـر الأوحد على المستبـديـن مـن حكام العـالم الإسلامـى، وليس على أوربا. هؤلاء الـذين ينظرون إلى المسلمين على أنهم أعداء للـدستور وللقوانين، إنما ينكرون على الإسـلام نظامه الشامـل الخاص بحقوق الإنسان[١١١]. هذا النظام الذى لا يخضع لأى أوامـر أو تدابير إنسانية، بـل هو نظام إلهى، كما ينكـرون عليه

إمكاناته الديمقراطية وسيرورته الديمقراطية . وبالإضافة إلى ذلك ، يتغاضون عن عمد عن حقوق الأقليات التى كفلها الإسلام .

فقد انشغل المشرعون المسلمون على مر القرون بشكل مكشف جدا بالوضع القانونى والالتزامات القانونية للمسلمين المقيمين فى بلد غير إسلامى . ومن ضمن هؤلاء المشرعين الماوردى (توفى عام ١٠٥٨) الذى أيد الرأى القائل بأن هؤلاء المسلمين يتبعون قوانين البلد المضيف . ويبيح المذهب الحنفى للمسلم المقيم فى إقليم مسيحى أن يتلقى الفائدة المالية ، لأن تعاليم القرآن الخاصة بالنظام الاقتصادى لا سبيل لتطبيقها هناك [١١٢] . فكيف يوجه الاتهام للمسلمين الألمان ــ فى ظل تشريعات كهذه ــ بأنهم فى مجملهم أعداء للدستور والقوانين؟!

ولكن ، إذا قرئ القرآن خارج سياقه الكلى ، وقلبت صفحاته بحثا عن انتقاص لحقوق الإنسان ملازم للقرآن ، فيجب إذن القيام بالمثل مع العهد الجديد .

وستواجهنا على سبيل المثال بعض النصوص المثيرة للشك فى الرسالة الأولى لبولس ، الموجهة إلى أهالى كورنثيوس : « أما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها ، فحسن للرجل أن لا يمس امرأة » (٧/ ١) . أو « ليس للمرأة تسلط على جسدها بل الرجل» . أو« أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال ، أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة » (٧/ ٢٧) .

ومن أقوال باولوس فى الرسالة الأولى لتيموثاوس : « لتتعلم المرأة بسكوت فى كل خضوع ولكن لست آذن للمرأة أن تُعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون فى سكوت لأن آدم جبل أولاً ثم حواء » (٢/ ١١) . ويمكننى أيضا أن أستشهد متلذذا برسالة بطرس الأولى : «كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن» (٣/ ١) .

هذا النهج الذى يسعى إلى إثبات خطأ فادح يصاحب الدين المسيحى منذ المهد فى حق الديمقراطية ، وكذلك الإشارة إلى عدم توافقها مع إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة ، هو ضرب من الغباء والتضليل ، وبالتالى أمر خطير. فلماذا إذن تتبع النهج نفسه مع الإسلام ؟!

ولن يندهش أحد ، إذا أقررنا الحقيقة التالية ، وأعتقد كذلك أننا لن نجد من يخالفنا الرأى : إن تنمية الاتجاهات المعادية للإسلام وتدعيمها ، يتركان آثارهما فى السياسة العليا والقرارات الحاسمة . وأوضح مثال من التاريخ القريب : دولتا الجزائر وهايتى . تم انتخاب قائدين أصوليين فى كلا البلدين ، وذلك عن طريق قنوات ديمقراطية ، وتم قمع هذا

التطور الديمقراطى عن طريق انقلاب عسكرى ، وبالتالى حال دون ممارسة الديمقراطية . وقد تدخلت كل من الأمم المتحدة والولايات المتحدة فى أحد البلدين ، وهو هايتى ، فأنزلت الولايات المتحدة قوات المارينز إلى أرض هايتى . أما فى القطر الآخر ، الجزائر ، فقد تنفست الحكومات الأوربية الصعداء ، حينما أطاح الانقلاب العسكرى بعباس مدنى ، لأنه أصولى إسلامى ، وليس أصوليا مسيحيا مثل أرستيد فى هايتى .

ويقف الصراع فى البوسنة ـ من منظور إسلامى ـ شاهدا جليا على مبدأ « الكيل بمكيالين » . فلقد تعرض ـ كما كان الوضع بالنسبة للكويت ـ عضو صغير فى الأمم المتحدة للعدوان والاحتلال من إحدى دول الجوار ، ولكن تدخل الأمم المتحدة اقتصر فقط على منطقة المصالح البترولية .

ونعود إلى البوسنة . فلقد سمى الضحايا بالمسلمين ، ولكن أغفلت وسائل الإعلام تماما الإشارة إلى ديانة المعتدين ، فخلت وسائل الإعلام من الإشارة إلى القتلة الصرب بالمسيحيين الأرثوذكس أو الكروات الكاثوليك . وذلك بالرغم من علم الجميع وإدراكهم لأسباب جرائم الصرب ، وأن تعطشهم المجنون للانتقام من معركة دارت رحاها قبل ٦٠٠ عام فى Kosovo Polje ، يزكيها ويضرم نيرانها كل من بطريركى الصرب الأورثوذكسى واليونان الأورثوذكسى .

ولقد حرص الغرب دائما على التأكيد بأن سلبيته إزاء المذابح والتطهير العرقى الذى يتعرض له المسلمون فى البوسنة والهرسك لا تعود إلى دوافع دينية ، إنما يحكم هذا الموقف أسباب أنانية تأخذ فى اعتبارها المصالح الخاصة بالدول ، أى أنها أسباب تتعلق بسياسات الدول . ولكن يعتقد المسلمون كافة أن تحيزا دينيا قد لعب دورا مهمًا فى تحديد مسار الصراع فى البوسنة .

ويتشابه هذا الموقف مع فشل الغرب فى عام ١٤٥٣ ، عندما سقطت القسطنطينية على يد السلطان العثمانى محمد الثانى (الفاتح) . ونستطيع أن نقرأ بوضوح فى كتابات Steven Reinciman أن مشاعر الكراهية التى يكنها الكاثوليك فى روما وفينسيا وباريس للكنيسة الشرقية المرتدة ، المارقة ، وعداءهم لها شكلا العامل الأساسى والحاسم فى تخليهم عن روما الشرقية للعثمانيين [١١٣] .

لا يتوهم المسلمون على أى حال أن الغرب ما كان ليتدخل عسكريا وبقوة إذا كان الصرب ـ بكل ما اقترفوه من الجرائم ضد البشرية مسلمين ، والبوسنيون ـ بكل ما تحمله

من آلام ـ هم المسيحيين . إننـا على يقين تام بأن الغرب كان سيشن حـربا شعواء على هؤلاء المسلمين المتـوحشين الهمج . وكـل هـذا بـاسم حقـوق الإنسـان ، ومبـادئ الأمم ، وقيـم الإنسانية الغربية .

أما أن يفـرض حظر سلاح على البـوسنة الكاثوليكيـة الضعيفة ، فلا أستطيـع أن أتخيل وجوده أبدًا .

ولقد تجاهـل الغرب ، فى محاولته حل الأزمـة فى البلقان ، مبادئ وأسسا يمارسهـا حلف شمالى الأطلنطـى ، ويلجـأ إليهـا دائما . وبنـاءً على هذا ، تـوصـل المسلمـون إلى النتيجـة النهائية ، وهى عدم الاهتمام واللامبالاة تجاه مصير شعب إسلامى فى أوربا .

ويلحـق هـذا الـرأى ، بطبيعـة الحال ، ظلما ببعض السيـاسيين والعسكـريين الـذيـن ينتهجون سياسة عدم الانحيـاز ، وذلك نظرا لاعتبارات موضوعية بعيدة عـن الدين . ولقد أطلق سينـاتـور أمريكى صيحته : « ليت المسلمين دراقيـل »!! وهذه العبارة تشير إلى اهتمام جماعات السلام الأخضر بالدراقيل .

ولكن كل هذا لا يغير شيئـا فى حقيقة شعور المسلمين تجاه الغرب . فبالرغـم من تدخل حلـف شمالى الأطلنطـى (الـذى تـأخـر كثيرًا) فى خـريـف عـام ١٩٩٥ ، فـإن كثيرا مـن المسلمين ، خاصة فى العالم الثالث ، يتحدث الآن ـ وسيتحدث لفترة قادمة ـ بمرارة لاذعة ، وبتهكم ساخر ، عـن مفهوم الغرب لحقوق الإنسان والديمقراطية . ولقـد سمعت مرارًا من شباب عربى أن حق الشعوب ـ على مايبدو ـ له عيون زرقاء وشعر أشقر !!

* * *

وأتفهم بطبيعة الحال توجيه العتاب للمسلمين فى ألمانيا من غير المسلمين ، لحساسيتهم المفرطة تجاه تحديد المظاهر المعادية للإسـلام . ولكن بالنظر إلى أعمال العنف العديدة ، التى تمارس ضد الأجانب (غالبا مسلمين) ، فإن هذه الحسـاسية تصبح مفهومة ، خاصة إذا ما تذكر نا الحقبة الاشتراكيـة القومية فى ماضى ألمانيا القريب . فلـم يمر سوى نصف قرن على عصر كان المواطنون الألمان فى وطنهم يتعرضون لـلاضطهاد والإبادة ، وذلك بأعداد غفيرة ، وتمثلت جـريمتهم الـوحيدة فى اختـلافهم فى الـدين والملبـس و العادات ، أو حتـى لأنهم يتحدثون بإحدى لهجات أوربا الشرقية .

ولقد سمـح وجود عداء للسـامية ، وهو ضـارب بجذوره فى أعماق أوربا ومـن ضمنها ألمانيا ، بحـدوث ذلك . كما أن هذا العداء حـال دون وجود رادع أخلاقى يقـاوم مثل هذه الجرائم ، ويتصدى لها .

ويتمثل الخوف الأعظم للمسلمين فى ألمانيا فى احتمال اندلاع ميكانيزم مماثل، ولكن هذه المرة، فإنه موجه ضد شعب سامى آخر، ألا وهو العرب ودينهم، أى عداء للسامية العربية. (قالت أمى، عندما تلقت رسالتى الأخيرة من مكة: «فليبق عند العرب»).

ونسمع دائما أن تطورًا كهذا غير مرغوب فيه. وكم أود أن أصدق هذا، ولكن لا تكفى النيات الطيبة، أو الكلمات حتى الصادقة منها ليتحقق هذا. ولكنه يتحقق أولاً بمنع الحديث عن عدم قدرة المسلمين على ممارسة الديمقراطية وعدائهم للدستور، وأنهم لا يكنون أدنى احترام لحقوق الإنسان، وأنهم يستهدفون إقامة الجمهورية الإسلامية جرمانستان، ذات نظام الحكم الدينى.

وإننى لآمل أن تكون التعليقات المعادية للإسلام فى ألمانيا فى المستقبل أكثر حذرًا. وأعتقد أن هذا الأمر بدأ يتحقق بالفعل فى بعض الدوائر والمجالات. ولكن على الجانب الآخر، يلحظ المسلمون وأصدقاؤهم تزايد ونمو ظاهرة مقلقة. فلم يعد لائقا سياسيا أن تتخذ موقفا إيجابيا من الإسلام، أى أن تبدى بعض التعاطف مع هذا الدين!

* * *

استلفت ألكس توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) الأنظار إلى وجود ميكانيزم جماعى، وآليات، لمراقبة حرية الرأى والتحكم فيه، وكذلك فى توجيه الرأى العام حتى فى الديمقراطيات الليبرالية. وضمّن آراءه هذه وتحليلاته كتابا بعنوان: «الديمقراطية فى أمريكا». وبالفعل، شهدت أمريكا هستريا فى صورة الحرب التى شنها السيناتور جوزيف مكارثى (١٩٠٩ - ١٩٥٧)، النائب عن ولاية ويسكنسن على «نشاطات غير مشروعة وغير أمريكية»، كما جاء فى كلماته.

وإذا كان التعامل النظرى مع الفكر الاشتراكى اليوم غير محرم، ولا يمثل جريمة يتعقبها القانون، فلا يعنى هذا انتهاء أو موت المكارثية. فالمعارض، معرض اليوم ليواجه بالتهمة ذاتها، ولكن تحت مسميات ومصطلحات أخرى. فلم تعد التهمة أنه ينادى بأفكار «غير أمريكية»، ولكن تستخدم مصطلحات تدل على أنه لا ينتهج «تفكيرًا سياسيا سليمًا». ويعرض المرء نفسه لهذه التهمة (القاتلة سياسيًا وعلميًا) اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية، إذا ما صدرت منه أدنى بادرة توحى بتساؤل أو تشكيك يدور حول أحد ثلاث محرمات (تابو):

١ - المساواة بين الرجل والمرأة.

٢ ـ المساواة بين البيض والزنوج .

٣ ـ ارتباط السياسة الخارجية الأمريكية بمثيلتها الإسرائيلية .

* * *

عُقد فى شتاء عام ١٩٩٤ بفيينا مؤتمر حول « أوربا والأديان بين الحروب الدينية والتسامح المدنى » . ولقد أقر Robert Spaemann بانتشار مناخ غير ليبرالى فى أوربا ، وذلك باسم كونية ليبرالية . وذلك لأن عدم وجود المذهب ، لا يقل خطرا عن وجوده . ويجمل القول إن الليبرالية ، فى حقيقة الأمر ، غير متسامحة مع غيرها من الأيديولوجيات ، أى أنها كأيديولوجيا مثلها مثل منظومات فكرية أخرى[١١٤] .

وتمثل هذه الآراء الأرضية الحتمية « لتفكير سياسى سليم » فى بلادنا . وتختلف المحرمات من بلد إلى آخر. فإبداء موقف إيجابى من الإسلام ، لم يصبح بعد خطأ فى الولايات المتحدة الأمريكية . أما فى ألمانيا وإنجلترا ، فهو بلاشك خطأ فادح ، بل قاتل . (أخبرنى ناشر كتبى بالإنجليزية أثناء زيارتى له فى ٢/ ١٠/ ١٩٩٥ ، أن المكتبات الإنجليزية تخجل وتستحى من عرض كتبى فى نافذة العرض . فلم يعد عرض كتابات إيجابية عن الإسلام أمرًا مقبولاً) .

ولقد وقعت أنا نفسى ضحية لوسائل الإعلام ، وذلك عندما أعلنت دار نشر Diederich فى أوائل عام ١٩٩٢ عن صدور كتابى « الإسلام كبديل » ، فى نهاية مارس من العام نفسه . فلقد أثار عنوان الكتاب وحده حملة ضدى فى وسائل الإعلام خاصة فى ARD وبيلد ـ يوم الأحد ـ .

وجهت لى هذه الحملة اتهامات عديدة ، منها أننى أؤيد الزواج بأكثر من امرأة واحدة ، وكذلك أؤيد الاعتداء بالضرب على النساء ، و بتر الأيدى ، ورجم الزانى (بيلد ٢٢ من مارس) . بل ادعت المجلة أننى أرغم السيدات اللاتى يعملن معى فى السفارة بالرباط على ارتداء الحجاب (بيلد ٢٩ من مارس) ، وأننى دفعت أحد العاملين معى إلى الموت (بيلد ٥ من إبريل) .

وبلغت هذه الحملة ذروتها فى تعليقات نائبة رئيس الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى (SPD) ، وتشغل فى الوقت ذاته منصب خبيرة الشئون القانونية بالحزب . وجاءت أولى مقالاتها لتقول : « إن هذا الرجل لا يطاق ولا يحتمل كسفير يمثل بلده » . ودعت وزير الخارجية جنشر لقراءة الكتاب فى أقرب فرصة ، ليعمل على الحيلولة دون أن يمثل

هذا الرجل دولتنا (مع أن اليسار ضد الفصل من العمل) . وقالت إن الكتاب يمثل لها «عمل إنسان ساذج مغفل لا يعلم حتى مبادئ دستورنا » .

وعندما طالبت السيدة Daubler - Gmetin وزير الخارجية بقراءة الكتاب موضع الاتهام، والاطلاع عليه، لم تكن قد قرأته هي نفسها، لأن الكتاب لم يكن قد صدر بعد!! وعندما تم أخيرًا الاستعلام عني والتحري عن شخصي ، والاطلاع على الكتاب ، وجدوا أن جميع الاتهامات التي وجهت لي لا أساس لها من الصحة ، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة[115] . وصدق القرآن مرة أخرى (السورة ٥٣ : الآية ٢٨) .

تزامنت هذه الأحداث مع حلول شهر رمضان المعظم، فواصلت صيامي هادئا مطمئنًا . وكنت كثيرا ما أتذكر الآية الواردة في القرآن (السورة ٢٩ : الآية ٢) ، وكذلك (السورة ٤ : الآية ١٣٢) . ولقد احتار الكثير من زملائي من جراء هدوئي تجاه الحملة واسعة النطاق، التي استهدفت شخصي، ولكنني كنت على يقين ـ وما زلت ـ بأن هذه الادعاءات كانت ترمي إلى ماوراء شخصي ، فهي تستهدف الإسلام عامة والمسلمين في ألمانيا خاصة .

كنت قدأخطأت بالفعل، من وجهة نظرهم؛ فموقفي الإيجابي من الإسلام كان عام ١٩٩٠ مقبولاً سياسيًا ، ولكنه لم يعد كذلك عام ١٩٩٢ . وهذا هو التفسير الوحيد لتجاهل ممثلي وسائل الإعلام والسياسيين للمبدأ الأساسي الذي يحكم عملهم : « استمع إلى الطرف الآخر » ، وذلك في أثناء حملة الاتهامات التي وجهت لي. لم تكن هناك حاجة أو ضرورة لسماع دفاعي، لأنني كنت قد ارتكبت الجرم الأفظع، بل وصرحت به : « إنني مسلم» !

وتكرر الموقف ذاته في خريف عام ١٩٩٥ : محاولة ممارسة الضغوط من خلال وسائل الإعلام، لفرض موقف « لائق سياسيًا» في سياق يكون الإسلام طرفا فيه .

واستهدف الأمر هذه المرة شخصية بارزة، ذات مكانة رفيعة ، وهي شيخ وكبيرة علماء الإسلام الألمان آنا ماريا شيميلAnnemarie Schimmel (Bonn) . فلقد جرؤ القائمون على الأمر على منحها جائزة السلام، لاتحاد الكتاب الألماني، لعام ١٩٩٥ ، أي لعالمة يربطها بالإسلام صلات وثيقة، ولها إسهامات في التصوف الإسلامي . . عالمة تحظى باحترام عظيم في بلدان العالم الإسلامي وبخاصة باكستان . وكانت العالمة قد أعلنت رفضها لفتوى قتل سلمان رشدي، التي أصدرها الخوميني ، ووصفتها بأنها « مروعة»

و«مخيفة» . وكان هذا الحكم القانونى موفقا سياسيًا ومقبولاً من الرأى العام . ولكنها أقرت فى الوقت نفسه بأن رشدى « جرح بأسلوبه مشاعر عدد كبير من المؤمنين» . . « لقد رأيت بالفعل مسلمين يبكون بسبب ما ورد فى هذا الكتاب » . فهى ذاتها غير المسلمة الباحثة فى تاريخ الأديان ، قد تعرضت لصدمة شديدة ، مع أن الأمر كله يدور حول رواية . وكان إقرار الحقيقة هذا ، والتعبير عن مشاعرها أمرا مرفوضا سياسيا ، ولا يلقى استحسانا لدى الرأى العام .

أما تلميذها وزميلها Gernot Rotter ، والذى أجرى حديثا معها ، نشر فى مجلة Spiegel ، فقد رفض وصف تأثير «آيات شيطانية» فى العالم الإسلامى ، قائلا : « إننى ما زلت على رأيى : فمحمد لا يتعرض حقيقة لإهانة فى كتاب رشدى»(١١٦) .

وعلى أثر ذلك ، اشتعلت حملة فى وسائل الإعلام ، وحملة للكتاب ، استمرت لعدة شهور ، تستهدف شيميل والحيلولة دون منحها الجائزة ، واستمرت هذه الحملة حتى الموعد المحدد لتسلُّمها الجائزة فى ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥ .

وغلب على الحملة مقولة إن هذه الشخصية لا تطاق كعالمة ، وإنها تمارس مادتها ، أى الإسلام ، بكثير من التعاطف غير المسموح به على الصعيدين السياسى والعلمى .

ولقد شغلت المجادلات حول جائزة السلام الرأى العام فى ألمانيا حتى اليوم المقرر لتسلّمها . ولا بد أن نتفهم حرص الرأى العام على متابعة مجريات الأمر ، نظر للدلالة الخطيرة التى كان الاتحاد العام للكتاب سيحملها إذا ماسحب جائزته تحت ضغوط معينة ، إذ سيكون هذا الموقف ـ الذى لم يحدث ـ بمثابة إنذار وتهديد لمكانة حرية الفكر والرأى العام والتعبير، التى يتمتع بها المرء فى ألمانيا .

ولقد حاول رئيس قسم الدراسات الشرقية فى بون ، ستيفان فيلد ، فى حديث أدلى به للإذاعة يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٩٥ ، استلفات الأنظار إلى المحاولة الواضحة لمعاقبة شيميل على توصيلها لأخبار سيئة ، أى غير مرغوب فيها ، كما جرت العادة فى العصور القديمة . وكان موقفه هذا موقفا رقيقا بين الزملاء .

وكان بمقدور الأستاذ Wild توجيه اتهام لـ Gernot Rotter ، مفاده عجرفة تجعله يرى فى أوربا مركزًا أوحد للكون .

كان رئيس الدولة مدركا لحقيقة المناخ الفكرى فى ألمانيا ، عندما أعلن عن قيامه بتسليم الجائزة بنفسه يوم ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥ ، فى كنيسة باول فى مدينة فرانكفورت .

ولم يأت حـديث عمـدة المدينة ، Betra Roth من فراغ ، عنـدما تحدثت عن تصـوير الإسلام كعـدو. كذلك لم يحتـج الرئيس جـزافا في خطبتـه الاحتفالية على المحـاولات التي تمارسها وسائل الإعلام لفرض آراء بعينها على الرأى العام . وكنت أتمنى أن يشير إلى الظاهرة «بالألمانية» ، لأن ظاهرة عدم التسامح الفكرى استوطنت ألمانيا فعلاً .

إننى أتساءل :

إلى أين سيصل بنا المطاف ، إذ ما كممـت الأفواه فى ألمانيا ، لأنها تتحدث عن حقائق لا تتوافـق مع أيديولـوجية بعينها؟! ماذا سيحـل بنا ، إذا ما استباح الأسـاتذة والعلماء الألمان الحق لأنفسهم فى إملاء مشاعر بعينها على مليار من البشر (غير المرغوب فيهم) ؟!

فليحفـظ الله ألمانيـا ـ ليس مسلميها فحسـب ـــ من جـراء عدم تسامح الأصـوليين الليبراليين ، وتصويرهم الإسلام عدوًا !

الخـــاتـــمة

لا يتبع الكتاب نظاما محددا سلفا . لكن بالرغم من ذلك ، فإنه يمكن للقارئ أن يتبين توجها أساسيا فى تقسيم فصول الكتاب ، ألا وهو « أركان الإسلام الخمسة » .

فيتضمن الفصل الثانى الشهادة ، ويدور الفصل الثالث حول الصلاة ، والرابع حول الزكاة . ويتحدث الفصل الخامس عن الصيام . أما الفصل الأول ، فموضوعه الحج .

ويتطرق الكتاب ، بالإضافة إلى ذلك ، إلى أهم الأوامر والنواهى التى تصوغ ممارسات الدين الإسلامى . فيناقش الفصل الرابع مسألة تحريم الخمر والمخدرات ، ويستعرض الفصل السادس النهى عن تناول لحم الخنزير ، وكذلك النحر وفق ما تمليه الشريعة الإسلامية .

أما الإيمان بالقضاء والقدر ، فيتناوله الفصل السابع . ويدور الفصل الثامن حول الأضحية . ويحتل الحديث عن الزواج فى الإسلام المساحة العظمى من الفصل التاسع . أما الفصل الحادى عشر ، فيتناول العمل على نشر الدين ، وتجهيز المتوفى ودفنه فى الإسلام ، وكذلك الاستعداد للتضحية بالنفس فى سبيل الله ودينه (الفصل الأخير : جهاد) .

وبالرغم من طابع السيرة الذاتية ، الذى يتصف به الكتاب ، فإنه يصلح فى المقام الأول كدليل عملى للطريق إلى الإسلام ، أى فى سبيل الله .

تعليقات الهوامش

١ ـ Koran ، هى الكتابة الصوتية للكلمة العربية : قرآن (الذى يقرأ) . والكلمة تنطق فى مقطعين منفصلين . ويتكون القرآن من ١١٤ سورة ، وما يزيد على ٦٠٠٠ آية ، وهى مجمل الوحى الإلهى الذى تنزّل على الرسول محمد ، منذ عام ٦١٠م حتى وفاته فى عام ٦٣٢م . ولا يتطابق الترتيب الزمنى لنزول الآيات مع الترتيب الذى نقرؤه اليوم فى القرآن . فترتيب آيات القرآن تم تحديده فى شكله النهائى ـ الذى بين أيدينا اليوم ـ عام ٦٤١ م .

٢ ـ الحج ، كلمة عربية تشير إلى الرحلة المقدسة الكبرى إلى مكة وما حولها . والحج فريضة يجب على المسلم القادر أداؤها مرة واحدة فى حياته ، وذلك فى ميقات محدد ، هو شهر ذى الحجة ، أى الشهر الثانى عشر من الشهور القمرية العربية . أما العمرة ، فهى رحلة إلى الأماكن المقدسة فى أى وقت من العام . ويمكن كذلك أداء العمرة مع الحج فى الوقت نفسه . ويقوم غالبية الحجاج والمعتمرين بزيارة مسجد وقبر الرسول فى المدينة .

٣ ـ للاطلاع باستفاضة على مناسك الحج والعمرة ، انظر : كتاب « رحلة الحج إلى مكة » لمؤلفه أحمد فون دنفر ، والصادر فى ميونخ عام ١٩٨٧ ، وكذلك : « الدليل إلى مكة والمدينة » من سلسلة كتاب « السفر اليوم » ، مجلد ٤٩ ، الصادر فى باريس عام ١٩٨٢ .

أما عن رحلات الحج فى القرن ١٩ ، فيمكن الرجوع إلى كتاب : « فى مكة والمدينة » لمؤلفه johann Ludwig Burkhardt، الصادر فى برلين عام ١٩٩٤ ، وكذلك : « رحلة حجى إلى مكة » لمؤلفه Von Maltzan Heinrich ، الصادر فى توبنجن عام ١٩٨٢ ، وكذلك على وجه الخصوص فى كتاب : ريتشارد بيرتون الذى يحمل عنوان « قص شخصى حول رحلة الحج إلى مكة والمدينة » ، والصادر فى جزأين عام ١٩٦٤ فى لندن ونيويورك .

٤ ـ Carsten Niebuhr : « وصف الرحلات إلى الجزيرة العربية ، وبعض البلدان المجاورة » . زيورخ (١٩٩٢) ، ص ٣١٨ .

٥ ـ مراد هوفمان : «درب فلسفى إلى الإسلام» . الطبعة الثانية ، كولونيا ، (١٩٨٣) .

٦ ـ هرمان هسه « طُرُق إلى الداخل » ، فرانكفورت (١٩٧٣) . وكذلك : « لعبة البلورات الزجاجية» (١٩٤٣) ، طبعات عديدة فى دار نشر Suhrkamp .

٧ ـ صحيح البخاري : « السنوات الأولى للإسلام » (ترجمة محمد أسد) ، جبل طارق (١٩٨١).

في متن ١ الخاص بالمقطع ١١ (ص ١٦٨) ، ترد روايتان مختلفتان لاعتناق عمر للدين الإسلامي.

٨ ـ الغزالي : « المنقذ من الضلال » ، (دار نشر Felix Meiner ، رقم ٣٨٩). هامبورج (١٩٨٨) ، ص ٢٠ و ص ٤٢ .

٩ ـ محمد أسد : « الطريق إلى مكة » (١٩٥٤) ، جبل طارق (١٩٨٢) ص ٣٥٠ و ص ٣٦٠ .

١٠ ـ كريستيان هوفمان : « بين كافة الكراسي » ، بون (١٩٩٥) ، ص ٢٥ .

١١ ـ Les Accord d'Evian : Benyoucef Ben Khedda الطبعة الثانية ، الجزائر (١٩٨٧).

١٢ ـ من يهتم بخطوات ومصطلحات الباليه الكلاسيكي ، سيجد خير دليل في كتاب : « أسس الرقص الكلاسيكي » لمؤلفه A.J. Waganowa ، (ترجمة : Jochen Scheibe) ، والصادر في برلين عام ١٩٦٤ .

وكذلك كتاب : « الباليه الكلاسيكي » تأليف : Muriel Stuart / George Balanchine ، نيويورك (١٩٥٢) .

١٣ ـ كاترين جيلبرت وهلموت كونز : « تاريخ علم الجمال » ، بلومنجتن ، إنديانا ، عام ١٩٥٣.

١٤ ـ فلفريد هوفمان : « الباليه . الموضوعي وغير الموضوعي » ، في : « المسرح والعصر » ، فوبرتال (١٩٦٥) ، عدد ٦ .

١٥ ـ فلفريد هوفمان : « عن الجمال في الرقص ـ أسس جماليات الباليه » ، في « أرشيف الرقص » كولونيا (١٩٧٣ ـ ١٩٧٤) العدد ٦ـ٨ . ونشرت كذلك مصورة تحت عنوان « عن الجمال والرقص . نحو أسس جماليات الباليه » باللغة الإنجليزية في « آراء حول الرقص » ، نيويورك (١٩٧٣) العدد ٥٥.

١٦ ـ نقلاً عن : « إيفا بركون » : « نظريات عن التأثير العربي في الموسيقى الأوربية في العصور الوسطى » صدر في الدورف عام ١٩٧٦ ، ص ١١٠ .

١٧ ـ هو جو فون هوفمانستال / كارل بوركهاردت : (رسائل) فرانكفورت (١٩٥٧) ، خطاب بتاريخ ١٥ / ١ / ١٩٢٩ .

١٨ ـ انظر ١٧ ، خطاب بتاريخ ١٢/ ١/ ١٩٢٩ .

١٩ ـ ريتشارد سوبيرن : « وجود الله » شتوتجارت (١٩٨٧) .

٢٠ ـ انظر : وصف اعتناقى الإسلام فى كتاب « الحمد لله ، مسلم ذو أصول غربية » فى : « ألمان هداهم الله » ، كولونيا (١٩٨٢).

٢١ ـ تجد المعنى ذاته فى الآيات التالية : سورة ٦ الآية ١٦٤ ، سورة ١٧ الآية ١٥ ، سورة ٣٥ الآية ١٨ ، وسورة ٣٩ الآية ٧ .

٢٢ ـ محمد رسول : « الصلاة فى الإسلام » ، كولونيا (١٩٨٣).

٢٣ ـ هذا الوضوء لا يفى بالغرض فى حالتى المعاشرة الزوجية والحيض عند المرأة ، ولهذا يلزم الغسل .

٢٤ ـ انظر لتفصيلات أدق : مراد هوفمان : « يوميات مسلم ألمانى » الطبعة الثانية . كولونيا (١٩٩١) ص ١٥٦ .

٢٥ ـ أنا مارى شيميل : « لك الملك وحدك : صلوات وأدعية إسلامية . فرايبرج (١٩٧٨)، و«فلتكن مشيئتك ـ أجمل الأدعية الإسلامية » . بوندورف (١٩٩٢) .

٢٦ ـ Frithjof Schuon : Islam and the Perennial Philosophy لندن (١٩٧٦) .

٢٧ ـ Frithjof Schuon : « أن نفهم الإسلام » ، ميونخ (١٩٨٨) ص ٨٥ . وانظر كذلك : «أدعية الإسلام » لمؤلفه عادل تيودور خورى . ماينز (١٩٨١).

٢٨ ـ خطوات تحريم المخدرات ، انظر هلموت جتيه : « القرآن وتفسيره » شتوتجارت (١٩٧١) ص ٢٦٤ ، ص ٢٧٦ .

٢٩ ـ سورة ٢ آية ٢١٩ ، سورة ٤ آية ٤٣ ، سورة ٥ آية ٩٠ .

٣٠ ـ لتفاصيل أخرى ، انظر « الصيام » ، منشورات المركز الإسلامى بميونخ عدد ٥ ، ميونخ (١٩٧٨) .

٣١ ـ يبدأ اليوم الإسلامى بغروب الشمس .

٣٢ ـ انظر G.S.P. Freeman - Grenville : التقويمان الإسلامى والمسيحى ، الطبعة الثانية (١٩٩٥).

٣٣ ـ انظر عبد الحميد بنتشيكو : « مواقيت الإسلام » ، (باللغات الإنجليزية ، الفرنسية ، العربية) (١٩٩١).

٣٤ـ انظر Hans Heinrich Reckeweg : « لحم الخنزير والصحة »، بادن ـ بادن (١٩٧٧).

٣٥ـ يستطيع الإنسان الأشول أن يأكل بيساره.

٣٦ـ أسس وقواعد الطعام وآداب المائدة واردة فى القرآن : (السورة ٥ الآيات من ٣ـ ٥ ، سورة ٦ الآية ١٤٥ ، سورة ٧ الآية ٣١ ، سورة ١٦ الآيات من ٦٦ ـ ٦٩ ، سورة ٢٤ الآية ٦١ ، السورة ٣٣ الآية ٥٣ ، السورة ٨٠ الآيات من ٢٤ ـ ٣٢) . وكذلك أحاديث الرسول فى صحيح البخارى (ترجمة م.م. خان)، ٩ أجزاء ، الطبعة الثالثة ، شيكاجو (١٩٧٧) ، الجزء ٧ كتاب ٦٥ (عن الطعام)، وكتاب ٦٩ (عن الشراب) . وكذلك فى صحيح مسلم (ترجمة عبد الحميد صديقى) ، ٤ أجزاء لاهور (١٩٨٠) ، الجزء ٣ فى كتاب رقم ٢١ أحاديث رقم : ٥٠٣٧ ، ٥٠٣٩ ، ٥٠٩٧ و ٥١٢١.

وتجدر الإشارة كذلك إلى كتاب أبى حامد الغزالى : « إحياء علوم الدين » (ترجمة : مولانا فضل الكريم) لاهور الجزء ٣ ، كتاب ٣ ، الفصلان الثانى والثالث .

وكذلك هانز كندرمان : عن العادات الطيبة لتناول الطعام والشراب ـ الكتاب ١١ من العمل الرئيس للغزالى . ليدن (١٩٦٤).

وأوستروب : آداب وذوقيات شرقية . أشكال وصيغ فى الإسلام . ليبزج (١٩٢٩).

أما التهذيب والانحطاط فى بلاط الخلفاء العباسيين، فنقرؤهما فى كتاب ابن الوصا : « كتاب الثوب المطرز » (ترجمة ديتر بلمان) ، ليبزج (١٩٨٤) ، خاصة الجزء الثانى الفصل ٢٩ (الأخلاق التى يجب أن يتبعها علية القوم عند تناول الطعام) ، والفصل ٣٠ (عن سلوك علية القوم عند تناول الشراب).

٣٧ـ يتبع بروتوكول البلاط المغربى العادات الغربية وليست السُّنة .

٣٨ـ كانت النتيجة مسودة لم تطبع بعد : بلين هوفمان : المطبخ الإسلامى ١٥٠ أكلة من المغرب والمشرق وتركيا .

٣٩ـ لقد رأى الفيلد مارشال هلموت فون مُلتكه عادات الأكل هذه وغيرها أثناء خدمته كمستشار عسكرى للسلطان العثمانى . ولقد قام بوصفها بدقة . انظر : هلموت فون ملتكه : « فى ظل الهلال. وقائع وأحداث فى تركيا القديمة ١٨٣٥ ـ ١٨٣٩ » توبنجن (١٩٧٩) ص ٨٥ ، ص ١٠٥ ، ١٣٦، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٨١ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٧٣ ، ٢٩٢ .

٤٠ـ لتفاصيل أخرى ، انظر أنيس محمد كَرديا : « الطريقة الإسلامية للنحر » فى « الإسلام » ، ميونيخ (١٩٩٠) العدد ٢ ـ ٤ .

٤١ - انظر مراد هوفمان : « الإسلام كبديل » . الطبعة الثالثة ، ميونيخ (١٩٩٥) ، فصل «القدرية» .

٤٢ - انظر ألويس شتادمُلر : « أشفنبرج أثناء الحرب العالمية الثانية : قذف بالقنابل ، احتلال ، تسليم» أشفنبرج (١٩٧٠) .

٤٣ - انظر : محمد رسول : سورتا الحرز . (المعوذتان) كولونيا (١٩٨٢) .

٤٤ - انظر : الزكاة : سلسلة مطبوعات المركز الإسلامي بميونخ ، العدد ٦ . ميونخ (١٩٧٨) .

٤٥ - يتناول غانى غوس إشكالية اقتصاد بلا فوائد ربوية بشكل رائع فى كتابه : « الفكر الاقتصادى فى الإسلام » ، شتوتجارت (١٩٨٦) ، ص ٦١ .

وكذلك سيد نواب ناقفى فى كتابه الصادر باللغة الإنجليزية : « الأخلاقيات والاقتصاديات » ، لايكستر (١٩٨١) . وكذلك عمر شابرا : « الإسلام والتطور الاقتصادى » إسلام آباد (١٩٩٣) .

٤٦ - لنظرة شاملة لمجمل إشكالية نظام اقتصادى إسلامى ، انظر : خورشيد أحمد فى : إبراهيم أبو رابى (ed) « عودة الروح الإسلامية » ، إسلام آباد (١٩٩٥) . و « استبعاد الربا من الاقتصاد » ، إسلام آباد (١٩٩٤) .

٤٧ - عن حقوق المرأة فى الإسلام ، انظر : مراد هوفمان : « الإسلام كبديل »(٤١) ص ١٦٣ - ص١٨٥ .

٤٨ - لقد استعنت بترجمات القرآن التالية : محمد على : « القرآن المقدس » ، زيورخ (١٩٥٤) . يوسف على : « القرآن المقدس » (باللغة الإنجليزية) ، الطبعة ١٢ ، برنتوود (١٩٨٩) . محمد أسد : « رسالة القرآن » (باللغة الإنجليزية) ، جبل طارق (١٩٨٠) . جاك بيرك : « القرآن » (باللغة الفرنسية) ، باريس (١٩٩٠) . حمزة بوباكير : « القرآن » (باللغة الفرنسية) ، الطبعة الثالثة ، باريس (١٩٨٥) . لازاروس جولد شميت : « القرآن » (١٩٢٠) فيزبادن (١٩٩٣) . محمد حميد الله : « القرآن المقدس » (باللغة الفرنسية) ، الطبعة الثالثة عشرة ، برنتوود (١٩٨٥) . ماكس هنينّج : « القرآن » ، ليبزج (١٩٠١) . عادل خورى : « القرآن » ، جُتيرسلوه (١٩٨٧) . دينيس ماسون : « القرآن » (باللغة الفرنسية) باريس (١٩٦٧) . دينيس ماسون وصبحى الصالح : « محاولة لتفسير القرآن » (باللغة الفرنسية) ، القاهرة - بيروت (١٩٨٠) . صدوق مازغ : « القرآن » (باللغة الفرنسية)، باريس (١٩٨٥) . رودى باريت : « القرآن » ، شتوتجارت (١٩٧٩) . محمد رسول : «القرآن الكريم »، الطبعة السابعة ، كولونيا (١٩٩٥) . مجموعة من المترجمين : « القرآن المقدس» (باللغة الفرنسية) ، المدنية (١٧٨٣) . م . سافارى : « القرآن » (باللغة الفرنسية » باريس (١٨٣٩) .

٤٩ - هوفمان : انظر رقم ٤١ صـ١٧٨ .

٥٠ - لقد أصدرت دار نشر برتلسمان كتالوجا ملونا ، يجدر بكل معنىً أن يقتنيه . جُتير سلوه (١٩٨٩).

٥١ - عن النشأة الأولى للجماعة الإسلامية فى ألمانيا ، انظر : كتاب م . س . عبد الله (هربرت كرافنكل) : « تاريخ الإسلام فى ألمانيا » ، جراتس (١٩٨١). و«هلال وسط نسر بروسيا » ، ألتنبرج (١٩٨٤) . و « موجز لتاريخ الأقلية الإسلامية بألمانيا » ، ألتنبرج (١٩٨٧).

٥٢ - كلاوس جنزيكه : « مفتى القدس أمين الحسينى والاشتراكيون القوميون » . فرانكفورت ، (١٩٨٨).

٥٣ - نشرت قائمة تشمل الترجمات المختلفة للقرآن ، وفق ترتيب أبجدى ، على الصفحات من ٢١٣ - ٢٣٥ من ببليوجرافيا العالم لترجمات معانى القرآن المقدس ، المطبوعة فى الأعوام بين ١٥١٥ حتى ١٩٨٠ . وهذه الببليوجرافيا أصدرها معهد الأبحاث الدولى للتاريخ - الفن والثقافة الإسلامية القائم بيلديز - إسطنبول.

كما تتضمن مقدمة محمد حميد الله (انظر أعلى ٤٨) قائمة مرتبة زمنيا لترجمات القرآن .

٥٤ - انظر السلسلة المكونة من ١٩ جزءاً ، والتى تحمل عنوان « الإسلام وجوته » ، بقلم أحمد فون دنفر ، والمنشورة فى جريدة الإسلام ، ميونيخ (١٩٩٠) ، عدد ١ - ١٩٩٤ ، وعدد ٤ ص ٢٨ لعام ١٩٩٠ ، ففى عمل جوته « الشعر والحقيقة » يقول : « ما كنت لأعتبر محمداً محتالا أبدا ».

لقد سبقنا جوته حتى فى هذا . انظر أعمال جوته (دار نشر إنزل) ، فرانكفورت (١٩٩٣) ، المجلد ٥ ، ص ٥٦٩ .

٥٥ - فريدريك روكيرت : « القرآن » ، فرانكفورت (١٨٨٨) ، إعادة طبع هلدسهايم (١٩٨٠).

٥٦ - محمد رسول (انظر أعلى ٤٨) ، والترجمة الجماعية التى قامت بها دار نشر بافاريا SRD بميونيخ فى ٥ أجزاء (١٩٩٦).

٥٧ - سيل . باريس (١٩٨٦).

٥٨ - دار نشر المكتبة الإسلامية ، كولونيا (١٩٨٢).

٥٩ - نقلاً عن ليزابث روشيه ، وفاطيما شرقاوى : « من عقيدة لأخرى » ، باريس (١٩٨٦) ص ٢٠ .

٦٠ - أحمد فون دنفر : (ed) « الإسلام هنا واليوم » ، كولونيا (١٩٨١) ص ٧٣ .

٦١ - نشر النص كاملاً فى جريدة : الإسلام ، ميونيخ ، (١٩٩١) العدد ٢ .

٦٢ - أما ما يجب إنجازه ، فتدلنا عليه قراءة الكتب الآتية : حسين أمين : « كتاب المسلمين »

(باللغة الفرنسية) ، باريس ، (بناءً على الطبعة العربية الصادرة عام ١٩٨٣) . طه جابر : « القرآن والسنّة - عنصر الزمان والمكان » ، هرندن (١٩٩١) (باللغة الإنجليزية) . محمد أسد : « الدولة والحكومة فى الإسلام » (باللغة الإنجليزية) ، جبل طارق (١٩٦١) . و «قانوننا هذا» ، جبل طارق (١٩٨٧) . محمد كارباك : « المنح الدراسية الغربية والصحوة الإسلامية فى العالم العربى » ، المنشورة فى المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية » ، هرندن ، الجزء ١٠ ، العدد ١ ، ربيع عام ١٩٩٣ . عمران أحسن خان نيازى : « نظريات فى الشرع الإسلامى - منهج الاجتهاد » إسلام آباد (١٩٩٤) . عبد الحميد أبو سليمان : « نحو نظرية إسلامية عن العلاقات الدولية » ، الطبعة الثانية ، هرندن (١٩٩٣) . وإسهامى الخاص : « إسلام عام ألفين » ، القاهرة (١٩٩٥) ، متوفر باللغة العربية فقط .

٦٣ - عنوان المعهد المركزى إسلام - أرشيف ألمانيا : سويست ٥٩٤٩٤ ش بريدر رقم ١٦ . ت ١٤١١٦ (٠٢٩٢١) . وتصدر عن هذه الدار «المجلة المسلمة» المدير : م . س . عبد الله .

٦٤ - عنوان المركز الإسلامى (الشيعى) وجامع الكبير التابع له : ش : شونه أوستريشت ٣٦ ، هامبورج ٢٢٠٨٥ . ت : ٤٧٨٠٤١ (٠٤٠) . ويدير المركز د. على عمارى . ويصدر عنها جريدة «الفجر» ت (٢٢١٢٢٠) .

٦٥ - المقصود هنا : جماعة الطرق الصوفية بألمانيا ، التى أسسها الألمانى حسين عبد الفتاح فى زالتسها وزن بشمالى ألمانيا ، ويصدر عنها مجلة « صوفى » .

أما دار نشر تربان (يعنى العمامة «مترجم») فى بوندورف فى منطقة الغابة السوداء ، فتتبع طريقة النقشبندى . انظر تعاليم الصوفى ناظم عدل الحقانى التى صدرت عن هذه الدار ، فى كتاب يحمل عنوان : « درب رفقاء الطريق » ، بوندورف (١٩٩١) .

العنوان ش شول رقم ١٥ بوندورف ٧٩٨٤٨ ت : ٩٤١٥ (٠٧٦٥٣) .

٦٦ - انظر ميشائله أتسلمزل : « ٤٠ يوما - تقرير عن تجربتى وسط جماعة دراويش تقليدية » ميونخ الطبعة الثانية (١٩٩٥) .

٦٧ - « الإسلام » ، شارع فالتر رقم ١ - ٥ ميونخ ٩٣٩ ٨٠ . ت : ٦٢ / ٣٢٥٠٦١ (٠٨٩) .

٦٨ - دار نشر المكتبة الإسلامية ، ص . ب ٨٣٠١٣٥ . كولونيا ٥١٠٣٤ . ت : ٦٠٣١١١ (٠٢٢١) . مدير الدار : م . ا . رسول .

٦٩ - دار نشر S R D ، بافاريا : ص . ب : ٤٣١٠٢٩ . ميونخ ٨٠٦٤٠ . ت ٣٩٢٠٨٨ (٠٨٩) مدير الدار : د . ا . خفاجى .

٧٠ـ رابطة المسلمين الألمان . ص .ب . ٢٠٢٢١٧ . هامبورج ٢٠٢١٥ . مدير الأعمال : عبدالله بوريك Abdullah Borek .

٧١ـ قام أ . د . محيي الدين لودن ، عام ١٩٨٩ ، بتوجيه الدعوة للعمل في هذه المنظمة في جريدة « الإسلام » ، العدد ١ ، والتي تصدر في ميونخ . ولكن دعوته ذهبت أدراج الريح .

٧٢ـ بيت / دار الإسلام : ش شيلر رقم ٤٦ . ليتزلباخ ٦٤٦٥٠ ، ت : ١٣٤٨ (٠٦١٦٥) . المدير : محمد صديق .

٧٣ـ تكونت عام ١٩٨٨ ، ويقوم تيلمان شايله برعايتها ، وترفع شعار : « الله أكبر ـ على استعداد دائم » . وشعارهم يحوطه هلال ونجمة خماسية .

٧٤ـ هذه المؤسسة ، تتعاون مع المؤسسة المماثلة لها في لندن : معونةالمسلم . ولقد قامت المؤسسة بتوفير المواد الغذائية والأدوية للاجئين من البوسنة والسودان . العنوان : ص ب ١٦٠٧ ، جارشنج ٨٥٧٤٠ . ت : ٣٢٦١٩٨١ (٠٨٩) . رقم حساب لتلقى المعونات : بوستجيرو أمت فرانكفورت ، رقم حساب ٦٠٤ـ٦٥٦٩ (٥٠٠١٠٠٦٠ BLZ)

٧٥ـ أعلن أحمد فون دنفر وقتها ، أن فتوى الخوميني غير ملزمة لأي فرد ، وأن حكم الخوميني يستند إلى خطأ قانوني ، حيث إن تهمة الردة لا يجب أن تتساوى مع الخيانة العظمى . ولقد ذكر في رسالة عامة قوله : « نحن لا نرحب بتهديد القتل الصادر عن إيران » . انظر مجلة : الإسلام ، ميونخ (١٩٨٩) ، عدد١ (واحد) ، ص٩ وص١٩ .

٧٦ـ انظر أحمد فون دنفر (ED) : الإسلام هنا واليوم . أوراق من لقاءات المسلمين المتحدثين بالألمانية ١ ـ ١٢ (١٩٧٦ ـ ١٩٨١) كولونيا : (١٩٨١) .

٧٧ـ أحمد فون دنفر . انظر أعلى (٧٦) ص ٣٢ .

٧٨ـ انظر : دراسات في الأبحاث الدولية للكتب المدرسية ، مجلد ٥٣ : « الإسلام في الكتب المدرسية في جمهورية ألمانيا الاتحادية » . هانز فوكتنج ومجموعة من الباحثين : « تحليل لكتب الدين الكاثوليكية وتناول للإسلام » ، براونشفايج (١٩٨٨) .

٧٩ـ عبد الجواد فلاتوري (ED) : « الإسلام والتدريس بالمدارس . مساهمات للتربية المتداخلة الحضارات في أوروبا » . براونشفايج (١٩٩١) .

٨٠ـ جريدة فرانكفورتر ألجمانيه بدءا من ٢١ / ٥ / ١٩٨٤ .

٨١ـ المركز الإسلامي بآخن (مسجد بلال) ، ش بروفسير بيرليه رقم ٢٠ ، ت ٨٢٠٣٣٠٣٤ (٠٢٤١) . المدير : العطار . المسئول عن الحوار والمجال العام : أيمن مازيك .

مقاومة الخضر لبناء مسجد جديد ، انظر : مجلد « دى تسايت » عدد ٤٢ ، تاريخ ١٢ / ١٠ / ١٩٩٠ .

٨٢ ـ الأصل فى هذه الفكرة رسم كاريكاتير هولندى .

٨٣ ـ تكفين المتوفى ، ووضعه فى نعش ، ودفنه فى تابوت ، يطيل من عملية تحلل الجثة ، وتصل بها إلى سبع لعشر سنوات . انظر أحمد الخليفة : « الدفن فى الإسلام » ، مجلة « الإسلام » ، عدد ٣ ميونخ (١٩٨٩) .

٨٤ ـ فولفجانج جنتر لرش : FAZ~ تاريخ ١ / ١٢ / ١٩٩٤ .

٨٥ ـ المجلس المركزى لمسلمى ألمانيا . ش فوجلزانجر ، رقم ٢٩٠ . كولونيا ٥٠٨٢٥ ت / فاكس : ٥٤٢٦١٦ (٠٢٢١) / ٢٤٤٣٤ (٠٢٤٠٣) .

٨٦ ـ طبقا للبيانات الرسمية ، يتم فى تركيا بناء جامع جديد كل ٦ ساعات ، وذلك بالجهود الأهلية . وكثير من هذه الأموال المستخدمة فى بناء المساجد مصدره الأتراك الذين يعيشون فى ألمانيا .

٨٧ ـ انظر : أرنولد هوتنجر : الله اليوم . زيورخ (١٩٨٠) .

٨٨ ـ جوته : مبادئ وتأملات . رقم ١٢١ .

٨٩ ـ أحمد فون دنفر ـ انظر ٧٦ ص٦٩ .

٩٠ ـ دار نشر المكتبة الإسلامية . كولونيا (١٩٨٤) .

٩١ ـ عن مشكلات المسلمين الجدد مع عائلاتهم ، انظر مراد هوفمان : « كيف أخبر أمى » فى مجلة « الإسلام » ميونخ (١٩٨٥) العدد ٥ .

٩٢ ـ دار نشر المكتبة الإسلامية ، كولونيا (١٩٨٥) الطبعة الثانية (١٩٩١) .

٩٣ ـ يمكن للمهتم بإشكالية هذا الحوار ومداه ، أن يرجع إلى : موريس بورمسانس ، وكتابه : «دروب وسبل للحوار المسيحى ـ المسلم » . وإسماعيل راجى الفاروقى : «ثلاثية الإيمان الإبراهيمى» هرندون الولايات المتحدة ، الطبعة الثالثة (١٩٩١) . وميشيل ليلونج : « إذا ما كان الرب أراد . . . » ، باريس (١٩٨٦) . ومراد هوفمان : « عن الحوار المسيحى المسلم » ، فى « الإسلام » ، ميونخ (١٩٨٦) ، العدد ٦ . وباول شفارتسناو : « علم القرآن للمسيحيين» ، شتوتجارت (١٩٨٢) .

٩٤ ـ باريس (١٩٨٨) . وكانت النسخة الألمانية قد نشرت قبل ذلك عام ١٩٨٥ ، فى زيورخ ، تحت عنوان : « ما الذى نتمسك به ؟ » .

٩٥ ـ لم يتمكن سوى خمسة أحبار من أتباع المسيحية الغربية الأريسية من الحضور .

٩٦ ـ قد يكون هذا اسمًا مستعارًا لأوجوست ملر (أستاذ الاستشراق) .

٩٧ ـ فرانسيس فوكوياما : « نهاية التاريخ والرجل الأخير » . نيويورك (١٩٩٣) . ولقد نشرت المقالة عام ١٩٩١ .

٩٨ ـ س . م هانتبختون : « صدام الحضارات » ، فى « شئون خارجية » ، المجلد ٧٢ ، العدد ٣ ، صيف ١٩٩٣ . نشر قبلها مقال : « جذور الغضب الإسلامى » لكاتبه برنارد لويس (« الأطلنطى » ٢٦٦ ، العدد ٣ ، سبتمبر عام ١٩٩٠) ، والذى تناول فيه الصراع بين الحضارتين [الغربية والإسلامية (مترجم)] .

٩٩ ـ جاء كتابى « الإسلام كبديل » ديدريشسى ميونخ (١٩٩٢) [ردا غير مباشر على كتاب فوكوياما المذكور فى ٩٧ ، وقد ظهرت منه عدة ترجمات . طبعته الإنجليزية : «الإسلام : البديل » ريدنج ، المملكة المتحدة (١٩٩٣) . وطبعته العربية : « الإسلام كبديل» ميونخ / الكويت (١٩٩٣) .

١٠٠ ـ أنا مارى شيميل : «و محمد رسوله » الطبعة الثالثة . ميونخ (١٩٩٥) ، ص٧ .

١٠١ ـ : « على درب الآلهة » مارل (١٩٩٢) .

١٠٢ ـ قام محمد أمان هربرت هوبوم بتحليل تميز وسائل الإعلام الألمانية بشكل رائع فى : الإسلام والمسلمون فى وسائل الإعلام والدوائر الحكومية فى ألمانيا . مساهمات قدمت فى المؤتمر السنوى للأكاديمية الملكية الأردنية بعمان (١٩٩٤) .

١٠٣ ـ نعتبر أكثر أعماله انتشارا : « أزمة الإسلام الحديث » ، فرانكفورت (١٩٩١) . « التآمر : كابوس السياسة العربية » هامبورج (١٩٩٣) . « الأصولية الإسلامية ، العلم الحديث ، التكنولوجيا» فرانكفورت (١٩٩٢) . « الإسلام ومشكلات التغلب الحضارى على التغير الاجتماعى » فرانكفورت (١٩٨٥) . « فى ظلال الله ـ الإسلام وحقوق الإنسان » فرانكفورت (١٩٩٤) .

ويدعى المؤلف فى كتاباته « أن الشرق كان سيبقى متخلفا حتى وإن لم يقع تحت طائلة الاستعمار » وهذه المقولة أبلغ وصف للمؤلف ، وليس للشرق .

١٠٤ ـ بسام طيبى : « كالنار والماء » فى مجلة « دير شبيجل » العدد ٣٧ لعام (١٩٩٤) ص١٧٠ ص١٧٢ .

١٠٥ ـ جرنوت روتر : « أدعياء الله » ، و« الغزوات الإعلامية لخبير الشرق الأدنى جرهارد كونتسلمان » ، هايدلبرج (١٩٩٢) .

١٠٦ ـ فيرونا كليم وكارين هُرنر : « سيف الخبير » . صورة العرب والإسلام المشوهة عند بيتر شول لاتور . . هايد لبرج (١٩٩٣) .

١٠٧ ـ دورثى بُلكه : « ثلاثة رجال فى قارب واحد . الأصولية الإسلاميةعند بيتر شول لاتور ، جرهارد كونتسلمان وبسام طيبى » ، فى « سيف الخبير » ـ انظر ١٠٦ .

١٠٨ ـ ج . يوخ وم . هايمباخ : « بسام طيبى » ـ آراء حول الحداثة الأوربية والأصولية الإسلامية » فى « حوار الأديان . حوار حول التراث والمعاصرة » . العدد ٣ ، بالف (١٩٩٤) .

١٠٩ ـ مارك هللر : « الشرق الأوسط : خطوة خارج التاريخ » (باللغة الإنجليزية) ، فى « شئون خارجية » ، المجلد ٥٩ ، العدد ١ ص ١٥٢ و ١٨٨ ـ ١٩٩ .

١١٠ ـ غسان سلامة (ED) : « ديمقراطية بلا ديمقراطيين ؟ » (باللغة الإنجليزية) ، « تحديث السياسات فى العالم الإسلامى » . لندن / نيويورك (١٩٩٤) . وانظر : مناقشاتى فى كتاب «العالم المسلم» لا يكستر (١٩٩٥) ، مجلد ١٦ ، عددا «واحد» ص ٣٦ ـ ص ٣٩ .

١١١ ـ انظر فصول حقوق الإنسان : و« جمهورية أم ملكية ؟» فى كتاب مراد هوفمان : « الإسلام كبديل » . انظر رقم ٩٩ .

١١٢ ـ خالد أبو الفضل : « التشريع الإسلامى والأقليات المسلمة » فى « التشريع الإسلامى والمجتمع » ، مجلد ١ عدد ٢ ، لايدن (١٩٩٤) .

١١٣ ـ ستيفن رونسيمان : « الاستيلاء على القسطنطينية (١٤٥٣) » . ميونخ (١٩٩٠) .

١١٤ ـ نقلا عن جريدة فرانكفورت ألجمانيه بتاريخ ٧ / ١٢ / ١٩٩٤ ، ص٥ .

١١٥ ـ كتبت مجلة « دير شبيجل » فى عددها الصادر بتاريخ ٣٠ / ٣ / ١٩٩٢ ، تقول : «يقوم القانونى خريج هارفاد بالدعوة صراحة لتعدد الزوجات ، ويرفض العنف فى الزواج » .

وكتب فريدى كشنايجر فى مجلة « دى تسايت » يوم ١٥ / ٥ / ١٩٩٢ قوله : « أما مؤلفو الروايات الساخرة عن الشطط الذى يمارسه آيات الله فى ظل العلم الألمانى ، فقد فاتهم أن يقرءوا مائتى الصفحة التى كتبها هوفمان » .

١١٦ ـ « دير شبيجل » ٢١ / ١٩٩٥ ، بتاريخ ٢٢ / ٥ / ١٩٩٥ ، ص٢١٤ ـ ٢١٦ .

الفهـــرس

مقدمة : ٥

الفصل الأول : الرحلة إلى مكة ٧

الفصل الثانى : دروب فلسفية إلى الإسلام ٢٩

الفصل الثالث : خمس مرات يوميا كما هو مفروض ٤١

الفصل الرابع : الإفاقة من السكْر ٥١

الفصل الخامس : اختبار الجَلَد ٥٧

الفصل السادس : مع مسلمين حول مائدة الطعام ٦٥

الفصل السابع : قدريون طموحون ٧٥

الفصل الثامن : عن حب المال ٨٧

الفصل التاسع : فتش عن المسلمة ٩٣

الفصل العاشر : إنسانية باردة كالجليد ١٠٩

الفصل الحادى عشر : الإسلام فى ألمانيا . . إسلام ألمانى؟ ١١٩

الفصل الثانى عشر : العدو : الإسلام ١٤٣

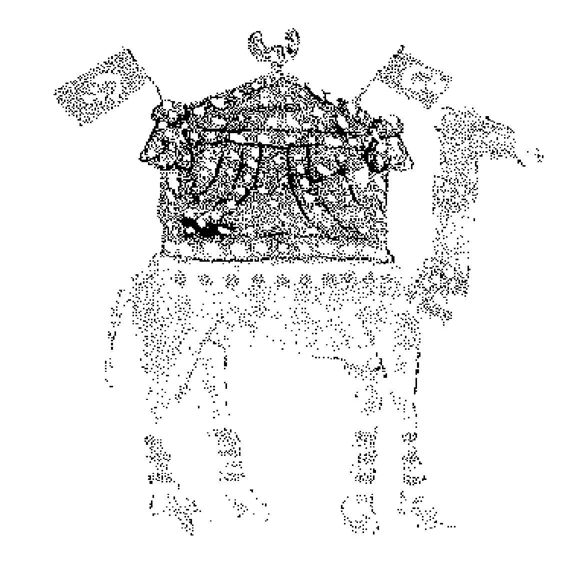
الخاتمة ١٦١

تعليقات الهوامش ١٦٣

رقم الإيداع ٥٤٣٢ /٩٨
الترقيم الدولى 4 - 0455 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨١٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الطريق إلى مكة

عندما نشرت دار ديتريش الألمانية ، فى عام ١٩٩٢ ، للمؤلف د. مراد هوفمان كتابه « الإسلام كبديل » ، ثارت زوبعة هائلة فى وسائل الإعلام، وفى دوائر الأحزاب ، وفى البرلمان . وكان القبول بما ثار آنذاك يعد تفريطا، لأنه كان يتجاوز شخص المؤلف بكثير ؛ فقد كان حملة قذف وتشويه منظمة تستهدف ما هو أبعد من ذلك .

لقد حاول المؤلف فى كتابه السابق « الإسلام كبديل » ، وبمنهج عقلانى دحض جميع التحيزات والأفكار الخاطئة واللامعقولة ، المسبقة والضاربة بجذورها فى أعماق الوجدان الألمانى ، حيال الإسلام .

أما الكتاب الحالى « الطريق إلى مكة » فهو يعنى بشىء آخر ، هو حقيقة الإيمان كما يعيشها المؤلف ويعايشها . ويحاول أن يساعد على إدراك القوة الدافعة التى يستمدها المسلم المؤمن من دينه ، وكيف تستطيع أن تسمو به، وأن يساعد كذلك على تبين الأفق الذى يمكن أن يصل إليه العالم الإسلام عند تمسكه بهذا الدين فى حياته اليومية .

تصميم الغلاف : الفنان حلمى التونى

دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)